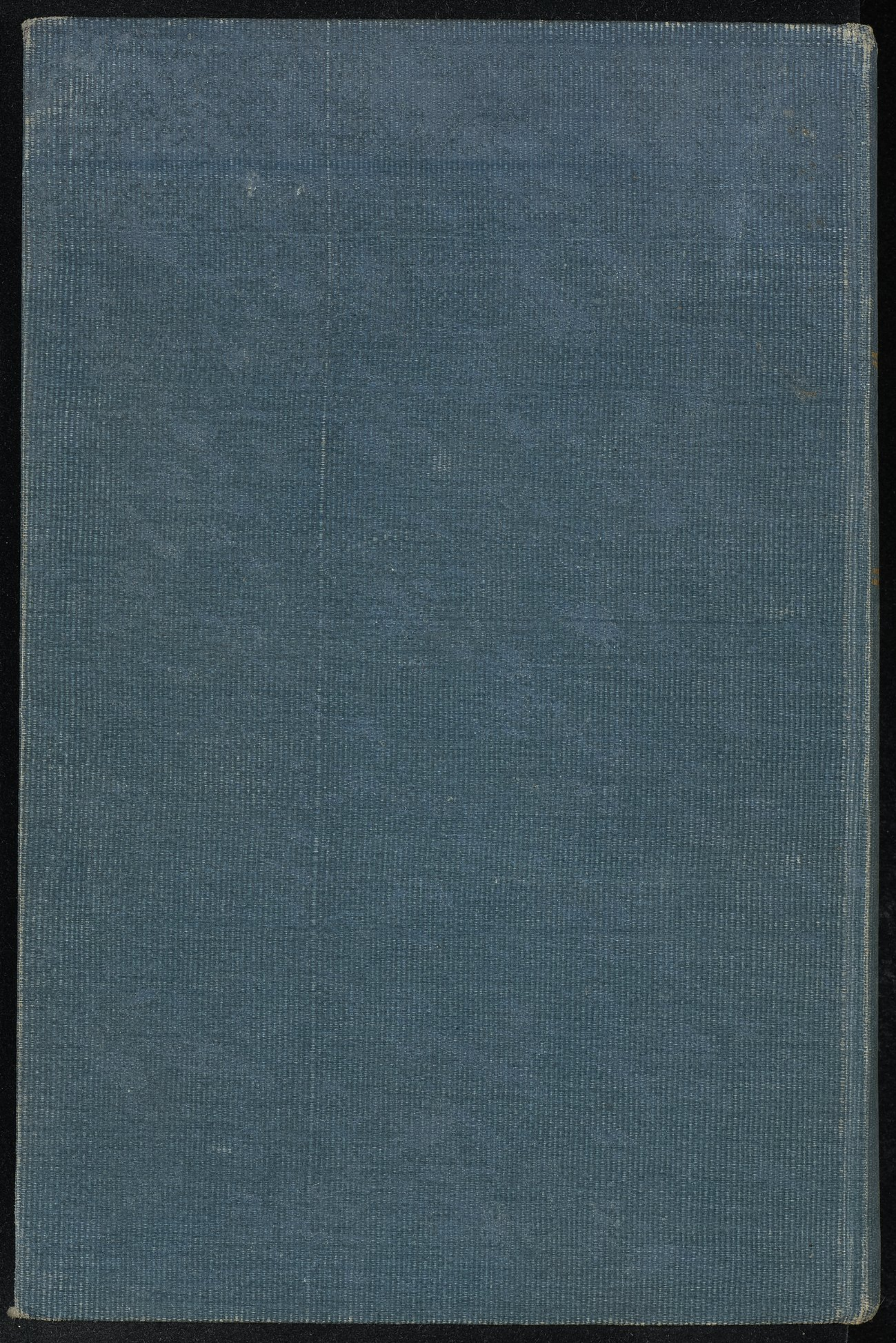
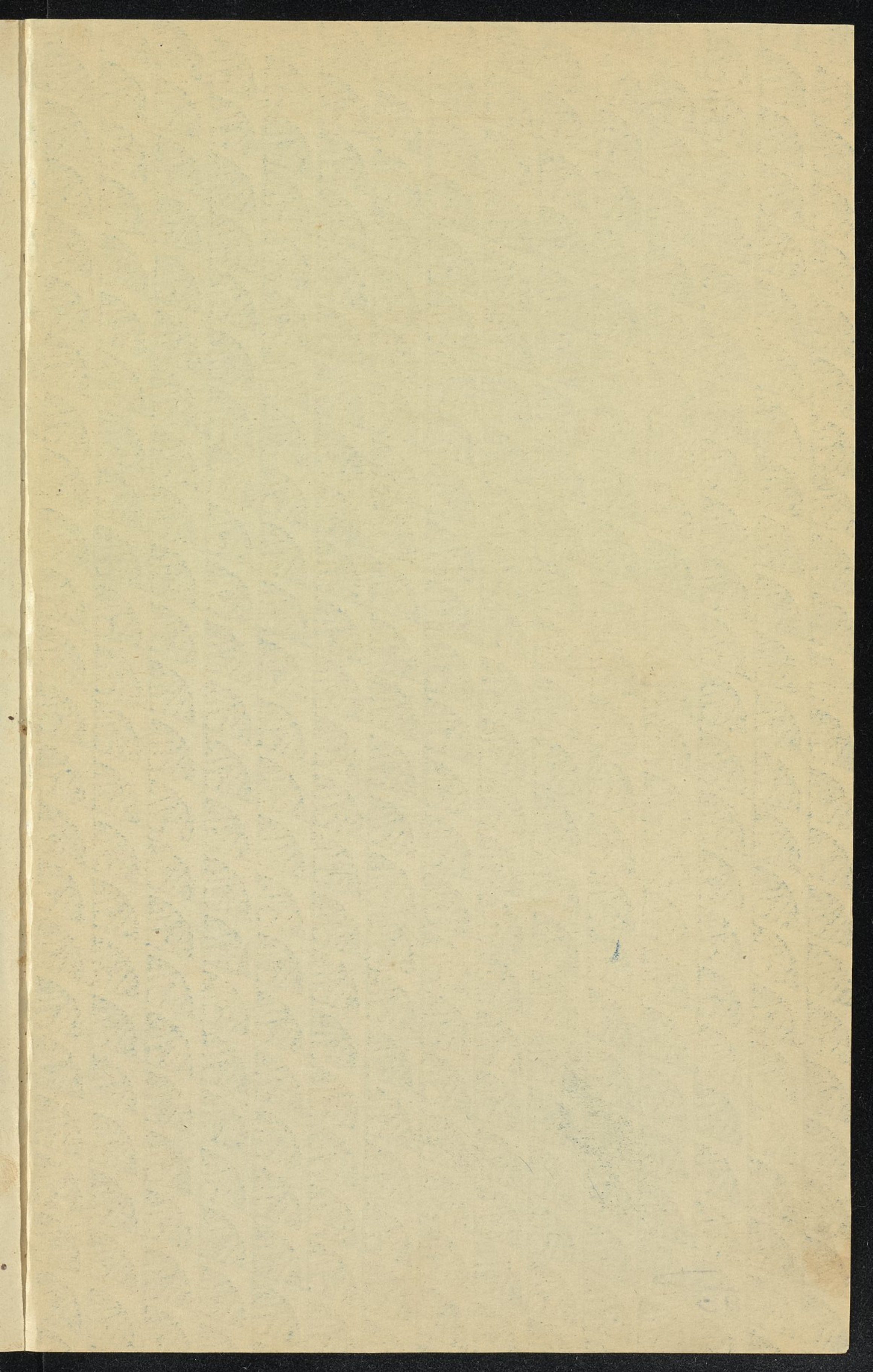








تسلية أهل المصائب

لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي

نقلت عن نسخة مخطوطة بخط المؤلف سنة ٧٧٧ هـ
مأخوذة من دار آل صوفان من أفاضل العلماء بنابلس

على نفقة

مكتبة الخانجي

لأصحابها أولاد محمد أمين الخانجي
بشارع عبد العزيز بمصر
صندوق البوستة مصر ١٩٢٥

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمكتبة ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

١٣٤٧ هـ ١٩٢٩ م

(مطبعة السعاده بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقهر ، الواحد الأحد الفرد الصمد ذى العزة والستر الذى لا ند له فيبارى ، ولا معارض له فيمارى ، ولا شريك له فيدارى ، كتب الفناء على أهل هذه الدار ، وجعل عقبى الذين اتقوا الجنة وعقبى الكافرين النار . قدّر مقادير الخلائق وأقسامها ، وبعث أمراضها وأسقامها ، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وجعل للذين أحسنوا الدرجات ، وللذين أساؤا الدركات رحمة وعدلا ، أحمده على حلو القضاء ومره ، وأعوذ به من سطواته ومكره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له إلهاً لم يزل عظيما عليا ، جباراً قهاراً قويا ، جل عن الشبيه والنظير ، وتعالى عن الشريك والظهير ، وتقدس عن التعطيل ، وتنزه عن التمثيل ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله رحمة للعباد ، ونقمة على الكفرة من أهل البلاد ، فدعى الى الجنة ، وأرشدهم الى اتباع السنة ، وجعل أعلاهم منزلة أعظمهم صبرا ، فمن استرجع فى مصيبته واحتسبها ذخرا ، كان له منزلة عالية وقدرا ، وكان مقتفياً هدياً ومتبعا أثرا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الاخيار ، وسلم تسليما كثيراً مستمرا متصلا متعاقبا ماتعاقب الليل والنهار ﴿ أما بعد ﴾ فان الله تعالى جعل الموت محتوماً على جميع العباد ، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد ، قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم ، وقسم عباده قسمين طائع وأثيم ، وجعل مآلهم الى دارين دار النعيم ودار الجحيم ، فلا

مفر لأحد من الموت ولا أمان ، لقوله تعالى : « كل من عليها فان » . فسوى فيه بين الحر والعبد ، والصغير والكبير ، والغنى والفقير ، وكل ذلك بتقدير العليم الخبير « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب إن ذلك على الله يسير » ، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوت ، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر ، والمؤمن من تيقن بصبره الثواب على المصائب والضرر .

ولما كانت المصائب على اختلاف أنواعها من موت وغيره من نوائب الزمان ، خطب مؤلم موجع ، وأمر مهول مزعج ، وردت الأحاديث والآثار بما لمن أصيب من المقامات ، المحتسب الصابر عليها ببشارة الجنات ، قال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس . وما أحسن ما قال الشاعر :

المرء رهن مصائب ماتنقضى ... حتى يوسّد جسمه فى رمسه

فمؤجل يلقى الردى فى غيره ... ومعجّل يلقى الردى فى نفسه

فأحببت أن أجمع كتابا مسلياً لقلوب المحزونين ومفرجا لكرب الملذوعين وسميته : (كتاب تسلية أهل المصائب) . وكان سبب تأليف هذا الكتاب انه وقع طاعون فى سنة خمس وسبعين وسبعمائة فى رجب ، واشتد فى آخر شوال والقعدة والحجة ، وخف فى المحرم من سنة ست ، ومات فيه الألوف من الناس ، وخلت بيوت كثيرة ، ومات فيه من الصالحين والعباد خلق كثير ، وسميته : طاعون الاخيار . لكثرة من مات فيه من أخيار الناس ، ولكن كان أكثره فى الأطفال ، حتى كان جماعة من أصحابنا ممن له عدة من الاولاد ، فلم يبق له ولا ولد ، وكنت قد جمعت كتابا فى الطاعون وأحكامه فى سنة خمس وستين وسبعمائة ، وهو كتاب حسن ما نظر فيه أحد الا استحسنه ، وقل ماخرج عنه من الاحاديث والآثار والتواريخ ، ولكن لم أذكر فيه ما أعد الله للمصابين فيه ، فافردت هذا الكتاب

تسلية لمن أصيب بمصائب الدنيا ، وما رأيت ولا سمعت أن أحداً لم يصب فيها بمصيبة ، وبوبت هذا الكتاب ثلاثين باباً ، وها أنا أذكرها أولا وبالله أستعين وعليه أتكل :

فهذه نهاية الابواب ، الآتى بعدها حسن الخطاب ، وهي بضاعة أخيك المزجاه ، وسلعته المرماه ، تعرض عليك ، وتساق منه اليك ، فلقارئه غنمه ، ولأخيك غرمه ، وما أذكره من الترغيب والترهيب من الكتاب والسنة والآثار والتفسير وغير ذلك باسناد وغير اسناد غالبا خشية التطويل ، ولكنه يعزو الى رواته من حفاظ الاسلام . مشيراً الى التصحيح والتضعيف فى بعض ماأمكن من الاحاديث ، وكان الاجتهاد فى ذلك انى رأيت يا أخى انك اذا مت سلاك أحبابك ، وهجرك أصحابك ، وأعرض عنك من انفقت عمرك فى محبته ، وأتعبت نفسك وبدنك فى ملاطفته ، فهذا لا يخفى عليك ولا على من له أدنى فطنة ، فانك اذا أردت أن تعرف صدق هذه المقالة بوجه صحيح ، وكلام فصيح ، فاذكر فعلك فيمن كان يحبك من أب وأم ، وأخ وصديق ، ألست قد سليتهم وتبدلت سواهم ، فكذا أنت بعد موتك ، فاردت جمع هذا الكتاب ليكون سبباً لسلو الشخص

عن الدنيا ، ومرغباً له فى الأخرى ، فهو بحمد الله فيه من الفوائد التى لا يظفر بها فى كتاب سواه ، فما كان فيه من صواب فمن الله ورسوله ، وما كان فيه من خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله سبحانه المسؤل أن يوفقنى لاتمامه ، بفضله وامتنانه ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه وسامعه انه سميع قريب وهو حسبنا ونعم الوكيل *

﴿ الباب الأول ﴾

فى المصيبة وحقيقتها وما أعد الله لمسترجعها

قال الله تعالى : (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) الآية ذكره البخارى تعليقاً . وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قل علقمة وجماعة من المفسرين : هى المصائب تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم . والآيات فى هذا الباب كثيرة. قال أهل اللغة : يقال مصيبة ومصابة ومصوبة . قالوا وحقيقته الأمر المكروه يحل بالانسان . وقال القرطبى :المصيبة كل ما يؤذى المؤمن ويصيبه . يقال أصابه إصابة ومصابة ومصابه ، والمصيبة واحدة المصائب . والمصوبة بضم الصاد مثل المصيبة . واجمعت العرب على همز المصائب وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصل بالزائد ، ويجمع على مصاوب وهو الاصل وعلى مصائب ، والمصاب الاصابة قال الشاعر :

أسليم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

وصاب السهم القرطاس يصيبه صيباً لغة فى أصابه ، والمصيبة النكبة ينكبها

الانسان وإن صغرت ، وتستعمل فى الشر ، وروى عكرمة مرسلا ان مصباح
النبي صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة ، فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون . فقيل :
أمصيبة هى يارسول الله ؟ قال : نعم ! كل ما أذى فهو مصيبة . وفى صحيح مسلم
من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما ، أنهما سمعا رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى
الهم يهمه الا كفر الله به من سيآته » . والوصب والنصب التعب ، وفى الصحيحين
عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ما من مصيبة تصيب المسلم الا كفر الله عز وجل بها عنه حتى الشوكة يشاكها »
وقال الامام أحمد : ثنا يونس ثنا ليث - يعنى ابن سعد - عن يزيد بن عبد الله عن
عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا
سررت به . قال : « لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم
يقول اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها الا فعل ذلك به » . قالت أم
سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت فى مصيبتى وقلت : اللهم
أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منه ، وفى لفظ خيرا منها ، ثم رجعت الى
نفسى وقلت : من أين خير لى من أبى سلمة ، فلما انقضت عدتى استأذن على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أدبغ أهابا لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت
له ، فوضعت له وسادة من أدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبنى الى نفسى ،
فلما فرغ من مقالته قلت يارسول الله : ما بى أن لا تكون بك الرغبة ، ولكنى
امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبنى الله به ، وانا امرأة قد
دخلت فى السن وانا ذات عيال . فقال : « اما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها
الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل ما أصابك ، وأما

ماذكرت من العيال فانما عيالك عيالى » قالت : فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها رسول الله ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى هذا الحديث بعدة طرق فى الصحاح والمسانيد وسيأتى فيما بعد إن شاء الله .

﴿ فصل ﴾

وقد جعل الله كلمات الاسترجاع وهى قول المصاب : إنا لله وإنا اليه راجعون ملجأ وملاذا لذوى المصائب ، وعصمة للممتحنين من الشيطان ، لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له بالافكار الرديئة ، فيهيج ما سكن ، ويظهر ما كمن ، فاذا لجأ الى هذه الكلمات الجامعات لمعانى الخير والبركة ، فان قوله ـ انا لله ـ توحيد واقرار بالعبودية والملك ، وقوله ـ وانا اليه راجعون ـ اقرار بان الله يهلكنا ثم يبعثنا فهو إيمان بالبعث بعد الموت ، وهو إيمان أيضاً بان له الحكم فى الأولى ، وله المرجع فى الأخرى فهو من اليقين ان الأمر كله لله فلاملجأ منه الا اليه. وروى مسلم فى صحيحه من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ماأمره الله ، إنا لله و إنا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . وروى مسلم أيضاً عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون » قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إن أبا سلمة قدمات . قال : « قولى اللهم اغفرلى وله واعقبنى منه عقبى حسنة » . فقلت ، فاعقبنى الله من هو خير لى منه محمداً صلى الله عليه وسلم . هكذا روى بالشك اذا حضرتم المريض أو الميت هذا لفظ مسلم . وقد تقدم معنا هذا الحديث من طريق أخرى عن ابن سفينة مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله وسلم يقول : « ما من عبد تصيبه مصيبة

فيقول إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها الا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها » . قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خير من أبى سلمة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ثم عزم لى فقلتها فتزوجت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى مسلم نحوه من حديث سعد بن سعيد الانصارى أخى يحيى بن سعيد عن عمر بن كثير عن ابن سفينة فذكر نحوه .

والمقصود ان هذا تنبيه على قوله تعالى : (وبشر الصابرين) اما بالخلف كما أخلف الله تعالى لأم سلمة بدل زوجها أبو سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تبعت السنة وقالت ما أمرت به ممتثلة طائعة ، ان البر له والخير فيما قاله الله ورسوله ، وان الضلال والشقاء فى مخالفة الله ورسوله ، فلما علمت رضى الله عنها ان كل خير فى الوجود اما عام واما خاص فهو من جهة الله ورسوله ، وان كل شر فى العالم أو كل شر مختص بالعبد فسببه مخالفة الله ورسوله ، فلما قالت هذه الكلمات حصل لها مرافقة الرسول فى الدنيا والآخرة . وقد يحصل للعبد بكلمات الاسترجاع منزلة عالية وثوابا جزيلا كما فى حديث أبى موسى وسيأتى ذكره وفيه : فيقول الله تعالى لملائكته ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تبارك : أبنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . وقد تقدم الاسترجاع فى المصيبة وان قائله عليه الصلوات من ربه والرحمة وهو من المهتدين . وقول عمر : نعم العدلان ونعمت العلاوة وانه أراد بالعدلين الصلوات ، والرحمة وبالعلاوة الهداية والله أعلم . وقيل المراد استحقاق الثواب ، والى تسهيل المصاب ، وتخفيف الحزن ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ، فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ، ومن الآدمى التضرع والدعاء . وقال أبو العالية : صلاة الله ثناءه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، وظاهر الآية والله أعلم أن الصلاة من الله غير الرحمة ، فانه تعالى عطف الرحمة على الصلاة فعلم التغاير .

﴿ فصل ﴾

فى تسلية أهل المصائب بالعلاج الالهى النبوى

فالالهى قوله تعالى : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون) وآيات الصبر كثيرة جدا . والنبوى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما مسلم تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتي واخلف لى خيرا منها الا أخلف الله خيرا منها » وقد تقدم وأمثال ذلك من الأحاديث . وقد اتفقت هذه الكلمة - إنا لله وإنا إليه راجعون - علاجا من الله ورسوله لأهل المصائب . فانها من أبلغ علاج المصائب وأنفعه للعبد فى عاجله وآجله ، فانها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته ، أحد الأصلين أن يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملك لله عز وجل حقيقة ، وقد جعله الله عند العبد عاريه فاذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير ، وأيضا فانه محفوف بعدمين ، عدم قبله وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير ، وأيضا فانه ليس هو الذى أوجده عن عدم حتى يكون ملكه حقيقة ولا هو الذى يحفظه من الافات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقى . وأيضا فانه متصرف فيه بالامر تصرف العبد المأمور المنهى ، لا تصرف الملاك ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه الا ما وافق أمر مالكه الحقيقى ، والثانى أن مصير العبد ومرجعه الى الله مولاه الحق ، ولابد ان يخلف الدنيا وراء ظهره ويأتى ربه يوم القيامة فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن يأتيه بالحسنات والسيآت . فاذا كانت هذه بداية العبد وما خوله فيه ، ونهايته وحاله فيه ، فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا ، أم كيف يأسى على مفقود ؟ ففكرة العبد فى بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب ، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم

يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) ومن تأمل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاء أدواء المصائب ، وكل ماذكرناه فى هذا الفصل فهو فى هذه الآية فتدبر ذلك .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر المصاب فى كتاب الله وسنة رسول الله فيجد أن الله تعالى أعطى لمن صبر ورضى ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة باضعاف مضاعفة ، وأنه لوشاء لجعلها أعظم مماهى ، ومن أنفع ما للمصاب أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى باهل المصائب وليعلم أنه فى كل قرية ومدينة بل فى كل بيت من أصيب ، فمنهم من أصيب مرة ، ومنهم من أصيب مرارا ، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتى على جميع أهل البيت ، حتى نفس المصاب فيصاب أسوة أمثاله ممن تقدمه ، فانه إن نظر يمنة فلا يرى الا محنة ، وإن نظر يسرة فلا يرى الا حسرة ، وذكر أبو الفرج بن الجوزى باسناده عن عبدالله بن زياد قال : حدثنى بعض من قرأ فى الكتب أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها وبلغ أرض بابل مرض مرضاً شديداً ، فلما أشفق أن يموت كتب الى أمه : يا أماه اصنعى طعاماً واجمعى من قدرت عليه ، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة ، واعلمى هل وجدت لشئ قراراً باقياً ، وخيالا دائما ، إنى قد علمت يقينا أن الذى أذهب اليه خير من مكانى . قال : فلما وصل كتابه صنعت طعاماً ، وجمعت الناس ، وقالت لا يأكل هذا من أصيب بمصيبة ، فلم يأكلوا ، فعلمت ما أراد ، فقالت : من يبلغك عنى أنك وعظتنى فاتعظت ، وعزيتنى فتعزيت ، فعليك السلام حياً وميتاً . فاذا علم المصاب أنه لو فتش العالم لم ير فيهم الا مبتلى ، إما بفوات محبوب ، أو حصول

مكروه ، فسرور الدنيا أحلام نوم ، أو كظل زائل ، إن أضحكت قليلا أبكت كثيراً ، وإن سرت يوماً ساءت دهراً ، وإن متعت قليلا منعت طويلا ، وما ملأت داراً حبرة الا ملأتها عبرة ، وماحصل للشخص فى يوم سروراً الا خبأت له فى يوم شروراً ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : لكل فرحة ترحة . وما ملئ بيت فرحا الاملئ ترحا . وقال ابن سيرين : ما كان ضحك قط الا كان بعده بكاء . فيعلم العبد أن فوت ثواب الصبر والتسليم وهو الصلاة والرحمة والهداية فى قوله تعالى : (إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقد تقدم ذلك فما ضمنه الله على الصبر والاسترجاع ، أعظم من المصيبة فى الحقيقة والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر العبد بعين بصيرته فيعلم أن مرارة الدنيا هى بعينها حلاوة فى الآخرة ، يقلبها الله تعالى ، وحلاوة الدنيا هى بعينها مرارة فى الآخرة ، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة الى حلاوة دائمة، خير من عكس ذلك ، فان خفى عليك ذلك فانظر الى قول الصادق المصدوق وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وكذلك قوله فى الصحيح : « يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال : « يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فى الجنة صبغة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط ؟فيقول :لا والله يارب » الحديث وهذا المقام تتفاوت فيه عقول الناس ، وتظهر حقائق الرجال ، فاكثر أهل زماننا يؤثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التى لا تزول ، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد ، ولا ذل ساعة لعز الابد ، ولا محنة ساعة

العافية الابد ، فان الحاضر عنده شهادة ، والمنتظر غيب ، والايمان ضعيف وسلطان الشهوة حاكم ، فتولد من ذلك إيثار العاجلة و رفض الآخرة وهذا حال النظر الواقع على ظواهر أكثر أهل زماننا فى أوائل أمورهم ومبادئها ، وما ذاك الا لحبهم هذه الحياة الدنيا قال وهب بن منبه : كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول: بحق أقول لكم ، إن أشدكم حباً للدنيا أشدكم جزعا على المصيبة . وأما النظر الثاقب الذى يخرق حجب العاجلة ، ومجاورة العواقب والغايات فله شأن آخر فادع نفسك الى ما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية والفوز الاكبر ، وما أعد الله لاهل البطالة والاضاعة من الخزى والخسران والعذاب الدائم ، ثم اختر أى القسمين أليق بك ، وكل يعمل على شاكلته ، وكل أحد يذهب الى ما يناسبه وما هو الاولى به ، وهذا نصح أخيك فيما يحسن بك ويسليك .

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن يستعينوا بالله ويتكلوا عليه ، ويتعزوا بعزاء الله تعالى ويمتثلوا أمره فى الاستعانة بالصبر والصلاة ، ويعلموا أن الله مع الصابرين ، ويطلبوا استنجاز ما وعد الله به عباده على الصبر ، وفى حديث أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيرى ؟ كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوساً فضحك فقال : تدرون مما ضحكت ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « عجبت للمؤمن أن الله عز وجل لا يقضى له قضاء الا كان خيراً له » وذكر ابن أبى الدنيا باسناده قال قال ابراهيم بن داود : قال بعض الحكماء : ان لله عباداً يستقبلون المصائب بالبشر ، قال : فقال أولئك الذين صفت من الدنيا قلوبهم ، ثم قال : قال وهب بن منبه : وجدت فى زبور داود يقول الله تعالى : (ياداود هل تدرى من أسرع الناس ممراً على الصراط الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى) فالمؤمن الموفق – نسأل الله تعالى حسن التوفيق – من يتلقى المصيبة

بالقبول ، ويعلم أنها من عند الله لا من عند أحد من خلقه، ويجتهد فى كتمانها ما أمكن
قال عبد العزيز بن أبى رواد : ثلثة من كنوز الجنة كتمان المصيبة ، وكتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وقال بعض السلف: ثلثه يمتحن بها عقول الرجال ، كثرة المال ، والمصيبة ، والولاية ، وقال عبد الله بن محمد الهروى : من جواهر البر كتمان المصيبة حتى يظن أنك لم تصب قط . وقال عون بن عبد الله : الخير الذى لا شرّ معه ، الشكر مع العافية والصبر مع المصيبة .

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم المصائب المصيبة فى الدين، فهى من أعظم مصائب الدنيا والآخرة وهى نهاية الخسران الذى لا ربح معه ، والحرمان الذى لا طمع معه ، وقد حكى ابن أبى الدنيا عن شريح أنه قال : إنى لأصاب بالمصيبة فاحمد الله عليها أربع مرات ، وأشكره إذ لم تكن أعظم مماهى ، وإذ رزقنى الصبر عليها ، وإذ وفقنى الاسترجاع لما أرجوه فيه من الثواب ، وإذ لم يجعلها فى دينى * ومن أعظم المصائب فى الدين موت النبى صلى الله عليه وسلم، لان المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم، لان بموته صلى الله عليه وسلم انقطع الوحى من السماء الى يوم القيامة ، وانقطعت النبوات ، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد العرب عن الدين ، فهو أول انقطاع عرى الدين ونقصانه ، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد وغير ذلك من الأمور التى لا أحصيها ، قال أنس بن مالك رضى الله عنهما : مانفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا. رواه ابن ماجه .واذا أردت أن تعلم أن المصيبة به صلى الله عليه وسلم أعظم من كل مصيبة حدثت فى الدين فانظر الى ما روى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزى بمصيبته بى عن المصيبة التى تصيبه بغيرى ، فان أحداً من أمتى لن يصاب

بمصيبة بعدى أشد عليه من مصيبتى » وهذا من رواية موسى بن عبيد، وقد ضعفه غير واحد من الأئمة لكن روى أبو عمر بن عبد البر باسناده من حديث عطاء بن أبى رباح مرسلا أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : « اذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصابه بى فانها من أعظم المصائب » ورواه الحافظ أبو نعيم من هذه الطريق أيضا ومن طريق أخرى عن مكحول مرسلا نحوه . ولقد أحسن أبو العتاهية فى نظمه موافقاً لهذا الحديث حيث يقول :

اصبر لكل مصيبة وتجلد	واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ماترى أن المصائب جمة	وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة	هذا سبيل لست عنه بأوحد
فاذا ذكرت محمداً ومصابه	فاجعل مصابك بالنبى محمد

وفى رواية : واذا ذكرت مصيبة تسلو بها   فاذكر مصابك بالنبى محمد

واذا أردت أن تعلم تغير الأحوال بموت النبى صلى الله عليه وسلم فاذكر قوله تعالى : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الآية) أفإن مات شرط ، أوقتل عطف عليه ، والجواب انقلبتم ، ودخل ألف الاستفهام على حرف الجر لان الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة ، وخبراً واحداً والمعنى أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل ؛ يقال لمن عاد الى ما كان عليه انقلب على عقبيه ، وقيل المعنى فعلتم فعل المرتدين ؛ ومنه انقلب على عقبيه ، وقول أنس وقد تقدم ، وروى ابن ماجه من حديث أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان الناس على عهد رسول الله صلى عليه وسلم اذا قام المصلى لم يعد بصر أحدهم موضع قدميه ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر رضى الله عنه ، فكان الناس اذا قام أحدهم يصلى لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ، فتوفى أبو بكر ، وكان عمر رضى الله عنه فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ،

فكان عثمان رضى الله عنه ؛ فكانت الفتنة ، فتلفتت الناس فى الصلاة يمينا وشمالا . واسناده مقارب

والمقصود أن المصائب تتفاوت ، فأعظمها المصيبة فى الدين ـ نعوذ بالله من ذلك ـ هى أعظم من كل مصيبة يصاب بها الانسان ، يؤيد ذلك انه قد جاء فى بعض الآثار أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المسلوب من سلب دينه ، والمحروب من حرم الاجر » ثم بعد مصيبة الدين المصيبة فى النفس ، ثم فى المال ، فاما المال فيخلفه الله تعالى وهو فداء الانفس ، والنفس فداء الدين ، والدين لافداء له . قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير)

﴿ فصل ﴾

ومن أعظم البشارات لمن أصيب بمصيبة فذكرها بعد مدة طويلة ، فجدد لها استرجاعاً وصبراً ، ماله عند الله من الأجر كلما ذكرها واسترجع . قال الامام أحمد فى مسنده : ثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبى هشام ثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن على رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ قال عباد : قدم عهدها ـ فيحدث لذلك استرجاعاً الا جدد الله له عنه ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها » ورواه ابن ماجه من حديث فاطمة بنت الحسين أيضاً ولفظه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فليحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب » لكن فى إسناده مقال . قال سعيد بن جبير : ما أعطى أحد فى المصيبة ما أعطى هذه الأمة ـ يعنى إنا لله و إنا اليه راجعون ـ ولو أعطى أحد لأعطى نبى الله يعقوب عليه السلام ألم تسمع الى قوله فى فقد يوسف : (يا أسفا على يوسف) أولئك

أصحاب هذه الصفة عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون *

﴿ فصل ﴾

ومن تسلية أهل المصائب أن ينظر المصاب ويفرق بين أعظم اللذتين والتمتعين تمتع الحياة الدنيا الفانية، وتمتع الدار الآخرة الباقية، وأدومهما لذة وتمتعاً بما أصيب به ، ولذة تمتعه بثواب الله له على قوله وفعله من استرجاع وصبر ونحوه ، فان ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه له. وان آثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبته فى عقله وقلبه ودينه ، أعظم من مصيبته التى أصيب بها فى دنياه . وأى نسبة بين تمتعه بمحبوبه فى هذه الدار التى قال الله تعالى فى حقها من أولها الى آخرها : (قل متاع الدنيا قليل) وأى شئ حصل له من القليل ؟ فمن آثر جزء قليل من قليل ينفد، على جزء كثير من كثير لا ينفد ، فقد اغتيل عقله . قال بعض الحكماء : يحسب الجاهل الشئ الذى هو لا شئ شيئا ، والشئ الذى هو الشئ لا شئ ، ومن لا يترك الشئ الذى هو لاشئ ، لا ينال الشئ الذى هو الشئ ، ومن لا يعرف الشئ الذى هو الشئ ، لا يترك الشئ ، الذى هو لا شئ . يريد الدنيا والآخرة . ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الدنيا *

﴿ فصل ﴾

ومما يسلى المصاب أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هى من عند الله وأنها بقضائه وقدره ، وأنه سبحانه وتعالى لم يقدرها عليه ليهلكه بها ، ولا ليعذبه ، وانما ابتلاه ليمتحن صبره ورضاه ، وشكواه اليه وابتهاله ودعاه ، فان وفق لذلك كان أمر الله قدراً مقدورا ، وان حرم ذلك كان خسرانا مبينا.

قال أبو الفرج بن الجوزى : علاج المصائب بسبعة أشياء (الأول) أن يعلم بأن الدنيا دار ابتلاء ، والكرب لا يرجى منه راحة . قال الشاعر :

وما استغربت عينى فراقا رأيته　　　ولا علمتنى غير ما القلب عالمه

(الثانى) أن يعلم أن المصيبة ثابتة (الثالث) أن يقدر وجود ما هو أكثر من تلك المصيبة (الرابع) النظر فى حال من ابتلى بمثل هذا البلاء ، فان التأسى راحة عظيمة . قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وهذا المعنى قد حرمه الله عز وجل أهل النار، فان المخلدين فيها كل واحد محبوس وحده، فهو يظن أنه لم يبق فى النار سواه (الخامس) النظر فى حال من ابتلى أكثر من هذا البلاء فيهون عليه هذا (السادس) رجاء الخلف ان كان من مضى يصح عنه الخلف كالولد والزوجة . قيل للقمان عليه السلام : ماتت زوجتك ؟ قال : تجدد فراشى . قال الشاعر :

هل وصل عزة إلا وصل غانية فى وصل غانية من وصلها خاف

(السابع) طلب الاجر بالصبر فى فضائله وثواب الصابرين وسرورهم فى صبرهم، فان ترقى الى مقام الرضاء فهو الغاية . انتهى كلامه . وقد تقدم معنى ذلك

وما يلحق بعلاج هذه السبعة أشياء وأمور أخر (الثامن) أن يعلم العبد كيف جرى القضاء فهو خير له (التاسع) أن تعلم أن تشديد البلاء يخص الأخيار (العاشر) أن يعلم أنه مملوك وليس للمملوك فى نفسه شئ (الحادى عشر) أن هذا الواقع وقع برضى المالك فيجب على العبد أن يرضى بما رضى به السيد (الثانى عشر) معاتبة النفس عند الجزع ان هذا الأمر لابد منه ، فما وجه الجزع مما لابد منه (الثالث عشر) انما هى ساعة فكأن لم تكن ، وهذه المعانى قد تقدم ما يشبهها ويناسبها ، ويأتى ماهو أتم من ذلك وبالله التوفيق *

(فصل)

ينبغي للعبد أن لا ينكر فى هذه الدنيا وقوع هذه المصائب على اختلاف

أنواعها وما استخبر العقل والنقل أخبراه بأن الدنيا مارستان المصائب ، وليس فيها لذة على الحقيقة الا وهى مشوبة بالكدر ، فكلما يظن فى الدنيا انه شراب فهو سراب ، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب ، وجمعها فهو للذهاب ، ومن خاض الماء الغمر لم يخل من بلل ، ومن دخل بين الصفين لم يخل من وجل ، فالعجب كل العجب ممن يده فى سلة الافاعى كيف ينكر اللسع ، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع . قال بعض الادباء :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الاقذاء والا كدار

قال أبو الفرج بن الجوزى : ولولا أن الدنيا دار ابتلاء لم تعتور فيها الامراض والا كدار ، ولم يضق العيش فيها على الانبياء والاخيار ، فآدم يعانى المحن الى أن خرج من الدنيا ، ونوح بكى ثلاثمائة عام ، وابراهيم يكابد النار وذبح الولد ، ويعقوب بكى حتى ذهب بصره ، وموسى يقاسى فرعون ويلقى من قومه المحن ، وعيسى بن مريم لا مأوى له الا البرارى فى العيش الضنك ، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين يصابر الفقر وقتل عمه حمزة وهو من أحب أقاربه اليه ، ونفور قومه عنه ، وغير هؤلاء من الانبياء والأولياء مما يطول ذكره ، ولو خلقت الدنيا للذة لم يكن حظ المؤمن منها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » فاذا بان بأنها دار ابتلاء وسجن ومحن ، فلا ينبغى انكار وقوع المصائب فيها *

(فصل)

ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى المصائب المختصة بذات الانسان ، قال : رأيت جمهور الناس اذا طرقهم المرض أو غيره من المصائب اشتغلوا تارة بالجزع والشكوى ، وتارة بالتداوى ، الى أن يشتد عليهم ، فيشغلهم اشتداده عن الالتفات الى المصالح من وصية ، أو فعل خير ، أو تأهب الموت ، فكم ممن له ذنوب لا يتوب منها ، أو عنده ودائع لا يردها ، أو عليه دين أو زكاة ، أو فى ذمته ظلامة لا يخطر له تداركها ،

وانما حزنه على فراق الدنيا ، اذ لاهم له سواها ، وربما أفاق وأوصى بجور . انتهى كلامه . وسبب ذلك ضعف الايمان كما قال تعالى: (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم) وأحدهم لا هم له إلا الدنيا ، ولا يتأسف إلا عليها ، والعين المتطلعة الى الآخرة ضعيفة جداً ، وقد عم هذا أكثر الخلق فى زماننا نعوذ بالله من الخذلان . فينبغى للمتيقظ أن لا يتأسف على مافات ، وأن يتأهب فى حال صحته قبل هجوم المرض ، فربما ضاق الوقت عن عمل ، واستدراك فارط ، أو وصية فان لم تكن له وصية فى صحته فليبادر فى مرضه ، وليحذر الجور فى وصيته ، فانه من المحرمات . فانه يمنع المستحق ويعطى من لا يستحق ، فيحتاج أن يحارب نفسه وشيطانه ، فقد روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » ويعلم انه مملوك لله وليس له فى نفسه شئ . قال الشاعر :

صرت لهم عبداً وما للعبد أن يعترضا

ويعلم أيضاً أن هذا الواقع من المصائب فى نفسه وماله وولده ، وقع برضى مالكه وخالقه ، فيجب على العبد أن يرضى بما يرضى به السيد ، ويعاتب نفسه اذا جزعت ، ويقول لها : اما علمت أن هذا لا بد منه ؟ فما وجه الجزع ؟ وانما هى ساعة كأن لم يكن ما كان . ومن تلمح العواقب هان عليه مرارة الدواء ، والله تعالى الموفق .

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد على الحد ، كأنهم ماعلموا أن الدنيا على ذا وضعت ، وهل ينتظر الصحيح الا السقم ، والكبير الا الهرم ، والموجود سوى العدم . قال الشاعر :

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة وميت ومولود (وبشر وأحزان)

ثم قال : ولعمرى أن أصل الانزعاج لا ينكر ، اذ الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا ، وانما ينكر الافراط فيه والتكليف ، كمن يخرق ثيابه ويلطم

وجهه ويعترض على القدر ، فان هذا لا يرد فائتا ، لكنه يدل على خور الجازع ، ويوجب العقوبة والسلام .

(فصل)

وليعلم أهل المصائب أنه لولا محن الدنيا ومصائبها ، لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب والفرعنة وقسوة القلب ماهو سبب هلاكه عاجلا وآجلا ، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده فى الأحيان بانواع من أدوية المصائب تكون حمية له من هذه الأدواء ، وحفظا لصحة عبوديته ، واستفراغا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلى بنعمائه . كما قيل :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

فلولا أنه سبحانه وتعالى يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لطغوا وبغوا وعتوا وتجبروا فى الارض ، وعاثوا فيها بالفساد ، فان من شيم النفوس اذا حصل لها أمر ونهى ، وصحة وفراغ ، وكلمة نافذة من غير زاجر شرعى يزجرها ، تمردت وسعت فى الأرض فسادا ، مع علمهم بما فعل بمن قبلهم ، فكيف لو حصل لهم مع ذلك إهمال؟ ولكن الله سبحانه وتعالى اذا أراد بعبده خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله ، يستفرغ منه الادواء المهلكة ، حتى اذا هذبه ونقاه وصفاه ، أهله لأشرف مراتب الدنيا وهى عبوديته ، ورقاه أرفع ثواب الآخرة وهى رؤيته .

(فصل)

قد يحصل للعابد الجاهل بمصيبته من الجزع ما يسوء الناظر اليه ، والسامع عنه ، من الاعتراض على الاقدار ، وما ذاك الا لادلاله بعبادته ، فانه قد شوهد أن خلقا كثيرا من أهل الدين والخير عند موت أحبابهم جرى منهم أمور ينكرها العقال من الناس ، فمنهم من خرق ثيابه ، ومنهم من لطم خده ، ومنهم من اعترض على القضاء والقدر ، قال ابن الجوزى : رأيت رجلا كبيرا أعرفه قد قارب الثمانين ،

وهو من أهل الدين المحافظين على الجماعة ، فمات ولد لابنته ، فقال: ماينبغي لأحد أن يدعوا فانه مايستجيب له ، ثم قال : ان عاندنا فما يترك لنا ولداً ، فعلمت أن صلاته وفعله للخير عادة ، لا انه ينشأ عن معرفة إيمان ، وهؤلاء الذين يعبدون الله على حرف . ثم قال ابن الجوزى : وحدثنى خالى لعمى محمد بن عثمان قال : كنت مشداً بقرية التل ، فسمعت عن شيخ قد جاوز الثمانين ولا يصلى ، وقد كان قبل ذلك كثير الصلاة مع الجماعة وفعل الخير ، ثم ترك ذلك ، فدعوته وقلت : ياشيخ لم لا تصلى ؟ فقال : وكيف أصلى وكان لى أولاد فماتوا ، وكان لى غنم ففنيوا ، فأنا ما بقيت أصلى له ولا ركعة . فضربته وطفت به البلد ، فكان بعد ذلك يواظب الجامع ، انتهى ماذكره . فلاشئ أنفع من العلم ، لأن العالم لو حصل له هلع شديد فى مصيبته يعلم أنها زلة منه ، فيدرى كيف يتنفس ، والعابد الجاهل كلما غاص الى أسفل يظن أنه صاعداً الى فوق ، فاذا امتحن الشخص ينبغى له أن يتداوى بالأدويه الشرعية ، فانه يقال : عند الامتحان يكرم الشخص أو يهان . أما علم أنه لابد من الفرقة ؟ وقد روى داود عن الحسن بن جعفر عن أبى الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال جبريل : يامحمد عش ماعشت فانك ميت وأحبب من شئت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك ملاقيه » فنعوذ بالله من عدم الصبر عند المحنة ، ونسأله الثبات فى الأمر ، فانه والعياذ بالله يخاف على الشخص من سوء الخاتمة اذا سخط الأقدار ، ونازع القضاء والقدر أهله ، فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة

(فصل)

ينبغى للمصاب بنفسه ، أو بولده ، أو بغيرهما ، أن يجعل فى المرض مكان الانين ذكره الله تعالى ، والاستغفار والتعبد ، فان السلف رحمهم الله تعالى كانوا يكرهون الشكوى الى الخلق ، وهى وان كان فيها راحة الا أنها تدل على ضعف وخور ، والصبر

عنها دليل قوة وعز ، وهى اشاعة سر الله تعالى عند العبد ، وهى تؤثر شماتة الاعداء ورحمة الاصدقاء . قال الشاعر :

لاتشكون الى صديق حالة ... تأتيك فى السراء والضراء
فلرحمة المتوجعين مرارة ... فى القلب مثل شماتة الاعداء

وذكر ابن أبى الدنيا باسناده الى اسماعيل بن عمرو قال : دخلنا على ورقاء بن عمر وهو فى الموت ، فجعل يهلل و يكبر و يذكر الله عز وجل ، وجعل الناس يدخلون عليه و يسلمون عليه فيرد عليهم السلام ، فلما كثروا عليه أقبل على ابنه فقال : يابنى اكفنى رد السلام على هؤلاء لا يشغلونى عن ذكر ربى عز وجل . وعن أبى محمد الحريرى قال : حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل تاليا وساجداً ، فقلت له : ياأبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد ، فقال : يا أبا محمد احوج ما كنت اليه هذه الساعة ، فلم يزل كذلك حتى فارق الدنيا . وقد روى فى حديث أن ابليس لا يكون فى حال أشد منه على ابن آدم عند الموت ، يقول لأعوانه : دونكموه ، فانه ان فاتكم اليوم لم تلحقوه ، واعلم رحمك الله أن الاعمال بخواتيمها ، فانه ربما أضله فى اعتقاده ، وربما حيل بينه وبين التوبة ، وغير ذلك مما هو محتاج اليه ، وربما وقع منه الاعتراض على القضاء والقدر ، فينبغى للمصاب بنفسه أو بغيره أن يعلم أو يعلم لغيره أنها صبر ساعة ، فيتجلد ويحارب العدو جهد طاقته ، فبصدقه تحصل له عليه الاعانة من الله ، ويعلم أيضاً ان التشديد عليه أو على غيره فى النزع هو فى الغالب من كرامة العبد على الله عز وجل فان أشد الناس بلاء الانبياء ، ثم الصالحون ، ثم الامثل فالأمثل ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « ما أشد مرارة الموت » وقول أبو عبيدة : أخنق خنقك فو عزتك انك تعلم أن قلبى يحبك . وقد روى الامام أحمد عن الوليد بن مسلم الاوزاعى عن عمر بن عبد العزيز انه قال : ما أحب أن يهون على سكرات الموت انه آخر ما يكفر عن المرء المسلم * وقال عبدالله بن

الامام أحمد : حـدثني معمر حدثني شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن ابراهيم النخعي قال: كانوا يستحبون للمريض أن يجهد عند الموت . وباسناده عن ابن عباس قال : آخر شدة يلقاها المؤمن عند الموت. كانت عائشة رضى الله عنها تقول : مات فلان ولم يعالج . قال الحافظ بن ناصر : ـ يعنى انه لم يعالج انه لم يحصل له فى مرضه وعند موته ما يكون كفارة لذنوبه ـ وعن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى النزع . فقال: « كيف تجدك » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم :« لا يجتمعان في قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله مايرضى أو أمنـه مما يخاف» فمن خاف الله وحفظه فى صحته حفظه فى مرضه ، ومن راقب الله فى خطر حرسه الله فى حركاته وسكناته ، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال :« احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» وكما فى قصة يونس عليه السلام لما تقدم له عمل صالح قال : (فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) ولمـا لم يكن لفرعون عمل خير قط لم يجـد وقت الشدة متعلقا فقيل له : (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) فمن ضيع الله فى صحته فانه يضيع فى مرضه والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وليعلم المصاب أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها، وهو فى الحقيقة يزيد فى مصيبته ، بل يعلم المصاب أن الجزع يشمت عدوه ، ويسوء صديقه ، ويغضب ربه ، ويسر شيطانه ، ويحبط أجره ، ويضعف نفسه ، واذا صبر واحتسب أخزى شيطانه وأرضى ربه وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحمل عن اخوانه وعزاهم هو قبل أن يعزينه فهذا هو الثبات فى الأمر الدينى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنا نسألك الثبات فى الامر » فهذا هو الكمال، الأعظم لا لطم الخدود وشق الجيوب ، والدعاء

بالويل والثبور ، والتسخط على المقدور . قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم ، يريد بذلك ماثبت فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الصبر عند الصدمة الاولى » وقال الأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا والا سلوت كما تسلوا البهائم . بل يعلم المصاب انما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف مايحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقى عليه ، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذى يبنى له فى الجنة على حمده لربه واسترجاعه على مصيبته ، فلينظر أى المصيبتين أعظم ، مصيبته العاجلة بفوات محبوبه ، أو مصيبته بفوات بيت الحمد فى جنة الخلد . وفى الترمذى مرفوعا : « يود ناس لو أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض فى الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء » وليعلم المصاب الجازع وان بلغ به الجزع غايته ونهايته فآخر أمره الى صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثاب عليه ، فانه استسلم للصبر وانقاد اليه على رغم أنفه . قال يحيى بن معاذ : ابن آدم مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت ، ومالك تفرح بموجود لايتركه فى يديك الموت ؟ فاذا علم الجازع على المصيبة ان الجزع لايرد مافات ، وانه يسر الشامت ، فأى عقل لمن لم يتفكر فى العاقبة ، ويذكر ماله الى مصيبة أصابت غيره انها تصيبه فى نفسه وانه أمر لا بد منه ، فليستعد له ، وكانت امرأة من العابدات بالبصرة تصاب بالمصائب فلا تجزع ، فذكروا لها ذلك . فقالت : ما أصاب بمصيبة فاذكر معها النار الا صارت فى عينى أصغر من الذباب * ومما يسلى العبد قول بعض الحكماء : قد مات كل نبى ومات كل نبيه ولبيب وفقيه وعالم فلا تجزع ولا يوحشنك طريق الخلائق فيها . وقال بعض السلف وقد سأله رجل فقال عظنى فقال : انظر منك الى آدم هل ترى منهم عين تطرف ؟ فقال : حسبك *

(فصل)

ومما يسلى أهل المصائب : أن المصاب اذا صبر واحتسب ، وركن الى كريم ، رجاء أن يخلف الله تعالى عليه ، ويعوضه عن مصابه ، فان الله تعالى لا يخيبه بل يعوضه فانه من كل شيء عوض الا الله تعالى فما منه عوض. كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض　　　وما من الله إن ضيعته عوض

بل يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط . فاختر لنفسك خير الحظوظ أو شرها ، فان أحدثت له سخطا وكفراً كنت فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعاً وتفريطا فى ترك واجب أوفعل محرم كنت فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية وعدم صبرورضى كنت فى ديوان المغبونين ، و إن أحدثت له اعتراضاً عليه وقد حافى حكمته ومجادلة فى الاقدار، فقد قرعت باب الزندقة وفتح لك وولجته . فاحذر عذاب الله يحل بك فانه لمن خالفه بالمرصاد . وان أحدثت له صبراً وثباتا لله كنت فى ديوان الصابرين ، وإن أحدثت له رضى بالله و رضىعن الله وفرحا بقضائه كنت فى ديوان الراضين ، وإن أحدثت له حمداً وشكراً كنت فى ديوان الشاكرين الحامدين ، وإن أحدثت له محبة واشتياقا الى لقائه كنت فى ديوان المحبين المخلصين * وفى مسند الامام أحمد والترمذى من حديث محمود بن لبيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الله اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط » زاد الامام أحمد : « ومن جزع فله الجزع » . فانفع الادوية للمصاب موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له وان خاصية المحبة وسرها موافقة المحبوب . فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه ، وأسخط عليه محبوبه . قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ان الله اذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وكان عمران بن حصين رضى الله عنـه يقول فى مرضه: أحبه الىّ أحبه اليه . وقال بعده أبو العالية : وهذا دواء المحبين وعلاجهم لانفسهم . ولا يمكن كل أحـد أن يتعالج به ، فانظر هذه الطرائق واختر وفقنا الله و إياك لما يحب *

(فصل)

نافع لمن نظر فيه ، وارد فيمن يفرح بالمصائب ويطلبها نظرا الى ثوابها

روى ابن أبى حاتم باسناده فى تفسيره عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة انه مات له ابن يقال له يحيى ، فلما نزل فى قبره قال له رجل: والله ان كان لسيد الجيش فاحتسبه ، فقال والده: وما يمنعنى أن أحتسبه وكان من زينة الحياة الدنيا ، وهو اليوم من الباقيات الصالحات . فهذا رجل صابر راض محتسب ، ما أحسن فهمه وحسن تعزيته لنفسه وثقته بما أعطاه الله من ثواب الصابرين. وعن ثابت قال :مات عبدالله ابن مطرف ، فخرج أبوه مطرف على قومه فى ثياب حسنة وقد أدهن ، فغضبوا ، فقالوا : يموت عبد الله وتخرج فى مثل هذه مدهنا ؟ قال : أفأستكين لها وقد وعدنى ربى تبارك وتعالى عليها خصالا كل خصلة منها أحب الى من الدنيا كلها ، قال تعالى: (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة وأولئك هم المهتدون) أفأستكين لها بعد ذلك ؟ ثم قال ثابت : قال مطرف ماشىء أعطى به فى الآخرة قدر كوز من ماء الا وددت انه أخـذ منى فى الدنيا . رواه الامام أحمد فى كتاب الزهد . وعن محمد بن خلف قال: كان لابراهيم الحربى ابن كان له احدى عشرة سنة ، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانبا كبيراً قال : فمات . فجئت أعزيه فقال : كنت أشتهى موت ابنى هذا . قال فقلت له: يا أبا اسحق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا فى صبى قد أنجب ولقنته الحديث والفقه ؟ قال : نعم ! رأيت فى منامى كأن القيامة قد قامت وكأن صبيانا بايديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس فيسقونهم ، وكان اليوم يوماً حاراً شـديداً حره . قال فقلت

لأحدهم : اسقنى من هذا الماء ، قال فنظر الى وقال : ليس أنت أبى . قلت : فأى شئ أنتم ؟ قال : فقال لى نحن الصبيان الذين متنا فى دار الدنيا وخلفنا آباؤنا فنستقبلهم فنسقيهم الماء ، قال : فلهذا تمنيت موته . وروى البيهقى باسناده عن ابن شوذب : أن رجلا كان له ابن لم يبلغ الحلم، قال فأرسل الى قومه أن لى حاجة ! قالوا نعم ! وماهى ؟ قال انى أريد أن أدعو على ابنى هذا أن يقبضه الله تعالى وتؤمنون على دعائى ، فسألوه ذلك ، فأخبرهم أنه رأى فى منامه كأن الناس جمعوا ليوم القيامة، فأصاب الناس عطش شديد ، فاذا الولدان قد خرجوا من الجنة معهم الأباريق فابصرت ابن أخ لى ، فقلت: يافلان اسقنى ، قال : ياعم إنا لا نسقى الا الآباء . قال : فاحببت أن يجعل الله ولدى هذا فرطا لى ، فدعا ، فأمنوا على دعائه ، فلم يلبث الغلام الا يسيراً حتى مات. وقد روى ابن عساكر باسناده عن سهيل بن الحنظلية الانصارى - وكان لا يولد له - فقال لأن يولد لى ولو سقط فاحتسبه أحب إلى من أن يكون لى الدنيا بأجمعها . وكان ابن الحنظلية ممن بايع تحت الشجرة * وذكر ابن عساكر أيضا عن الليث بن سعد قال: حدثنى يزيد بن أبى حبيب ، ان ابنا لعياض ابن عقبة حضرته الوفاة وكان عياض غائباً ، فقالت أم الغلام: لوكان أبو وهب حاضرا لقرت عينه . فلما حضرت وفاة عياض بن عقبة قال لاخيه أبا عبيد : يهنئك الظفر قد كنت أرجو أن تكون قبلى فاحتسبك . وقال أبو مسلم الخولانى رحمه الله : لان يولد لى مولود يحسن الله نباته حتى اذا استوى على شبابه وكان أعجب مايكون الى قبضه الله تعالى منى أحب إلى من أن تكون الدنيا ومافيها لى . و روى عن الامام القفال قال : كان فى جوارى رجل يأبى التزويج ، فلما كان فى بعض الليالى استيقظ من نومه فى الليل ونادى زوجونى زوجونى. فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقنى ولداً يقبضه قبل البلوغ وقبل موتى ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت والخلق فى الموقف وأنا معهم ، وقد كظنى العطش واذا قد ظهر

أطفال بأيديهم أباريق من فضـة مغطاة بمناديل من نور يتخللون الجمع ويسقون واحداً بعد واحد ، فمددت يدى اليهم وقلت لبعضهم : اسقنى ، فقد أجهدنى العطش ، فنظر إلى شزراً وقال : ليس لك فينا ولداً ، انما نسقى آباؤنا وأمهاتنا . فقلت : من أنتم ؟ قالوا : أطفال المسلمين * وقال أبو الحسن المداينى :دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه فى وجعه فقال : يابنى كيف تجدك ؟ قال: تجدنى فى الحق ، قال : يابنى لان تكون فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك . فقال: يا أبه لان يكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحبه * وروى ابن أبى شيبة باسناده عن ثابت البنانى : أن صلة بن أشيم كان فى غزاة له ومعه ابن له ، فقال له : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل .ثم تقدم أبوه فقتل فاجتمعت النساء فقامت امرأته معاذة العدرية فقالت للنساء مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئننى مرحبا بكن وان كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن * وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الانبياء ، قلت : ثم من ، قال الصالحون ، ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباءة يحتويها وان كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء. رواه ابن ماجه من حديث طويل * وروى الامام أحمد فى كتاب الزهد وابن ماجه فى سننه عن أبى ذر. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » وقال ابن الجوزى : ثنا ابن ناصر أنبا جعفر بن أحمد ثنا أبى ثنا هاشم عن ابن المبارك عن الحسن ثنا أبو الاخوص قال : دخلنا على ابن مسعود رضى الله عنه وعنده بنون له ثلاثة غلمان كأنهم الدنانير ، فجعلنا نتعجب من حسنهم ، فقال : كأنهم يغبطوننى ؟ قلنا: أى والله لبمثل هؤلاء يغبط المسلم. فرفع رأسه الى سقف البيت وقد عشش

فيه خطاف وباض . فقال : والذى نفسى بيده لان أكون قد نفضت يدى من تراب قبورهم أحب إلى من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه. ثم قال : ماأصبحت على حال فتمنيت أنى على سواها * وروى هناد بن السرى فى الزهد عن كثير بن تميم الدارى قال: كنت جالساً مع سعيد بن جبير، فطلع عليه ابنه عبد الله بن سعيد وكان به من الفقه ، فقال : إنى لاعلم خير حالاته ، فقالوا : وما هو ؟ قال : أن يموت فاحتسبه * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن سفيان قال سمعت سفيان يقول: مافى الارض أحب إلى من سعيد وما فى الارض أحد يموت أحب إلى منه ، فمات ، فرأيته يبكى ؛ قال : قد كنت تمنى موته ، قال أذكر قوله آه جنبى * وفى تاريخ الرقة للحرانى ثنا أحمد بن بديع ثنا أبى قال سمعت عمر ابن ميمون بن مهران يقول كنت مع أبى ونحن نطوف بالكعبة ،فلقى أبى شيخا فعانقه أبى ، ومع الشيخ فتى قريبا منى ، فقال له أبى : من هذا ؟ قال ابنى .فقال : كيف رضاك عنه قال مابقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه إلا واحدة ، قال : وما هى ؟ قال : كنت أحب أن يموت وأوجر فيه . قال ثم فارقه أبى ، قال فقلت لابى : من هذا الشيخ ؟ قال : هذا مكحول *

والمقصود أن هذا المقام مقام عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظراً الى ثوابها وما يفعل ذلك أحد حتى يعلم من نفسه القوة والصبر والجلد والركون الى دعوى النفس ، وما أكثر ماتخلف الوعد وتنقض العهد ، فان الغالب متى ماأظهرت الدعوى وكلت اليها ، وطولبت بتصحيح دعواها ، فتقصر عند الحقيقة ، وتميل عن تقويم الطريقة . كان سحنون رحمه الله يقول : قد رضيت بكل ما تقتضيه فابتلينى بما شئت فابتلاه الله بحصار البول ، فما صبر، فكان يدور على الصبيان ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب. فالطريقة الكاملة قوله ﷺ: «لاتتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية » واعلم أن النية فى طلب الولد وفقده وقصد بقائه ،

اذا صحت النية حصل الثواب الجزيل على النيتين جميعا ، لأن الأعمال بالنيات، فانه ثبت عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ما من أهل ولا مال ولا ولد الا وأنا أحب أن أقول عليه : انا لله وانا اليه راجعون ، الا عبد الله بن عمر فانى أحب أن يبقى فى الناس . يؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم ان النبى ﷺ قال « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من ثلاث ، من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وفى حديث أنس مرفوعا : « سبع يجرى أجرها للعبد بعد موته ، فذكر منها أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته » وهذا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سماه النبى ﷺ الرجل الصالح ، أو العبد الصالح ، ولا شك أن العبد إذا حصل له أجر مستمر بعد موته هو أولى من حصول أجر فى حياته ثم ينقطع بالموت ، فان العبد من أحوج الناس بعد موته الى الحسنات ، وبموته قد انقطع عمله الا ما أخبر به الصادق المصدوق فى هذا الحديث المتقدم ، فطلب الولد وبقائه أنفع للعبد فيما فهمت ، ولكن أولئك لما خالط قلوبهم قوة الايمان والتصديق بالقضاء والقدر ، والرضاء به ، برزوا بالقول وقل من يصبر على تحمل البلوى عند الحقيقة والله أعلم .

....

﴿ الباب الثانى ﴾

فى البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء فى ذلك

البكى أصله بكوى على فعول قال الجوهرى : البكاء يمد ويقصر ، فاذا مددت أردت الصوت الذى يكون مع البكاء ، وإن قصرت أردت الدموع وخروجها ، وبكيت الرجل وبكيته اذا بكيت عليه . قال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل

هذا من جهة اللغة ، وهو رقة ورحمة فى قلوب عباد الله ، فالبكاء على الميت مذهب الامام أحمد وأبى حنيفة : جوازه قبل الموت وبعده ، واختاره أبو اسحق الشيرازى ، وكرهه الشافعى وكثير من أصحابه بعد الموت ، ورخصوا فيه قبل خروج الروح ، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك[1] رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب ، فصاح به رسول الله ﷺ فلم يجبه ، فاسترجع وقال : « غلبنا عليك يا أبا الربيع » فصاح النسوة وبكين ، فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله ﷺ : « دعهن فاذا وجب فلا تبكين باكية » قالوا وما الوجوب يا رسول الله ؟ قال : الموت . رواه الامام أحمد وأبو داود وهذا لفظه والنسائى وابن ماجه . قالوا وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » وهذا إنما هو بعد الموت ، وأما قبله فلا يسمى ميتا . وعن ابن عمر أيضا أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد ، سمع نساء من بنى عبد الاشهل على هلكاهن يبكين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكن حمزة لا بواكى له » فجئن نساء الانصار فبكين على حمزة عنده ، فاستيقظ رسول الله ﷺ فقال : « ويحهن إنهن هاهنا يبكين ما أتقلهن ، مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم » رواه الامام أحمد وابن ماجه . وهذا صريح فى نسخ الاباحة المتقدمة ، والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذرا ، فاذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء ، فلا ينفع البكاء . احتج أصحابنا ومن قال بقولهم ، فمن جوز البكاء قبل الموت وبعده . قال جابر بن عبد الله أصيب أبى يوم أحد فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى ، فجعلوا ينهونى ورسول الله ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمتى فاطمة تبكى فقال النبى ﷺ : « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه »

---

(١) هو بفتح العين المهملة وكسر المثناة فوق ، خزرجى

متفق عليه . وعن ابن عمر قال : اشتكى سعد بن عبادة شكوى له ، فاتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ، فلما دخل عليه فوجده فى غاشية فقال: «قد قضى ؟ قالوا لا يارسول الله فبكى النبي ﷺ فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا فقال : « ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا وأشار الى لسانه أو يرحم » رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم وعنده : وجده فى غشية فقال : أقد قضى ؟ قالوا : لا يارسول الله ، الحديث . وهو من رواية يونس بن عبد الأعلى . وعن أسامة ابن زيد قال : كنا عند النبي ﷺ فارسلت اليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً أو ابناً لها فى الموت ، فقال للرسول : ارجع اليها فاخبرها إن لله عز وجل ما أخذ ، وله ما أعطي ، وكل شئ عنده باجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب . فعاد الرسول فقال : انها قد أقسمت لتأتينها . قال فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وانطلقت معهم ، فرفع اليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها فى شنة ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد بن عبادة : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء » رواه البخارى ومسلم * وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : شهدنا بنتاً لرسول الله ﷺ قال ورسول الله ﷺ جالس على القبر ، قال : فرأيت عيناه تدمعان ، قال فقال : « هل منكم من رجل لم يقارف الليلة ؟ فقال أبو طلحة أنا ، قال فانزل فى قبرها » رواه البخارى * وعن أنس أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولد لى غلام فسميته باسم أبي ابراهيم فذكر الحديث ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، وفى لفظ فاخذه فوضعه فى حجره وقال يابنى : لا أملك لك من الله شيئاً فقال عبد الرحمن بن عوف وأنس : يارسول الله أتبكي وتنهى عن البكاء ؟ فقال :

« يا ابن عوف إنها رحمة ومن لا يرحم لايرحم ، ثم اتبعهما باخرى فقال : ان العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا مايرضى ربنا وانا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون » رواه البخارى ومسلم بدون زيادة الالفاظ ، وفيه دليل على البكاء قبل الموت * وعن أنس أيضاً رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أخذ الراية زيد فاصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فاصيب ، ثم أخذها جعفر فاصيب ، وإن عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذرفان » ثم أخذها خالد بن الوليد من غير أمره ففتح له . رواه البخارى * وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ماتت زينب بنت رسول الله ﷺ فبكت النساء ، فجعل عمر يضربهن بسوطه ، فاخذ رسول الله ﷺ بيده وقال : مهلا ياعمر ثم إيا كن ونعيق الشيطان . ثم قال : « انه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ومن الرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » رواه الامام أحمد * وعن عائشة رضى الله عنها ان سعد ابن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما قالت : فوالذى نفسى بيده إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر وأنا فى حجرتى . رواه الامام أحمد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى جنازة ، فرأى عمر امرأة فصاح بها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « دعها ياعمر فان العين دامعة والنفس مصابة والعهد قريب » رواه ابن ماجه * وعن أسماء بنت يزيد قالت : لما توفى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إما أبو بكر وإما عمر ؟ أنت أحق من عظم لله حقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول مايسخط الرب لولا انه وعد صادق ، وموعود جامع وان الآخر تابع للاول لوجدنا عليك ياابراهيم أفضل ما وجدنا وإنا بك لمحزونون » رواه ابن ماجه . وفى لفظ اتبكى أو ما نهيتنا عن البكاء ؟ قال : « ليس عن البكاء نهيت ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين ،

صوت عند نغمة لهو ولعب ورنة شيطان، وصوت عند مصيبة لطم وجوه وشق جيوب ورنة شيطان ، وهذه رحمة ومن لا يرحم لا يرحم، يا ابراهيم لولا انه أمر حق، ووعد صادق وسبيل لا بد نأتيه، وإن آخرنا سوف يلحق بأولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا وإنا بك لمحزونون » وقال الامام أحمد : حدثنا يزيد ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماتت زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثم قال : « مهلا يا عمر ثم قال ابكين وإياكن ونعيق الشيطان ، ثم انه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل » وذكر تمام الحديث وقد تقدم. وروى الامام أحمد أيضاً بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « الحقي سلفنا الخير عثمان بن مظعون ». وبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « دعهن يبكين وإياكن ونعيق الشيطان » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة ، ومهما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » وقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفير القبر وفاطمة الى جنبه تبكي فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها ، فقد ثبت في حديث موت زينب ورقية بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم البكاء بعد الموت ، وقد جاء في آثار جمة أنه صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه . وتقدم قصة جعفر وعبد الله بن رواحة وأصحابهما ، وكذلك صح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبل النبي ﷺ وهو ميت وبكى وأبكى ، وكذلك بكى علي على النبي ﷺ . فهذه الاحاديث كلها دالة على جواز البكاء قبل الموت وبعده من غير كراهة ، وما ذكره أصحاب الشافعي ومن قال بقولهم من

الكراهة بعد الموت مستدلين بما تقدم من أحاديث النهى فكلها محمولة على البكاء الذى معه ندب ونياحة . ويؤيد ذلك ما يأتى ذكره: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه ، وفى لفظ يعذب بما نيح عليه * وأما من ادعى النسخ فى حديث حمزة فلا يصح أن معناه لا تبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد . ويدل على ذلك ان نصوص الاباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد ، منها حديث أبى هريرة لأن إسلامه وصحبته كانا فى السنة السابعة ، ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان إستشهادهم فى السنة الثامنة ، وكذلك البكاء على زينب بنت رسول الله ﷺ كان فى الثامنة أيضاً ، والبكاء على قبر أمه ﷺ كان عام الفتح ، وأما قولهم انما جاز البكاء قبل الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت. جوابه : إن الباكى قبل الموت يبكى حزناً وحزنه بعد الموت أشد لانه قبل الموت ربما يرتجى و بعده قد فقدت الرجوى فبكى لفراق لا عودة بعده فى الدنيا . وهذا معنى قوله ﷺ : « إن العين لتدمع و إن القلب ليحزن ولا نقول ما يسخط الرب» ومنها قال البخارى قال عمر: دعهن يبكين على أبى سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة . والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت . حدثنا اسحق بن منصور عن أبى رجاء عبد الله بن واقد عن محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة ، فلما انتهينا الى القبر فاستدرت فاستقبلته فاذا هو يبكى حتى بل الثرى . ثم قال : اخوانى لمثل هذا اليوم فاعدوا . رواه الامام أحمد

﴿ فصل ﴾

وقد ذكر بعض العلماء إن البكاء الذى روى عن النبى ﷺ انه فعله وأباحه أو أمر به للاستحباب هو البكى الذى هو دمع العين ورقة القلب ورحمته ، والذى نهى النبى ﷺ عنه هو البكاء بالمد الذى يستلزم الصراخ والندب والعويل . يشهد لهذا قوله : ما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل ، وما كان من اليد واللسان

فمن الشيطان ، ونهى عن رنة الشيطان وهو رفع الصوت عند المصيبة . قلت : هذا وإن كان حسناً يعكر عليه ما حكيناه عن الجوهرى: إن البكاء يمد ويقصر فهو لغتان فلا فرق فيه بين المد والقصر والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وليحذر العبد كل الحذر أن يتكلم فى حال مصيبته وبكائه بشئ يحبط به أجره ، ويسخط به ربه ، مما يشبه التظلم فان الله تعالى عدل لايجور ، وعالم لايضل ولايجهل ،وحكيم أفعاله كلها حكم ومصالح، مايفعل شيئا الا لحكمة ، فانه سبحانه له ما أعطى وله ما أخذ ، لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو الفعال لما يريد القادر على مايشاء له الخلق والأمر * بل إنما يتكلم بكلام يرضى به ربه ، ويكثر به أجره ، ويرفع الله به قدره * وقد روى ابن أبى الدنيا باسناده قال : حدثنى يونس بن محمد المكى قال: زرع رجل من أهل الطائف زرعاً ، فلما بلغ اصابته آفة فاحترق ، فدخلنا عليه لنسليه عنه ، فبكى . وقال : والله ماعليه أبكى ولكن سمعت الله تعالى يقول :(كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته). فأخاف أن أكون من أهل هذه الصفة فذلك الذى أبكانى * قال أبو العرب : لما أمر عبد الله بن زياد بالبلجاء أن يمثل بها ، جاؤا ومعهم الحديد والحبال ، فقالت : اليكم أتكلم بكلام يحفظه عنى من سمعه قال : فحمدت الله وأثنت عليه ثم قالت : هذا آخر يومى من الدنيا وهو غير مأسوف عليه ، وأرجو أن يكون أول أيامى من الآخرة وهو اليوم المرغوب فيه ، ثم قالت: والله إن علمى بفنائها هو الذى زهدنى فى البقاء فيها ، وسهل على بلوائها فما أحب تعجيل ما أخر الله ، ولا تأخير ماعجل الله ، والحمد لله على السراء والضراء وعلى العافية وعلى البلاء ، ثم قالت: كنت أؤمل فى الله ماهو أكثر من هذا . قال ثم انهم قطعوا يديها ورجليها ، فجعل الدم لا يرقأ ، فقالت : حياة كريمة وميتة طيبة لأنى نلت ما أملت يانفس من جزيل

ثواب الله فقد نلت سروراً دائما لا يضرك معه كدر ، وهى حين قطعوا يديها ورجليها فلم تتكلم ، فقيل لها ذلك فقالت : شغلنى هول المطلع عن ألم حديدكم هذا ، ثم أتوا بالنار لتكوى بها فلما رأتها صرخت ، فقيل لها لقطع اليدين والرجلين لم تنطقى ، فلما رأيت النار صرختى ؟ فقالت : والله ليس من نار كم صرخت ولا على دنيا كم أسفت ، ولكننى ذكرت بها النار الكبرى فكان الذى رأيتم من ذلك . قال فأمر بها فسملت عيناها ، فقالت : اللهم قد طال فى الدنيا حزنى فأقر فى الآخرة عينى . ثم قالت : لئن كنت على بصيرة من أمرى إن هذا لقليل فى جنب ما أطلب من ثواب الله . قال فما تكلمت بغيرها حتى ماتت رحمها الله تعالى . وكانت البلجاء من شيعة على رضى الله عنه ، وكان قد بلغ الحسن بن على أن ابن زياد يتتبع شيعة على فيقتلهم . فقال : اللهم اقتله وأمته حتف أنفه . والاسناد ، قال أبو العرب : حدثنا عبد الله بن الوليد عن جابر بن خداش بن عجلان ثنا سالم بن عمير عن سالم الهلالى فذكره .

وليحذر العبد أيضاً أن يدعو على نفسه ، فان النبى ﷺ قال لما مات أبو سلمة قال : « لا تدعوا على أنفسكم الا بخير فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . وليعلم أيضاً أن البكاء يضر الحى والميت ، فان الحى يخاف على عينيه كما قال الله تعالى فى قصة يعقوب عليه السلام : « وابيضت عيناه من الحزن » والميت لا يستريح به * فقد ذكر الحافظ أبو شجاع شيرويه الديلمى باسناده عن على بن الحسين قال : بينا داود الطائى جالساً مع أصحابه يوماً إذ غفا وهو معهم ثم انتبه فقال : أتدرون مارأيت فى نومتى هذه ؟ دخلت الجنة فرأيت فيها صبيا نايلهون بالتفاح يناول بعضهم بعضاً ، وصبى ناحية عنهم جالس حزين يرى الانكسار عليه بين ، فقلت مابال ذلك الصبى لا يلهو معكم كما تلهون ؟ قالوا : ذاك حديث عهد بالدنيا وأمه تكثر البكاء عليه فانكساره لكثرة بكاء أمه عليه ، قال فقلت : أين

منزلهم ؟ قالوا فى قبيلة آل فلان قال : فقلت من أبويه قالوا فلان وفلانة قلت فما اسمه ؟ قالوا فلان . فقال داود لأصحابه فانطلقوا قال فانطلقوا فاتوا القبيل فسألوا عن أبويه فلقيهما أو لقى أحدهما فقال لهما مارأى فى منامه ، فجعلت الأم على نفسها أن لاتبكي عليه أبداً *

(فصل)

والبكاء والأسف على من فرط فى جنب الله أو من خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . وهو داخل تحت المشيئة وعنده من الندامة كامثال الجبال ومن الحسرات كعدد الرمال ، فان الصحة لايعرف مقدارها على الحقيقة الا المرضى كما ان العافية لايعرف مقدارها الا المبتلى ، فكذلك الحياة لا يعرف مقدارها الا الموتى ، لأنهم قد ظهرت لهم الامور ، وانكشفت لهم الحقائق ، وعلموا مقدار الاعمال الصالحة اذ ليس ينفق هنا لك الا عمل زكى ، ولا يرتفع هنالك الا عبد تقى ، فالمقصر يود لو أنه رد فاستدرك ما فات ، ونظر فيما فيه فرط ، والمهمل العمل بالجملة يكون تمنيه الرجوع أكثر ، وحرصه على العودة أشد ، فالواجب اغتنام الصحة والفراغ المغبون فيهما كثير من الناس ، وإنما يحصل للشخص الحزن والبكاء على من أصيب به لذهوله عما بين يديه من سكرات الموت وغصصه ، والانفراد فى القبر وحيداً ذليلا مستوحشاً ، ثم مسائلة منكر ونكير عليهما السلام ، وطول مكثه تحت الثرى إما منعماً و إما معذباً ، ثم من بعد ذلك خروجه من قبره وقيامه لرب العالمين ، ثم وقوفه الطويل فى المحشر وما يرى من أهوال يوم القيامة ، ثم حسابه بين يدى الله تعالى ووزن أعماله وتطاير الصحف والمحاسبة على مثاقيل الذر ، وأنه وجد ما عمل محصياً عليه محرراً فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، وانه بين رجاء وخوف إما لذات اليمين أو لذات الشمال ، فلو استشعر المصاب هذه المصائب العظيمة التى بين يديه وهو غافل عنها ، غير مستعد لها ، لشغلته عن مصابه باحبابه ، ولرجع

الى الصبر والرضاء بما قدره وأمضاه ، فان قدر على نفع ميته به ، والا فلا يؤذيه بما نهى الشرع عنه من الندب والنياحة ولطم الخدود وشق الجيوب ، وغير ذلك من الافعال والاقوال المكروهة التي ذمها السلف والخلف كما سنبينه بعد ان شاء الله ، نسأل الله تعالى العافية فى الدنيا والآخرة *

﴿ فصل ﴾

والحزن لم يأمر الله تعالى به ولا رسوله ، لا فى المصيبة ولا فى غيرها ، بل قد نهى الله عنه فى كتابه وإن تعلق بأمر الدين ، لكن منه محمود ومذموم . كقوله تعالى « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون » وقوله : « ولا تحزن عليهم » وقوله تعالى فى حق نبيه محمد ﷺ وأبى بكر : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » وقوله تعالى : « فلا يحزنك قولهم » الآية . ونحو ذلك من الآيات كثير فى القرآن . وماذاك الا لأن الحزن لا يجلب منفعة ، ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ، وما لا فائدة فيه لا يأمر الله به ، لكن لا يأثم به صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم ، كما تقدم ذكره من قول أو فعل كما قال النبي ﷺ : « إن الله لا يؤاخذ بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يؤاخذ بهذا ـ وأشار بيده الى لسانه ـ أو يرحم » فدل على أنه لا يأثم إلا اذا اقترن به ما يجلب الاثم ويؤيده أيضا قوله ﷺ : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى الرب » قال مالك بن دينار : القلب اذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن البيت اذا لم يسكن خرب . وقال عبد الله بن احمد : حدثني على بن مسلم ثنا بشار ثنا جعفر ثنا ابراهيم بن عيسى . قال : ما رأيت أطول حزنا من الحسن وما رأيته الا حسبته حديث عهد بمصيبة . ثم ذكر بسند عن مالك قال : بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك . ومنه قوله تعالى : « وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن » فكل هذه الادلة تدل على أنه لا يأثم به صاحبه ، فالبكاء والحزن على الميت على وجه الرحمة والرقة

حسن ، ولا ينافى الرضا والصبر بخلاف البكاء عليه والحزن لفوت حظ الحى منه ، فاذا اقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن . فالحزين على مصيبة فى دينه ، وعلى مصائب المسلمين عموما ، فهذا يثاب على مافى قلبه من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك . ولكن الحزن على ذلك اذا أفضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد ، وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه ، وكان حسب صاحبه الأثم عنه من جهة الحزن ، وأما إن أفضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله به ورسوله كان مذموما عليه من تلك الجهة ، وان كان محمودا من جهة أخرى . فانه إن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن . فالعاقل يدفعه عن نفسه ولا يضم الى مصيبته أخرى . وليعلم أنه سيسلو بعد حين والله أعلم *

﴿ الباب الثالث فى تحريم الندب والنياحة وشق الثياب ﴾

الندب اسم للبكاء على الميت وتعداد محاسنه ، قاله الجوهرى ، والاسم الندبة بالضم ، وقيل تعداد شمائل الميت فيقال : وا كريماه واجبلاه والهفاه . والنوح قال القاضى عياض : هو اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات ، وذكر فى المغنى أنه تعداد محاسن الميت بلفظ النداء ، الا أنه يكون بلفظ الواو وربما زيد فيه الالف والهاء مثل قولهم : وارجلاه واجبلاه وانقطاع ظهراه ونحوه . وقال غيره : قال أهل اللغة النياحة اسم لاجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات كما ذكر القاضى عياض والتناوح التقابل ، ثم استعمل فى صفة بكائهن بصوت ورنة وندبة . واعلم رحمك الله أن المطلوب فى المصيبة السكون والصبر ، والرضاء بقضاء الله تعالى ، والحمد والاسترجاع والصدقة عن المصاب به والدعاء له ، وأما الندب والنياحة وشق

الجيوب ولطم الخدود وقول المنكر ، كل هذا ينافى ما ذكر. وقد نص الامام احمد رحمه الله على تحريم الندب والنياحة : قال فى رواية حنبل : النياحة معصية . وقال أصحاب الشافعى وغيرهم : النوح حرام . وقال ابو عمر بن عبدالبر :أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء . وقال أبو الخطاب رحمه الله فى الهداية : ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب والتحفى . وهذا قول ضعيف مصادم لما ورد من السنة . وذكر الشيخ فى المغنى قال : ونقل حرب عن احمد كلاما فيه احتمال اباحة النوح والندب . قال : واختاره الخلال وصاحبه لأن واثلة بن الاسقع ، وأبا وائل كانا يسمعان النوح ويبكيان .ثم قال: وظاهر الاخبار تدل على التحريم انتهى كلامه. واستنادهم فى ذلك لآثارمروية عن بعض الصحابة والسلف لاترد ماورد فى الصحاح والمسانيد . فانهم قالوا قد روى حرب عن واثلة بن الاسقع وأبى وائل : انما كانايسمعان النوح ويبكيان. قالوا: وقد ورد فى الصحيح من حديث أم عطية قالت لما أنزلت هذه الآية : (يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين) الى قوله : (ولا يعصينك فى معروف) كان منه النياحة فنهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها فقالت : فلانة اسعدتنى فانما أريدأن أجزيها .قال: فما قال لها شيئاً فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها . وفى لفظ فى الصحيح قالت أم عطية : يا رسول الله الا آل فلان فانهم أسعدونى فى الجاهلية فلا بد لى أن أسعدهم . فقال : الا آل فلان والجواب عن ذلك أن المرأة التى سكت عنها أن ذلك خاص بها لوجهين :أحدهما أنها حديثة عهد بالاسلام فربما كان فيه تنفيرا لها عنه ، الثانى أنه قال لغيرها لما سألته ذلك قال : لا إسعاد فى الاسلام . فاطلاقه لها وحجره على غيرها يدل على الخصوص. وعلى الرواية الاولى: أن امرأة وقبضت يدهاولم تبايع الا بعد الأسعاد فلا إشكال ، وقد حكى بعض المبايعات القصة ولم تستثن أحداً . فما ورد فى سنن

أبي داود من حـديث أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخـذ علينا أن لا نعصيه ، فيه أن لانخمش وجها ولا ندعوا ويلا ولا نشق جيباً ولا ننبش شعراً .

﴿ فصل ﴾

فيما ورد من تحريم ذلك وما ورد من الوعيد عليه

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » رواه البخاري ومسلم . وعن أبي بردة عن أبي موسى قال وجع أبو موسى وجعاً فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله ، فاقبلت تصيح برنة فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً ، فلما أفاق قال : إني بريء ممن بريء منه محمد ﷺ إن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة. رواه البخاري ومسلم عن الحكم بن موسى ، الا أن البخاري لم يذكر انه حدثه به بل قال : وقال الحكم بن موسى فهو عنده معلق * قوله الصالقة يعني التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة التي تحلق شعرها، والشاقة التي تشق ثوبها * وعن أم عطية قالت أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح ؛ فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة ، أم سليم وأم العلاء وابنة أبي سبرة امرأة معاذ وامرأتان ، أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى . رواه البخاري وهذا لفظه . ومسلم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال : أخذ النبي صلى الله عليه وسلم على النساء حين بايعهن ، أن لا ينحن ، فقلن : يارسول الله إن نساء أسعدننا في الجاهلية أفنسعدهن في الاسلام ؟ فقال: « لا اسعاد في الاسلام » رواه الامام أحمد . وعن أبي مالك الاشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن ، الفخر في الاحساب والطعن في الانساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة » . وقال: « النائحة اذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع

من جرب » انفرد باخراجه مسلم. وفى حديث جابر فى قصة ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم وقد تقدم وفيه ، ألم تنه عن البكاء ؟ قال: «لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان» الحديث رواه الترمذى . وكذلك تقدمت قصة قتل زيد بن حارثة وأصحابه من حديث عائشة قالت : لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف فى وجهه الحزن ، قالت عائشة وأنا أنظر من صابر الباب (شق الباب) فأتى رجل فقال: يارسول الله إن نساء جعفر وذكر بكاءهن ، فامره يذهب فينهاهن ، فذهب فاتاه فذكر أنهن لم يطعنه ، فامره الثانية أن ينهاهن ، فذهب ثم أتاه فقال: والله لقد غلبننا يارسول الله قالت. فزعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اذهب فاحث فى أفواههن من التراب » قالت عائشة : فقلت أرغم أنفك ، والله ما تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم من العناء. رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه * وعن عبيد بن عمير عن أم سلمة قالت : لما مات أبو سلمة قلت غريب وفى أرض غريبة لأبكينه بكاء يتحدث عنه ، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه اذ أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدنى ، فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: « أتريدين أن يدخل الشيطان بيتاً أخرجه الله مرتين ؟ » فكففت عن البكاء فلم أبك انفرد باخراجه مسلم * وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النياحه على الميت من أمر الجاهلية فان النائحة اذا لم تتب قبل أن تموت فانها تبعث يوم القيامة عليها سربال من قطران ثم يعلى عليها بدرع من لهب النار » رواه ابن ماجه من رواية عمر بن راشد الهمامى وقد ضعفه غير واحد . وقد روى فى صحيح مسلم باتم من هذا وأبين * وعن أبى امامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لعن الخامشة وجهها والشاقة ثوبها والداعية بالويل والثبور .

رواه ابن ماجه . والثبور الهلاك ـ ومنه قوله تعالى : « دعوا هنالك ثبوراً » أى صاحوا واهلاكاه . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم النائحة والمستمعة. رواه أبو داود من رواية عطية العوفى وقد تكلم فيه

(فصل)

فيما ورد من عذاب الميت بالنياحة

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه » وفى رواية يعذب بما نيح عليه . ولم يذكر فى قبره رواه البخارى ومسلم * وعن المغيرة بن شعبة قال بعث النبى صلى الله عليه وسلم يقول: « إنه من ينح عليه يعذب بما نيح عليه » رواه البخارى ومسلم * وعن أسيد ابن أبى أسيد عن موسى بن أبى موسى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الميت يعذب ببكاء الحى اذا قالت النائحة واعضداه واناصراه وا كاسباه جبذ الميت وقيل له : أنت عضدها أنت ناصرها أنت كاسبها ؟ فقلت : سبحان الله يقول الله تعالى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) .فقال أحدثك عن أبى موسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول هذا فاينا كذب؟ فوالله ما كذبت على أبى موسى ولا كذب أبو موسى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه الامام أحمد. وعن المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ينح عليه يعذب بما نيح عليه » رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم . وعن النعمان بن بشير قال : أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكى وتقول : واجبلاه وا كذا وكذا تعدد عليه فقال حين أفاق : ماقلت شيئاً الا وقد قيل لى أنت كذلك ؟ فلما مات لم تبك عليه . رواه البخارى * وروى الترمذى فى جامعه عن أبى موضى أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : « ما من ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه واسيداه أو نحو ذلك الا وكل به ملكان يلهزانه أهكذا كنت » قال الترمدى حديث حسن غريب

* قوله ـ يلهزانه ـ اللهز الدفع بجميع اليد فى الصدر .

﴿ فصل ﴾

وليعلم أن البكاء المجرد ليس فيه منفعة للميت البتة وانما ينفعه عمله كما فى صحيح البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاث ، أهله ، وماله ، وعمله فيرجع اثنان و يبقى واحد يرجع أهله وماله و يبقى عمله » وفى الصحيح : اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو ولد صالح يدعو له ، فلا منفعة للميت بالبكاء والانزعاج قال أبو الفرج بن الجوزى أما بعد : فانى رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد على الحد كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت . وهل ينتظر الصحيح الا السقم ، والكبير الا الهرم ، والموجود سوى العدم . كما قيل:

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة ... وميت ومولود (و بشر وأحزان)

وما أحسن ما روى عن بعض السلف أن رجلا جاءه وهو يأكل طعاما . فقال له : قد مات أخوك ، أعظم الله أجرك فيه . فقال : اقعد وكل ، فقد علمت ذلك، فقال من اعلمك وما سبقنى اليك أحد ؟ قال قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) ثم قال : ولعمرى أن أصل الانزعاج لا ينكر اذ الطبع مجبول على الجزع من حلول المنايا ،وانما ينكر الافراط فيه والتكليف ، كمن يخرق ثيابه و يلبس الثياب المرذولة عند موت قريبه ،و يلطم وجهه ، و يعترض على القدر ، وهذا ومثله وأكثر منه لا يردفائتا ، لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العقوبة مع ما يفوته من الأجر

والثواب ، قال بعض الحكماء : اذا كان الصبر محمودا عند المصائب ومرغوبا فيه عند حلول النوائب ، فالجزع مذموما بكل مقال ، وصاحبه ملوما فى كل حال فتعجل المحمود عند العقلاء أحسن ، وتجنب المذموم من الخصال أزين .

(فصل)

وفى بعض ما تقدم من أحاديث النهى هذه كفاية لمن تدبرها ، وكيف لا تكون هذه الخصال القبيحة منهى عنها وهى مشتملة على التسخط على الرب عز وجل الفعال لما يشاء ، الحاكم بما يريد ، المتصرف فى عبيده بما يختار من موت وغرق وحرق ، وغير ذلك مما قضاه وقدره وامضاه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون بل فعل النوح ، وشق الثياب ، ولطم الخدود ، وخمش الوجوه ، ونبش الشعر ونتفه ، والتحفى ، وتسويد الوجه والبدن ، والدعاء بالويل والثبور ، وغير ذلك من الاقوال والافعال المنكرة التى ورد الشرع بالنهى عنها ، وذم فاعلها وان فاعلها شرع فى الدين مالم يأذن به الله ولا رسوله ، وهو مناف للرضا والصبر ، ويضر بالنفس والبدن ، ولا يرد من قضاء الله وقدره شيئا . وقد بلغنى عن أناس أعرفهم أصيبوا بمصيبة ازعجوا أنفسهم لاجل مصابهم ببعض ماذكر فاورثهم ذلك مرضا وحمى ، فاذا استسلم المصاب وانقاد ووكل الأمر لمن بيده الخلق والأمر . وعلم أن سعادة العباد فى معاشهم ومعادهم باتباع الرسل ، فتبع الرسول ﷺ فيما أمره به وفيما نهاه عنه ، وكان مما جاء به تحريم هذه الافعال والاقوال المنكرة التى تقدم ذكرها . بل العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول مايسخط ربنا . فاذا سمع المصاب ذلك فاطاع وانقاد حصلت له السعادة الأبدية باتباعه الرسول فى أقواله وأفعاله لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الآية

﴿ فصل ﴾

والذى ينبغى أولا لمن غلب على الظن انه يصاب بالموت فى مرضه أن يعامل بأحسن المعاملات بما ينفعه فى قبره ويوم معاده ، فيذكره الآخرة ، ويأمره بالوصية والتوبة ، ويلقنه شهادة أن لا إله إلا الله لتكون آخر كلامه . ويكون قبل ذلك قد نهى عن لطم الخدود وشق الثياب وتمزيقها ، ونتف الشعر ورفع الصوت بالندب والنياحة وغير ذلك من قول وفعل منكر . ويكون مع ذلك فى هذه الحالة رجاءه بالله أكثر من خوفه ، وهو يكثر الحمد والاسترجاع والرضاء عن الله عز وجل * وقد روى ابن أبى الدنيا باسناده عن محمد بن مسلمة قال : بلغنى أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يارسول الله أوصنى ولا تكثر على . قال: «لاتتهم الله عز وجل فى شىء قضاه لك» *وروى أيضاً باسناده قال لعائشة رضى الله عنها : ما كان أكثر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته اذا خلا . قالت : كان أكثر كلامه اذا خلا فى بيته «مايقضى من أمر يكن» فهذا رسول رب العالمين يقول هذه المقالة وهو أعرف الخلق وأعلمهم بالله ، فاذا وطن العبد نفسه على أن مايقضى من أمر يكن لامحالة فاتعاب النفس والبدن فيما لا يجدى شيئا ليس من حصافة العقل . ويعلم أن الدنيا موضوعة على الكدر ، فالبناء الى نقض ، والجمع الى التفريق ، ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يوجد ، فلا ينبغى أن يطلب من الدنيا مالم توضع له *

﴿ فصل ﴾

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه وإن الميت يعذب بالنياحة عليه» وقد تقدمت هذه الاحاديث فاختلف السلف والخلف فى ذلك . فقالت طائفة : الله يتصرف فى خلقه بما يشاء وأفعال الله لاتعلل . ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب اليه . لأن الله تعالى *خالق الجميع

والله تعالى يؤلم الاطفال والبهائم والمجانين بغير عمل عملوه . وقالت طائفة أخرى : هذه الأحاديث لاتصح عن رسول الله عليه وسلم وقد أنكرتها عائشة رضى الله عنها واحتجت بقوله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .ثم أحاديث لم نذكرها بعد وهى مما استدلت بها عائشة رضى الله عنها (منها) عن عروة قال: ذكر عند عائشة أن ابن عمر رضى الله عنهما يرفع ذلك الى النبى ﷺ : « إن الميت يعذب فى قبره ببكاء أهله » . فقالت : وهل انما قال النبى ﷺ : انه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وان أهله ليبكون عليه الآن ، وذلك مثل قول النبى ﷺ : قام على القليب يوم بدر وفيه قتلى بعض المشركين . فقال ماقال : انهم ليسمعون ماأقول وقد ذهل. انما قال: انهم ليعلمون انما كنت أقول لهم حق.ثم قرأ: (إنك لاتسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور) يقول : « تبوؤامقاعدهم من النار » رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه. هكذا ساقه بطوله الحافظ الضياء . وعن عبد الله بن عبيد الله بن أبى ملكية .قال: توفيت بنت لعثمان بمكة وجئنا لنشهدها ، وحضر ابن عمر وابن عباس، وانى لجالس بينهما أو قال جلست الى أحدهما ثم جاء الأخير فجلس الى جنبى . فقال عبد الله ابن عمر لابن عباس :ألا تنهى عن البكاء فان رسول الله ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » . فقال ابن عباس :قد كان عمر يقول بعض ذلك . ثم حدث قال : صدرت مع عمر من مكة حتى اذا كنا بالبيداء اذا هو بركب حتى أتى ظل سمرة قال :اذهب فانظر من هؤلاء الركب ؟ فنظرت فاذا صهيب فاخبرته فقال: ادعه لى، فرجعت الى صهيب فقلت له ارتحل فالحق أمير المؤمنين ،فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكى يقول : وأخاه واصاحباه. فقال عمر :ياصهيب أتبكى على وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه » .قال ابن عباس فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت :يرحم الله عمر ، والله ماحدث رسول الله ﷺ ان الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال : «ان الله ليزيد الكافر

عذابا ببكاء أهله عليه . وقالت: حسبكم القرآن (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال ابن عباس رضى الله عنهما عند ذلك : (والله هو أضحك وأبكى) قال ابن أبى مليكة : والله ماقال ابن عمر شيئاً . رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم . وفى صحيح البخارى ومسلم ان عائشة رضى الله عنها ذكر لها ان عمر وابنه عبد الله يقول : ان الميت ليعذب ببكاء الحى . قالت: انكم لتحدثونى عن غير كاذبين ولا متهمين ولكن السمع يخطئ وفى لفظ قالت :يغفر لأبى عبد الرحمن اما انه لم يكذب ولكنه نسى وأخطأ انما مر رسول الله ﷺ على يهودية يبكى عليها فقال:« انهم ليبكون عليها وانها لتعذب فى قبرها »

وقالت طائفة أخرى : قوله إن الميت ليعذب بنوح أهله ، محمول على من أوصى به أو كانت من عادتهم ذلك ولم ينههم .يعنى يوصى قبل موته أن لايحدثوا قولا ولا فعلامنكراً .وهذا كان مشهورا عند العرب وهو كثير فى أشعارهم كقول طرفة :

اذا مت فانعينى بما أنا أهله وشقى علىّ الجيب يا ابنة معبد

وقال لبيد :

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذى لا حليفه أضاع ولاخان الصديق ولا غدر

وقالت طائفة أخرى: هو محمول من سنته وسنة قومه البكاء والنوح وقد اشتهر ان هذا معروف منهم، فاذا لم ينههم دخل فى الوعيد لأن ترك نهيه عن البكاء دليل على رضائه به منهم .وهذا قول عبد الله بن المبارك وهذا القول والذى قبله هو قول واحد ، وقد حكى بعض أهل العلم : ان هذين القولين متباينين ولم يظهر لى ذلك والله أعلم * وقال أبو البركات ابن تيمية رحمه الله: هذا القول هو أصح الأقوال كلها وأرجحها لأنه اذا غلب على ظنه فعلهم له ولم يوصهم بتركه فقد رضى به، وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه ، فاما اذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من

أن يعذبه بذلك * وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: وقد حصل بهذا القول اجراء الخبر على عمومه فى أكثر الموارد ، وانكار عائشة رضى الله عنها لذلك بعد رواية الثقات لايعول عليه . فانهم قد يحضرون ما لاتحضره ، ويشهدون ماتغيب عنه ، واحتمال السهو والغلط بعيد جداً خصوصاً فى حق خمسة من أكابر الصحابة ، وقد تقدم ذكره عن أكثر من خمسة من الصحابة . وقوله فى اليهود لا يمنع أن يكون قد قال مارواه عنه هؤلاء الصحابة فى أوقات أخر، ثم هى محجوجة بروايتها عنه إنه قال: إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه . فاذا لم يمتنع زيادة الكافر عذابا بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية ،لم يمتنع ذلك فى حق المسلم ان الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لايظلم الكافر والله تعالى أعلم *

(فصل)

واعلم رحمك الله ان هذه الاحاديث لاتحتاج الى شئ من هذه التعسفات ، وليس فيها بحمد الله اشكال ولامخالفة لظاهر القرآن ، ولا لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا تتضمن عقوبة الانسان بذنب غيره . فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل: ان الميت ليعاقب ببكاء أهله عليه أو بنوح أهله عليه، وانما قال إنه ليعذب بذلك .ولا ريب ان ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذى يحصل له وهو أعم من العقاب ،والأعم لا يستلزم الأخص . وقد قال النبى ﷺ : «السفر قطعة من العذاب ». وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر ، ويحصل للميت الألم فى قبره بمجاورة أهل البدع والفسق والعصيان ، ويتأذى بذلك كما يتأذى الانسان فى الدنيا مما يشاهده من عقوبة جاره . ونص الامام أحمد :على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم ، فاذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم ، من لطم الخدود ، وتمزيق الثياب ، وخمش الوجوه وتسويدها ، وقطع الشعر ونتفه ، ودعا بدعوى الجاهلية ، وكل هذا موجود فى غالب جهال أهل زماننا، فاذا وجدت هذه الافعال والأقوال على

هذا الوجه حصل للميت الألم فى قبره بذلك ، فهذا التألم هو عذابه بالبكاء عليه وهذا معنى ما ذهب اليه شيخ الاسلام ابن تيمية *

﴿ فصل ﴾

وقد يستحوذ الشيطان على المريض ، فيوسوس له بأنك ستفارق المحبوبات وتخرج من الدنيا الى مكان فظيع موحش ، وتلقى بين أطباق الثرى وكيف يؤلمك . فربما أسخطه على ربه وكرهه لقاء الله عز وجل ، وربما أنطقه بكلام يتضمن نوع إعراض وتسخط . ثم يوسوس لأقاربه بانه لا بد أن يفوتكم من بره واحسانه ما يزيد عن الوصف ، أوانه كان قد نشأ منشأ حسناً ، وقد بدأ يترقى الى المناصب العالية ، فيهيج هؤلاء على البكاء المحرم وفعل مالا يجوز فعله ، ويهيج المريض على الحزن على فراق الدنيا . فينبغى لكلا الطائفتين أن يتداووا بالأدوية الشرعية ، وقد تقدم فى الباب الاول ما فيه كفاية من الأدوية الآلهية فلا حاجة الى تكرارها ، ولكن يجاب عن هذا بجوابين :

أحدهما أن الأغلب فيمن يفارقه انه يؤثر فراقه خصوصاً ان كان شيخاً كبيراً ، أو انه شاب أو كهل يحجر على من ذكرته من قرابة أو ولد ونحوه ، أو له خلق شديد وأخص منه إن كان ذا مال ، وقد رأيت فى زماننا من كان من أصحاب الأموال وهو محسن لأهله وأقاربه ، فمرض فاوصى بوصايا لاقاربه لمن ليس بوارث فى الحال ، فلما مات خلف مالا جزيلا ، فاشتغل الوارث وغيره بالمال عن الحزن عليه ، فاخذوا فى الخصام عليه وتفرقته . فهذا وهو محسن اليهم بماله وما أخذوه فهو سريع الذهاب وأما بره اليهم لو بقى حصل لهم أضعاف ذلك . فلا ينبغى للعبد أن يحزن لفراق من لا يحزن لفراقه . وذكر أبو القاسم بن عساكر :قال أنشدنى محمد بن الاشعث لنفسه فى ذم الحزن من حيث هو :

قلم القضاء جرى بكل مكوّن ‏ ‏ ‏ ‏ ياصاحب الاحزان ماذا تحزن

ان كان سخطك ليس يجلب راحة   فرضاك بالبلوى أحق وأحسن

والثانى الرجاء لملاقاة من هو أحب اليـه منه ، وما من مؤمن يموت فيؤثر الرجوع الى الدنيـا ولو انها جميعها له إلا الشهيد ، فانه يحب الرجوع ليقاتل مرة أخرى لما يرى من عظم أجر الشهادة كما سيأتى ذكره بعد .وقد روى الامام أحمد فى مسنده ان النبى ﷺ قال : « مامن نفس مؤمنـة مسلمة يقبضها ربها عز وجل تحب أن تعود اليكم وان لها الدنيا ومافيها »

(فصل)

فيما ذكر فى النعى

وهو اعلام الناس بموت الشخص على مايفعله أهل زماننا بالـكبير أو بالمشهور ويرسلون مناديا يعلم الناس به ،قال العلامة ابن القيم فى الهدى: وكان من هديه ﷺ ترك نعى الميت بل كان ينهى عنه ويقول : «هو من عمل الجاهلية »انتهى كلامه وقال الحافظ ضياء الدين رحمه الله فى أحكامه: باب كراهة النعى ،وساق فى الباب ثلاثة أحاديث ،منها عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :« إياكم والنعى فان النعى من عمل الجاهلية » قال عبد الله: آذان بالميت . رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب * وعن حذيفة قال : اذا مت فلا تؤذنوا بى أحداً انى أخاف أن يكون نعياً ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن النعى . رواه الامام أحمد وابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وحسنه . وعند ابن ماجه كان حذيفة اذا مات له الميت قال :لاتؤذنوا به أحداً إنى أخاف أن يكون نعياً ،انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنى هاتين ينهى عن النعى .وروى أحمد أيضاً هذه الزيادة كما رواها ابن ماجه ،لـكن لم يقل باذنى هاتين * وقال سعيد بن منصور : حدثنا اسماعيل ابن ابراهيم أخبرنا ابن عون قال قلت لا براهيم : أكان النعى يكره ؟ قال : نعم . قال ابراهيم : اذا توفى الرجل يركب رجل دابته ثم صاح فى الناس: انعى فلانا . وباسناده

الى ابن عون قال: سمعت بالكوفة أن شريحاً كان لا يؤذن بجنازة أحد، فذكرت ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ان شريحاً كان مكبا[1]، ما أعلم به بأساً أن يؤذن الرجل صديقه، ويؤذن الرجل جمعه. وذكر باسناده حدثنا حماد عن ابراهيم انه قال: لا بأس اذا مات الرجل أن يؤذن صديقه وأصحابه إنما يكره أن يطاف فى المجالس فيقال: انعى فلاناً فعل الجاهلية. وقد روى الترمذى عن أبى موسى الاشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مامن ميت يموت فيقوم باكيهم فيقول واجبلاه واسنداه أو نحو ذلك الا وكل الله به ملكان يلهزانه أهكذا كنت » قال الترمذى حديث حسن *

والمقصود ان هذه الأحاديث دالة على النهى، وانه من فعل الجاهلية، لكن الأحاديث التى ذكرناها، منها مايدل على أن النعى إعلام الناس بان فلانا قدمات، ومنها ما يدل على أن النعى هو تعداد صفات الميت، فالظاهر ان كلاهما نعى والله أعلم * ومايفعله الناس اليوم فى زماننا من إعلام الناس بالميت والمناداة له، فهو من البدع المنهى عنها. كما ورد فى الحديث، فانه مفض الى تأخير الميت لاجل اجتماع الناس له تأخيراً زائداً عن الحد، ويتركون السنة التى من شأنها الاسراع بالجنازة كما ثبت فى سنن أبى داود: ان أبا طلحة بن البراء مرض فاتاه النبى ﷺ يعوده فقال: « إنى أرى طلحة قد حدث فيه الموت فآذنونى به وعجلوا. فانه لاينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانى أهله »

وان كان المراد النعى الذى هو تعداد صفات الميت فيقال الذى ينبغى أن يقال، لابأس بالكلمات اليسيرة اذا كانت صدقا لاعلى وجه النوح والتسخط، فلا يحرم ولا ينافى الصبر ولا يكون من النهى عنه، بل قد نص الامام أحمد رحمه الله أن الكلمات اليسيرة من الصدق لا تنافى الصبر الواجب. يؤيد ذلك ماثبت فى

---

(١) كذا بالاصل ولعله : مكبيا

صحيح البخارى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : وا كرب أبتاه ، فقال : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب ربا دعاه يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه الى جبريل أنعاه . فلما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة : أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وعن أنس أيضاً أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ، ووضع يده على صدغيه ، وقال : وانبياه ، واخليلاه ، واصفياه . رواه الامام أحمد . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعى النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم الى المصلى فصف بهم ، وكبر عليه أربع تكبيرات . رواه البخارى ومسلم . وفى لفظ لهما فقال : استغفروا لأخيكم . وقد تقدم قول النبى ﷺ : وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . وهذا ونحوه من الأقاويل التى تقدمت ليس فيها تسخط على الرب تبارك وتعالى بما قضاه وقدره ، ولا ينافى الصبر الواجب ، ولا يأثم به قائله والله أعلم *

﴿ الباب الرابع ﴾

﴿ فيمن أصيب بفقد ثلاثة من الولد فا كثر ﴾

قال البخارى : باب فضل من مات له ولد فاحتسب . وقوله تعالى : (وبشر الصابرين) حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث ثنا عبد العزيز عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن مسلم من الناس يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ورواه مسلم من وجه آخر عن أنس * قوله لم يبلغوا الحنث أى لم يبلغوا سن التكليف الذى يكتب فيه الحنث * وروى البخارى من حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى

ﷺ قال : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار الا تحلة القسم » ورواه مسلم من هذه الطريق أيضاً . قال العلماء : تحلة القسم ما ينحل به القسم وهو اليمين . وجاء مفسراً فى الحديث ان المراد به قوله تعالى : (و إن منكم إلا واردها) وبهذا قال أبو عبيد وجمهور العلماء . والقسم مقدر أى (والله إن منكم الا واردها) وقيل : المراد قوله تعالى : (فو ربك لنحشرنهم والشياطين) وقال ابن قتيبة : معناه تقليل مدة ورودها . قال وتحلة القسم فى هذا فى كلام العرب . وقيل تقديره ولا تحلة القسم أى لا تحلة اصلا ولا قدراً يسيراً تحلة القسم . والمراد بقوله تعالى : (و إن منكم الا واردها) المرور على الصراط وهو على جهنم . وقيل : الوقوف عندها أعاذنا الله وإيا كم منها * وروى مسلم أيضا هذا الحديث معنى تحلة القسم ، عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد وزهير بن حرب ثلاثتهم عن سفيان بن عيينة به . ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى به . ورواه أيضاً حدثنا يحيى بن يحيى قرأت على مالك عن شهاب عن ابن المسيب عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم » ورواه الترمذى من حديث مالك به وقال : حسن صحيح . قال الترمذى فى الباب : عن معاذ وعمر وكعب بن مالك وعتبة بن عبيد وأم سليم وعائشة وأنس وأبى ذر وابن مسعود وأبى ثعلبة الاشجعى وابن عباس وعتبة ابن عامر وأبى سعد وقرة بن اياس * وقال الامام أحمد : حدثنا اسحاق أخبرنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث الا أدخلهم الله الجنة وآباءهم بفضل رحمته » . قال : يقال لهم ادخلوا الجنة . قال : يقولون حتى يجئ أبوانا . قال ثلاث مرات فيقولون مثل ذلك . قال « فيقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » وروى البخارى من حديث ذكوان عن أبى سعيد أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا

منك يوماً ، فوعظهن وقال : «أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد كن لها حجاباً من النار . قالت امرأة : واثنان . قال : واثنان» وقال شريك عن ابن الاصبهاني ثنا أبو صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال أبو هريرة : لم يبلغوا الحنث* وقد روى الحديث محمد بن سيرين وأبو رزين وأبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة وأخرج مسلم حديث أبي سعيد من حديث شعبة به وعنده فقالت امرأة : واثنين واثنين واثنين يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « واثنين واثنين واثنين» وهذا الذي علقه البخاري عن شريك عن ابن الاصبهاني قد رواه هو ومسلم من حديث غندر عن شعبة عن ابن الاصبهاني عن أبي حازم عن أبي هريرة وقال فيه : لم يبلغوا الحنث. وقال عثمان بن ابراهيم المؤذن حدثنا عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه. قال قال رسول الله ﷺ : « مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث الا أدخلهم الله وأبويهم الجنة قال يكونون على باب من أبواب الجنة فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم». ورواه النسائي من حديث اسحاق بن يوسف الأزرق عن عوف الاعرابي . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال لنسوة من الانصار : «لا يموت لاحدا كن ثلاثة من الولد فتحتسبه الا دخلت الجنة » فقالت امرأة منهن : أو اثنين يارسول الله؟ قال: « أو اثنين » وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ خطب النساء فقال : « مامنكن امرأة يموت لها ثلاثة الا أدخلها الله الجنة » فقالت أجلهن امرأة : يارسول الله وصاحبة الاثنين ؟فقال: « وصاحبة الاثنين في الجنة » وروى أحمد أيضاً من حديث أم سليم بنت ملحان وهي أم أنس بن مالك قالت قال رسول الله ﷺ: « مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث الا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته» قالها ثلاثا . قلت : يارسول الله واثنان قال «واثنان» وروى المثنى عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب عن أم مبشر أن رسول الله ﷺ

قال : «من هلك له ثلاثة من الولد فصبر واحتسب ادخل الجنة » فقالت : يارسـول الله واثنان قال واثنان . وروى مسلم فى صحيحه من حديث طلق بن معاوية عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : اتت امرأة بصبى لها فقالت : يانبى الله ادع الله فلقد دفنت ثلاثة . فقال : « دفنت ثلاثة » قالت : نعم قال : «لقد احتظرت بحظار شـديد من النار » * وقال البخارى فى تاريخه قال على بن هاشم حدثنى نصر بن عمر بن يزيد بن قبيصة قال حدثنى أبى عن قبيصة بن برمة قال : كنت عند النبى ﷺ جالساً إذ أتته امرأة فقالت : يارسول الله ادع الله لى فانه ليس يعيش لى ولد. قال : « وكم مات لك؟ قالت : ثلاثة . قال : لقد احتظرت من النار بحظار شديد » وقال سعيد بن منصور حدثنا عبيد الله بن زياد ثنا أبى عن زهير بن أبى علقمة قال : جاءت امرأة الى رسول الله ﷺ فى ابن لها مات وكان القوم عنفوها. فقالت : يارسول الله قد مات لى ابنان منذ دخلت فى الاسلام سوى هذا . قال : « لقد احتظرت من النار حظاراً شديداً » قال جماعة من الحفاظ اسناد صحيح لـكن لاصحبة لزهير هـذا فيكون مرسلا * اما قوله ﷺ لقد احتظرت بحظار شديد من النار ، أى امتنعت بمانع وثيق ، واصل الحظر المنع ، واصل الحظار بكسر الحاء وفتحها ما يجعل حول البستان وغيره من القضبان وغيرها كالحائط .

وفى هذه الاحاديث دليل على كون أطفال المسلمين فى الجنة . وقد نقل جماعة من العلماء إجماع المسلمين على ذلك ، قال الماوردى : اما أولاد الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم فالاجماع محقق فى الاطفال على أنهم فى الجنة ، و اما اطفال من سواهم من المسلمين فجماهير العلماء على القطع لهم بالجنة . قالوا : و يدل عليه قوله تعالى : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذر ياتهم بايمان ألحقنا بهم ذر ياتهم) . وتوقف بعض المتكلمين منهم واشار أنه لا يقطع لهم كالمـكلفين ، وهو خطأ . ولـكنهم مستندين الى حديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيح ، توفى صبى من الأنصار فقالت عائشة : طوبى له عصفور



من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال : « أو غير ذلك ياعائشة إن الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » وفى الحديث الآخر : إن الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، أجاب العلماء عن ذلك بان النبى ﷺ : انما نهى عائشة عن المبارعة الى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع ، كما أنكر على سعد بن أبى وقاص فى قوله اعطه انى لأراه مؤمنا قال أو مسلما . قال النواوى رحمه الله فى شرح مسلم : فيحتمل انه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم ان أطفال المسلمين فى الجنة ، فلما علم قال ذلك فى قوله ﷺ « مامن مسلم يموت له ثلاث من الولد لم يبلغوا الحنث الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » وغير ذلك انتهى كلامه . وقد تقدم عدة من الأحاديث تدل على ذلك كما سـيأتى ما هو أتم من ذلك وأبين . وما ورد من الاحاديث فى الثلاثة من الولد ثم سُـئل عن الاثنين فقال : واثنين فمحمول على أنه أوحى اليـه عند سؤال الاثنين ، وكذلك عند سؤال الواحد فى بعض الألفاظ والله تعالى أعلم * وروى الامام أحمد باسناده عن شرحبيل بن شفعة قال : سمعت عتبة بن عبد السلمى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مامن رجل مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل » ورواه ابن ماجه من حديث جرير بن عثمان الحمصى به * وروى أحمد من حديث المغيرة ثنا جرير ثنا شرحبيل بن شفعة عن بعض الصحابة انه سمع النبى ﷺ يقول : « يقال للولدان يوم القيامة ادخلوا الجنــة فيقولون يارب حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا قال فيقول الله تعالى مالى أراكم محنبطين ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » * وروى الامام أحمد أيضاً عن يزيد بن هرون عن هشام عن ابن سـيرين : بينا امرأة كانت تأتينا يقال لها مارية كانت ترزأ فى ولدها ، فلقيت عبد الله بن معمر القرشى ومعه رجل من أصحاب النبى ﷺ فحـدث ذلك الرجل ان امرأة أتت النبى ﷺ فقالت : ادع الله أن

يبقيه لى فقد مات لى قبله ثلاثة فقال : منذ أسلمت ؟ قالت : نعم ، فقال : « جنة حصينة » وروى أيضاً منفرداً به لكنه من حديث ابن لهيعة عن أبى عسانة انه سمع عقبة بن عامر يقول عن رسول الله ﷺ انه قال : « من أثكل ثلاثة من صلبه فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة » وروى أيضا فى مسنده من حديث صعصعة بن معاوية قال : أتينا أبا ذر قلت : مالك ؟ قال : لى عملى ، قلت : حدثنى ، قال : نعم ! قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا الحنث الا غفر لهما » ورواه النسائى عن اسماعيل بن مسعود عن بشر بن المفضل عن يونس بن عبيد عن الحسن عن صعصعة * وثم طريق أخرى عن أبى ذر حدثنا عبد الملك بن عمرو ثنا قرة عن الحسن عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر بالربذة ، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق [1] زوجين من ماله فى سبيل الله ابتدره حجبة الجنة » وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا حنثاً الا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم »

﴿ فصل ﴾

(فى ذكر الاربعة)

قال عبدالله بن الامام أحمد فى مسند أبيه : حدثنى محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنى بشر بن المفضل عن داود بن أبى هند عن عبد الله بن قيس عن الحارث بن أقيس قال قال رسول الله ﷺ : « مامن مسلمين يموت بينهما أربعة أولاد إلا أدخلهم الله الجنة » قالوا يارسول الله وثلاثة ؟ قال وثلاثة ، قالوا يارسول الله واثنان ؟ قال واثنان ، وإن من أمتى لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها ، وإن من أمتى

---

(١) فى النهاية . قيل وما زوجان قال فرسان أو عبدان أو بعيران

لمن يدخل بشفاعته الجنـة أ كثر من بعصر [1] . وروى ابن ماجه منه، وإن من أمتى الخ عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبـد الرحيم بن سليمان عن داود بن أبى هند به ، وروى داود بن أبى هند عن عبد الله بن قيس الاسدى عن الحارث بن أقيس ، قال : كنا عند أبى بردة ليلة فحدث ليلته عن النبى ﷺ يقول : « مامن مسلمين يموت لهما أربعة أفراط الا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته قالوا يارسول الله وثلاثة ؟ قال وثلاثة قالوا واثنان ؟ قال واثنان » وذكر تمام الحديث . وقد ذكر بعضهم انه رواه الامام أحمد ولـكنى لم أره ، وروى النسائى من حديث عبدالله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج حـدثنى عمران بن نافع عن حفص بن عبيد الله عن جده أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة » وروى الهيثم بن جميل عن الاحوص عن عاصم الاحول عن أنس قال : توفى للزبير ولد فاتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله سخ أنفسنا عن أولادنا . فقال : « من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجابا من النار » وروى عبد الحـكيم بن منصور عن يونس عن ابن سـيرين عن عبيدة السلمانى عن الزبير بن العوام عن النبى ﷺ قال : « من مات له ثلاثة من الاولاد لم يبلغوا الحنث كانوا له حجابا من النار » وروى الامام أحمـد من حديث لقمان بن عامر عن أبى امامة عن عمرو بن عنبسة قال : قلت له حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا زيادة. قال سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد فى الاسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة فى الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فى سبيل الله بلغ به العدو أصاب أو أخطأ كان له بعـدل رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار ،ومن أنفق زوجين

---

(١) كذا بالاصل .

فى سبيل الله فان للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أى باب شاء منها » وكذا رواه عبد الحميد بن بهرام عن شهر عن أنس عن أبى طيبة عن عمرو بن عنبسة السلمى فذكر نحوه * ورواه الوضين عن عطاء عن محفوظ بن علقمة عن ابن عائذ عن عمرو بن عنبسة به * وقال عبـد الرزاق سمعت هشام بن حسان عن ابن سيرين عن يزيد بن أبى بكرة حدثتنى حبيبة - يعنى بنت سهل - ويقال بنت أبى سفيان انها كانت عند عائشة رضى الله عنها فجاء النبى ﷺ فقال : « مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد الا أدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم » وكذا روى محمد بن عبد الله الانصارى عن أبان بن صمعة عن محمد بن سيرين عن يزيد بن أبى بكرة عن حبيبة انها كانت فى بيت رسول الله ﷺ. فجاء فجلس فقال : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال لم يبلغوا الحنث الا جئ بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة فيقال ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا » قال ابن سـيرين فلا أدرى فى الثانية أو الثالثة، فيقال لهم ادخلوا أنتم وآباؤكم . فقالت عائشة أسمعت؟ قالت : نعم. وقال الترمذى وروى الابار قلت : - هو أبو حفص اسمه عمر بن عبد الرحمن - . عن الاعمش عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبى أبزى عن أبيه عن محمد بن وهب أن النبى ﷺ قال لامرأة : هل لك من فرط ، قالت : ثلاثة . قال : جنة حصينة ، وروى عبد الرحمن بن اسحاق أبو شيبة عن يزيد بن الحكم عن عثمان بن أبى العاص أن النبى ﷺ قل : « لقد استجن بجنـة حصينة من النار رجل سلف بين يديه ثلاثة من صلبه فى الاسلام » وعن أم ذر قالت : لمـا حضرت أبا ذر الوفاة بكيت فقال : ابشرى ولا تبكى فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران و يحتسبان فيريان النار أبداً » وقـد مات لنـا ثلاثة من الولد ، رواه الحافظ أبو موسى المدينى * وقال مالك فى الموطأ عن محمـد بن أبى بكر عن أبيه عن أبى النضر السلمى أن رسول الله ﷺ قال :

« لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار» فقالت امرأة منهن: يارسول الله أو اثنان ،قال أو اثنان . قال أبو عمر بن عبد البر هكذا . رواه القعنبى ويحيى بن يحيى عن مالك وقال الآخرون عن مالك باسناده عن أبى النضر . قال وهذا مجهول فى الصحابة والتابعين انتهى كلامه (قلت) كذا قال ابن عبد البر. وليس بمجهول كما قال ، فان مسلم رحمه الله قال فى كتاب الكنى والاسامى: أبو النضر عبد الاعلى بن هلال السلمى عن عرباض ابن سارية ، وروى عنه عامر بن خصيف فهو تابعى ، وروى اسماعيل بن يحيى التيمى عن موسى الجهنى عن مجاهد عن عائشة رضى الله عنها .قالت : قال النبى ﷺ : « من قدم ثلاثة من ولده صابراً محتسبا حجبوه باذن الله من النار » وروى البخارى فى تاريخه من طريق أبان بن صمعة عن ابن سيرين حدثتنا حبيبة خادمة عائشة ، انها كانت فى بيت عائشة قاعدة ، فدخل رسول الله ﷺ فقال : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أطفال الا أدخلهما الله الجنة » وفى الاربعين لنصر بن عبد الرزاق ذكر عن على بن زيد بن جدعان عن سعيد ابن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « انى رأيت البارحة عجباً رأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة فجاءه وضوءه فاستنقذه ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه » وهو مقتطع من حديث طويل يأتى . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قل : قال رسول الله ﷺ : « من دفن من صلبه ثلاثة من الولد كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » رواه بسنده الحافظ بن عساكر (قلت) وهذه الاحاديث على اختلاف ألفاظها واتفاق معانيها غالباً وسيأتى بعد ذلك ما هو مثلها وما هو أتم وأبين ان شاء الله كلها تدل على انها وقعت من النبى ﷺ فى مجالس متعددة ، ويدل على اهتمامه واعتنائه ورحمته وشفقته بامته ، اذ كل حديث من هذه الاحاديث فيه تسلية

الأمة عن أولادها ، بل تدل بفحوى الخطاب على أن الشارع ﷺ أراد تسلية الوالدين عن أولادهما بما أعد الله لهما من الثواب الجزيل على المصيبة، والصبر عليها فان اتفق مع ذلك الرضى بها وكتمانها عن الخلق وطلبها وتلقيها بالقبول كان (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

﴿ الباب الخامس ﴾

(فيمن أصيب بفقد ولدين)

قال مسلم فى صحيحه : حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه أبى السليل بن نفير عن أبى حسان وهو خالد بن علان ، قال : قلت لابى هريرة رضى الله عنه انه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث يطيب أنفسنا عن موتانا؟ قال : نعم ، قال : « صغارهم دعاميص الجنة فيلقى أحدهم أباه أو قال أبويه بثوبه أو قال بيده كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى أو قال ينتهى حتى يدخله الجنة » ورواه الامام أحمد ، أما قوله ﷺ : « صغارهم دعاميص الجنة » هو بالدال والعين والصاد المهملات واحدهم دعموص بضم الدال أى صغار أهل الجنة ، قال الشاعر :

اذا التقى البحران عم الدعمو ص نفى أن يسبح أو يغوص

واصل الدعموص دويبة تكون فى الماء لا تفارقه ، أى هذا الصغير فى الجنة لا يفارقها . وأما قوله صنفة ثوبك هى بفتح الصاد وكسر النون وهي طرفه ويقال لها أيضاً صنيفة. وأما قوله فلا يتناهى أو قال ينتهى حتى يدخله الله وإياه الجنة يتناهى و ينتهى بمعنى واحد أى لا يتركه والله تعالى أعلم * وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو هشام الرفاعى ثنا ابن فضيل ثنا بشير بن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يأتى الانصار ويعودهم ويسأل عنهم فبلغه أن امرأة

من الانصار مات ابن لها فجزعت عليه ، فأتاها فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقوى الله عز وجل والصبر. فقالت : يارسول الله إنى امرأة رقوب لا الد ولم يكن ولد غيره . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرقوب التى يبقى ولدها . ثم قال : « ما من امرىء مسلم ولا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة من الولد إلا أدخلها الله عز وجل الجنة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : بأبى أنت وأمى يارسول الله واثنان قال واثنان » ورواه البزار فى مسنده عن أحمد بن عمر عن جعفر بن عون عن بشير بن المهاجر عن عبدالله بن بريدة عن أبيه به وعنده فقالت: يارسول الله كيف لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لى ولد . فقال : انما الرقوب التى يعيش ولدها . وعنده . فقال عمر وهو على يمين رسول الله ﷺ : واثنان . قال: واثنان » وهو على شرط مسلم * وقال الامام أحمد ثنا عفان ثنا وهيب ثنا عبد الله بن عثمان عن مجاهد عن ابراهيم بن الاشتر أن أبا ذر رضى الله عنه : حضره الموت وهو بالربذة ، فبكت امرأته . فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أبكى انه لا يدلى بنعشك وليس عندى ثوب يسع لك كفنا. فقال : لا تبكى فانى سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وانا عنده فى نفر يقول : « ليموتن رجل منكم مسلم بفلاة من الارض يشهده عصبة من المؤمنين ، وكل من كان فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقرية ولم يبق منهم غيرى ، وقد اصبحت بالفلاة أموت فراقبى الطريق فانك سوف ترين ما أقول فانى والله ما كذبت ولا كذبت » قالت وأنى ذلك وقد انقطع الحاج .قال : راقبي الطريق ، فبينما هى كذلك إذهى بقوم تجذبهم رواحلهم كانهم الرخم فأقبل القوم حتى وقفوا عليها . فقالوا : مالك . قالت؟ أمرأ من المسلمين تكفنوه وتؤجرون فيه . قالوا : من هو ؟ قالت : أبو ذر ففدوه بآبائهم وأمهاتهم ووضعوا أسياطهم فى نحورها يبتدرونه . فقال : ابشروا انتم النفر الذين قال رسول الله ﷺ فيكم ما قال ابشروا سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من أمرين مسلمين هلك بينهما

ولدان أو ثلاثة فاحتسبا وصبرا فيريان النار أبدا » . ثم قال : « قد أصبحت اليوم وحيث ترون ولو أن ثوبا من ثيابي يسعني لم أكفن الا فيه فانشدكم لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً فكل القوم كان قد نال من ذلك شيئا الا فتى من الانصار كان مع القوم قال: انا صاحبك ثوبان في عيبتي من غزل أمي واجد ثوبي هذين اللذين علي . قال : أنت صاحبي فكفني » تفرد به أحمد * وقال أحمد ثنا حماد بن مسعدة ثنا جريج عن أبي الزبير عن عمرو بن نبهان عن أبي ثعلبة الاشجعي . قال قلت : مات لي يارسول الله ولدان في الاسلام. فقال: « من مات له ولدان في الاسلام أدخله الله الجنة بفضل رحمته اياهما » . قال فلما كان بعد ذلك لقيني أبو هريرة فقال أنت الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الولدين ما قال ؟ قلت : نعم . قال : لأن يكون ما قاله لي أحب الي مما غُلِّقَتْ عليه حمص وفلسطين * وروى الامام أحمد أيضا في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب النساء فقال لهن : « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة الا أدخلها الله عز وجل الجنة فقالت : أجلهن امرأة : يارسول الله وصاحبة الاثنين في الجنة . قال وصاحبة الاثنين في الجنة» وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . قال : جاءت امرأة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله . ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله . قال : اجتمعن في يوم كذا وكذا فاجتمعن فأتاهن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهن مما علمه الله ثم قال : « ما منكن من امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة الا كانوا لها حجابا من النار » فقالت امرأة واثنين واثنين واثنين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « واثنين واثنين واثنين » رواه البخاري ومسلم ولفظه لمسلم * وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوجب الثلاثة . قال : معاذ وذو الاثنين يارسول الله . قال : وذو الاثنين . رواه الامام أحمد * عن ذكوان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

ان النساء قلن غلبنا عليك الرجال يا رسول الله فاجعل لنا يوماً نأتيك فيه ، فواعد هن ميعاداً فامرهن ووعظهن وقال : ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد الا كانوا لها حجابا من النار . فقالت امرأة : واثنين فانه مات لى اثنان . فقال رسول الله ﷺ : واثنين . هذا لفظ البخارى ، وقد تقدم لفظ مسلم ورواه الامام أحمد من حديث أبى هريرة وابن مسعود وقد تقدم .

﴿ الباب السادس ﴾

فيمن أصيب بفقد ولد واحد

قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن اسحق ثنا حماد بن مسلم عن أبى سنان . قال : دفنت ابناً لى فانى لفى القبر اذ أخذ بيدى أبو طلحة فأخرجنى . فقال : ألا أبشرك . قال : قلت بلى . قال : حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : ياملك الموت قبضت ولد عبدى قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده . قال : نعم . قال فما قال قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . وهكذا رواه الترمذى عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن أبى سنان عيسى بن سنان عن أبى طلحة الخولانى به . وقال حسن غريب ، ورواه ابن حبان ورواه أبو القاسم بن عساكر ولفظه : اذا مات ولد العبد قال الله عز وجل لملائكته قبضتم ولد عبدى . قالوا : نعم ! قال : فماذا قال ؟ قالوا : استرجع وحمدك . قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد . ورواه البيهقى موقوفا على أبى موسى ولفظه . قال : اذا قبض الله ولدا لرجل قال والله أعلم بما قال العبد قال فيقال الملائكة اقبضتم ولد فلان ؟ فذكر نحو الذى قبله * وقال أحمد حدثنا يزيد بن هرون انبأ

العوام عن محمد بن أبي محمد مولى لعمر بن الخطاب عن أبي عبيدة عن أبيه عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا الحنث الا كانوا لهما حصناً حصيناً من النار . فقال أبو ذر : مضى لى اثنان يارسول الله . قال : واثنان . فقال أبى بن كعب أبو المنذر وسيد القراء : مضى لى واحد يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « وواحد وذلك فى الصدمة الاولى » ورواه الترمذى وقال غريب وابن ماجه جميعاً عن نصر بن على عن اسحق بن يوسف عن العوام بن حوشب عن أبى محمد مولى عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة عن أبيه عبدالله بن مسعود مرفوعاً فذكره . وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه * وقال الامام أحمد فى مسنده حدثنا أبو معاوية ثنا الاعمش عن ابراهيم التيمى عن الحارث بن سويد عن ابن مسعود . قال قال رسول الله ﷺ : « ماتعدون فيكم الرقوب قلنا : الذى لا ولد له . قال : لا ولكن الرقوب الذى يقدم من ولده شيئاً » . ورواه مسلم من حديث الاعمش . ورواه البيهقى ولفظه أن امرأة قالت أنا رقوب لا يعيش لى ولد . فقال : انما الرقوب التى يعيش ولدها اماتحبين أن ترينه على باب الجنة وهو يدعوك اليها . قالت : بلى ! قال : فانه كذلك * وقال الامام أحمد حدثنا وكيع ثنا شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلا كان يأتى النبى ﷺ ومعه ابن له فقال له النبى ﷺ : أتحبه ؟ فقال : يارسول الله « أحبك الله كما أحبه » . ففقده النبى ﷺ فقال ما فعل ابن فلان ؟ قالوا يارسول الله مات . فقال النبى ﷺ لأبيه : « أما تحب أن لاتأتى باباً من أبواب الجنة الا وجدته ينتظرك . فقال رجل : يارسول الله أله خاصة أو لكلنا ؟ قال بل لكلكم » ورواه النسائى من حديث شعبة بمثله . وفى رواية أخرى من حديث هلال بن زيد بن أبى الزرقاء عن أبيه عن خالد بن ميسرة عن معاوية بن قرة عن أبيه . قال : كان نبى الله ﷺ اذا جلس جلس اليه نفر من أصحابه ومنهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه فهلك فامتنع

الرجل أن يحضر الحلقة بذكر ابنه فحزن عليه [1] ففقده النبي صلى الله عليه وسلم فقال: مالى لا أرى فلانا ؟ فقالوا: يارسول الله بنيه الذى رأيته هلك ، فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن بنيه فاخبره بانه هلك ، فعزاه عليه . ثم قال : يافلان « أيما كان أحب اليك ، أن تمتع به عمرك ، أو لا تأتى غداً الى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك اليه يفتحه لك. قال : يارسول الله بل يسبقنى الى باب الجنة يفتحها لى أحب الى .قال: فذلك لك» رواه النسائى وهذا لفظه ورواه الامام أحمد والبيهقى وزادا فقال رجل: يارسول الله أله خاصة أم لكلنا ؟ قال : بل لكلكم .فذكر مثل الذى قبله * ورواه البيهقى من طريق أخرى وفيه فقام رجل من الانصار . فقال : يانبى الله جعلنى الله فداك أهذا لهذا خاصة أو من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له. قال: بل من هلك له طفل من المسلمين كان ذلك له * وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن اسحق من كتابه أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن حسان بن كريب أن غلاماً منهم توفى ، فوجد عليه أبوه أشد الوجد . فقال : حوشب صاحب النبي صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى مثل ابنك :« إن رجلا من الصحابة كان له ابن قد دب أو ادرك وكان يأتى مع أبيه الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم توفى فوجد عليه أبوه قريباً من ستة أيام لا يأتى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أرى فلانا . فقالوا : يارسول الله إن ابنه توفى فوجد عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يافلان أتحب لو أن ابنك عندك الآن كانشط الصبيان نشاطا ، أتحب أن ابنك عندك أجرى الغلمان جرية ، أتحب ان ابنك عندك كهلا كأفضل الكهول . أو يقال لك : ادخل الجنة ثواب ما أخذ منك » وقد ورد هذا الحديث بعدة طرق عن أنس بن مالك وبريدة بن الخصيب الأسلمى وغيرهما * وروى الطبرانى فى معجمه من حديث ابراهيم بن عبيد بن رفاعة الزرقى عن عبد الله بن عمر رضى

---

(١) كذا فى الاصل « بذكر ابنه فحزن عليه »

الله عنهما « أن رجلا من الانصار كان له ابن يروح اذاراح الى النبى ﷺ فسأله عنه ، فقال : أتحبه ؟ فقال : يانبى الله نعم ، أحبك الله كما أحبه . فقال : ان الله أشد لى حباً منك له . فلم يلبث أن مات ابنه ذاك فراح الى نبى الله وقد أقبل بثه ، فقال له نبى الله : أجزعت ؟ قال : نعم ! قال : أوما ترضى أن يكون ابنك مع ابنى ابراهيم يلاعبه تحت ظل العرش . قال : بلى يا رسول الله » هذا حديث غريب * وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يتعاهد الانصار ويعودهم ويسأل عنهم فبلغه أن امرأة من الانصار مات ابن لها فجزعت عليه فاتاها فامرها ﷺ بتقوى الله عز وجل والصبر ، فقالت : يارسول الله انى امرأة رقوب لا ألد ولم يكن لى ولد غيره . فقال رسول الله ﷺ : الرقوب التى يبقى ولدها ، ثم قال : « مامن امرىء مسلم ولا امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة من الولد الا أدخلها الله عز وجل الجنة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : بابى أنت وأمى يارسول الله واثنان قال واثنان » ورواه البزار فى مسنده ولفظه . فقالت : يارسول الله كيف لا أجزع وأنا رقوب لا يعيش لى ولد . فقال : انما الرقوب التى يعيش ولدها . وذكر تمام الحديث * ورواه أحمد من حديث معاذ بن جبل وفيه . قال : واثنان . قال : واثنان ، قالوا : وواحد . قال : وواحد * وقد تقدم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : « ما لعبدى المؤمن جزاء اذا قبضت صفيه من المال والولد فصبر الا أن أدخله الجنة » رواه ابن عساكر واسناده فيه ابن لهيعة والكلام فيه معروف * وروى أيضا من حديث المنهال بن خليفة عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من أهل الاساطين معروفا بذلك ففقده النبى ﷺ . فقال : ما فعل فلان . فقالوا : ابنه شكى وهو يمرضه فارسل اليه رسول الله ﷺ يسأله عن ابنه فوجده قد مضى وجاء الرجل مع رسول

رسول الله ﷺ الى رسول الله ﷺ فقال له : رسول الله ﷺ ماحبسك عنا ؟ قال : انى كنت أمرضه حتى مضى . فقال : رسول الله ﷺ أتحبه ؟ قال : نعم قال : أجزعت عليه . قال : نعم شديداً ، قال : فما يسرك أن يكون باركا على باب من أبواب الجنة ، يقول يا أبه أنا ذا فأتنى . قال : بلى يانبى الله . فقال : المسلمون عند ذلك : يارسول الله فمن أصابه منا مصيبة كان ذلك له . قال : نعم اذا صبر واحتسب *
وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الامراض والكفارات عن محمد بن خالد بن السلمى عن أبيه عن جده وكانت لجده صحبة . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اذا سبقت للعبد من الله عز وجل منزلة لم يبلغها بعمله ابتلاه الله فى جسده أو فى ولده أو فى ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل » وروى أيضا باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » ورواه الترمذى ومالك فى الموطأ . وعن أنس بن مالك . قال قال رسول الله ﷺ : « اذا وجهت الى عبدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا » رواه ابن عدى فى الكامل *

﴿ فصل ﴾

قال ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن الحسين ثنا داود بن المحبر ثنا سوادة بن الاسود قال سمعت أبا خليفة العبدى . قال : مات ابن لى صغير فوجدت عليه وجداً شديداً وارتفع عنى النوم ، فوالله انى لذات ليلة فى بيتى على سريرى وليس فى البيت أحد غيرى وانى لمفكر فى ابنى ، اذ نادانى مناد من ناحية البيت : السلام عليكم ورحمة الله يا أبا خليفة . فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله . قال : ـ ورعبت رعباً شديداً ـ . قال : فتعوذ ثم قرأ آيات من آخر سورة آل عمران حتى انتهى

الى هذه الآية (وما عند الله خير للأبرار) . قال : يا أبا خليفة . قلت : لبيك
قال : ماذا تريد ؟ تريد أن تخص بالحياة فى ولدك دون الناس أنت أكرم على الله
أم محمد ﷺ وقد مات ابنه ابراهيم . وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا
نقول مايسخط الرب » أم ماذا تريد ؟ تريد أن يرتفع الموت عن ولدك وقد كتب
على جميع الخلق أم ماذا تريد ؟ تريد أن تسخط الله فى تدبير خلقه والله لولا الموت
ماوسعتهم الارض ، ولولا التأسى ماانتفع المخلوقون بعيش . ثم قال : ألك حاجة ؟
قلت : من أنت رحمك الله . قال : امرءٌ من جيرانك من الجن * قال الحافظ
أبو نعيم حدثنا سليمان بن أحمد ثنا محمد بن عبدوس ثنا أبوهاشم ثنا محمد بن كاسه .
قال : لما مات ذر (بن) عمر بن ذر كان موته فجأة ، أتاه أهل بيته يبكونه فقال :
مالكم إنا والله ما ظلمنا ولا قهرنا ولا ذهب لنا بحق ولا أخطئ بنا ولا أريد غيرنا
ومالنا على الله معتب . فلما وضعه أبوه فى قبره . قال : رحمك الله يابنى لقد كنت بى
باراً ولقد كنت عليك حدباً ومابى اليك من وحشة ولا الى أحد بعد الله فاقه ولا
ذهبت لنا بعز ولا أبقيت علينا من ذل ، ولقد شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك
ياذر . لولا هول المطلع ومحشره لتمنيت ما صرت اليه . فليت شعرى ياذر ماذا قيل
لك وماذا قلت . ثم قال : « اللهم وعدتنى الثواب بالصبر على ذر ، اللهم فعلى ذر
صلواتك ورحمتك ، اللهم انى قد وهبت ما جعلت لى من أجر على ذر صلة منى
فلا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه فانك أرحم به منى ، اللهم انى قد وهبت إساءته الى
فهب له إساءته اليك فانك أجود منى وأكرم » فلما ذهب لينصرف . قال : انصرفنا
وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك وروواها من وجه : أن ذر لما مات قال أصحابه : الآن
يضيع الشيخ - يعنى - والده فانه كان باراً به فسمعها الشيخ فبقى متعجباً ثم التفت
اليهم وقال : أضيع والله حى لايموت ، ثم سكت حتى دفن . فلما واروه فى التراب
وقف على قبره ليسمعهم . فقال : رحمك الله ياذر ما علينا بعدك من خصاصة ومابنا

الى أحد مع الله حاجة وما يسرنى أن أكون المقدم قبلك ولولا هول المطلع لتمنيت أن أكون مكانك ، ثم رفع رأسه وقال : اللهم قد وهبت حقى فيما بينى وبينه له اللهم فهب حقك فيما بينك وبينه له . وساق نحواً من القصة الاولى فبقى القوم متعجبين مما جاء منهم ومما جاء منه من الرضا والتسليم * وعن الحسن البصرى رحمه الله : أن رجلا جزع على ولده وشكى ذلك الى الحسن . فقال له : كان ابنك يغيب عنك . قال : نعم ! كانت غيبته أكثر من حضوره . قال : فانزله غائباً فانه لم يغب عنك غيبة خير لك فيها نفعاً أعظم من هذه . قال : يا أبا سعيد هونت على وجدى على ابنى * وعن سلمة .قال : لما مات ابن عمر بن عبد العزيز كشف أبوه عن وجهه وقال : رحمك الله يابنى فقد سررت بك يوم بشرت بك، ولقد عمرت مسروراً بك ، وما أتت على ساعة أنا فيها أسر من ساعتى هذه أما والله ان كنت لتدعو أباك الى الجنة * وقال أبو الفرج بن الجوزى . قال : أبو الوفاء ابن عقيل مات ولدى عقيل وكان قد تفقه وناظر وجمع أدباً حسناً فتعزيت بقصة عمرو بن عبدود الذى قتله على بن أبى طالب . فقالت أمه ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... مازلت أبكى عليه دائم الأبد
لكنّ قاتله من لايقاد به ... من كان يدعى أبوه بيضة البلد

فاسلاها وعزاها جلالة القاتل . فنظرت الى أن قاتل ولدى الحكيم المالك . فهان القتل والمقتول لجلالة القاتل وعظمه *

﴿ فصل ﴾

وهذه الاحاديث والآثار أكثر ورودها فى الولد الذى لم يبلغ الحنث ، ولكن الولد الصالح البالغ أشد مصيبة على والديه وأكثر حزنا وجزعاً منهما على الولد الصغير خصوصاً اذا كان قد برز فى العلم أو له بر واحسان الى والديه وأقاربه وأصحابه، أوله صفات جميلة وأفعال حميدة . وأين يقع الولد الصغير موقع الكبير فى النفع

لوالديه ولغيرهما اذا كان متصفاً بما ذكر، فهل يستريب عاقل ان الحزن عليه أشد، فكذلك أجره وثوابه أعظم وأكثر. فان قيل: البالغ قد جرى عليه القلم وهو من المكلفين فنهايته يخلص نفسه يعتقها أو يوبقها. قيل: الجزاء على الكبير انما يحصل على الصبر على المصيبة والاسترجاع والحمد له بل هو داخل فى قول النبى ﷺ ادخل الجنة ثواب ما قد أخذ منك * وروى ابن منده من حديث ابن لهيعة عن عن عبد الله بن هبيرة النسائى عن حسان بن كريب: أن غلاماً منهم توفى بحمص فوجد عليه أبوه، فقال له حوشب صاحب رسول الله ﷺ: ألا أخبرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: فى مثل ابنك أن رجلا من الصحابة كان له ابن قد أدرك. وكان يأتى مع أبيه الى رسول الله ﷺ ثم توفى فوجد عليه قريباً من ستة أيام الحديث وهذا الحديث ذكر فيه انه أدرك وذكر فيه دخول الجنة ثواب ما أخذ منه. وقد تقدم من رواية الامام أحمد لكن لم يذكر فى روايته أنه أدرك * وقد روى الحافظ أبو القاسم بن عساكر باسناده عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله. قال قال رسول الله ﷺ: « من مات له ابن أو ولد سلم أو لم يسلم رضى أو لم يرض لم يكن له ثواب دون الجنة » وفى لفظ آخر: « من مات له ابن صبر أو لم يصبر احتسب أو لم يحتسب لم يكن له ثواب الا الجنة » وقد روى ابن عساكر هذا الحديث بعدة طرق وان كان قد تكلم فى بعضها أو فى أكثرها ففيها بشارة عظيمة لأكثر الناس فى زماننا هذا لأن بموت الولد فى غالب أهل زماننا يحصل لوالديه جزع وهلع وعدم تصبر، وماذاك الا لقلة الزواجر الشرعية. فان الوعد والوعيد يحصل للعبد به تسلية عظيمة فنسأل الله تعالى أن لا يمتحنا وان امتحنا أن يثبتنا

وقال أبو القاسم بن عساكر: أخبرنا أبو العز أحمد بن عبد الله العكبرى ببغداد أنبا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى أنبا أبو الحسن على بن محمد الوراق أنبا أبو حفص عمر بن أيوب السقطى ثنا أبو الوليد بشر بن الوليد القاضى ثنا الفرج بن

فضالة ثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة . قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال : « انى رأيت البارحة عجباً رأيت رجلا من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجـلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائـكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من امتى يلتهب عطشاً كلما دنا من حوض منع منه وطرد فجاءه صيامه شهر رمضان فاسقاه وأرواه ، ورأيت رجـلا من أمتى ورأيت النبيين حلقاً حلقاً كلما دنا الى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فاخذ بيده فاقعده الى جنبي ، ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلامن أمتى يتقى بيده ووجهه وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه . فقالت : يامعشر المؤمنين انه كان وصولا لرحمه فـكلموه فـكلمه المؤمنين وصافحوه وصارفيهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائـكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله عز وجل حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائم على شفير جهنم فجاءه رجاءه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى قد هوى فى النار

فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك، ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن رعدته ومضى، ورأيت رجلا من أمتى يزحف على الصراط ويحبو أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته صلاته على فانقذته وأقامته على قدميه ، ورأيت رجلا من أمتى انتهى الى أبواب الجنة فغلقت الابواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة وأدخلته الجنة »

هذا الحديث قد ذكر جماعة من الحفاظ أن لوائح الصحة ظاهرة عليه ، وان القلب يركن الى متنه ، وقد أومأت اليه فيما تقدم وبكل حال فى هذا الحديث بشارة عظيمة للأمة عامة ، وفيه تطييب خاطر الوالدين على الاطفال خاصة ، سواء كان الطفل ولد قبل اسلام والده أو بعده فانه ﷺ ، قال : « رأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه » ويؤيد ذلك ماثبت ان النبى ﷺ قال : كل مولود يولد على الفطرة . قال تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها). فالولدان الذين يتوفون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد هم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه ولا خير قدموه بل برحمة الله لهم ومنته عليهم . بل أعظم من هذا أنهم يشفعون فى آبائهم ولهذا يكونون فى البرزخ فى كفالة أبيهم ابراهيم الخليل عليه السلام كما ثبت فى الصحيح فى حديث المنام الطويل من حديث سمرة ابن جندب ان النبى ﷺ انه جاءه جبريل وميكائيل فانطلقا به فأراه عجائب . وفيه والشيخ فى أصل الشجرة ابراهيم والصبيان حوله أولاد الناس . وفى لفظ البخارى والولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله وأولاد المشركين ، قال : وأولاد المشركين ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية وفطرة الله أضافها اليه إضافة مدح لا اضافة ذم فعلم انها فطرة محمودة لا مذمومة يبين ذلك (فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس) ولهذا نصب على المصدر الذى دل

عليه الفعل الاول عند سيبويه وأصحابه، فدل على ان اقامة الوجه للدين حنيفا هو فطرة الله التى فطر الناس عليها كما فى نظائره مثل قوله تعالى : (كتاب الله عليكم وسنة الله التى قد خلت) فهو عندهم مصدر منصوب بفعل مضمر لازم إضماره دل عليه الفعل المتقدم كأنه قال : كتب الله عليكم ذلك وسن الله ذلك لكم انتهى كلامه .

وقد تكلمنا على الاطفال وأشبعنا الكلام فيهم فى كتاب مفرد فمن رام كشفه فليطلبه ، ولكن لا يليق التطويل بما ليس نحن بصدده با كثر من هذا ، فهذا تنبيه على الاطفال أنهم ولدوا على الفطرة ، وقد ذكرنا فى الفطرة نحواً من عشرة أقوال فى المصنف المشار اليه والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

فى التأسى ببعض ما كان يفعله الصحابة والتابعون اذا نزلت بهم المصائب، فقد ثبت فى صحيح البخارى عن أنس . قال : اشتكى ابن لابى طلحة قال : فمات وأبوه أبو طلحة خارج ، فلما رأت امرأته انه قد مات هيأت شيئاً وجعلت ابنها فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة ، قال : كيف الغلام؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح ، وظن أبو طلحة انها صادقة قال : فبات ، فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته انه قد مات ، فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبره بما كان منها فقال رسول الله ﷺ : لعل الله أن يبارك لهما فى ليلتهما ، فقال رجل من الانصار : فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن . وفى لفظ انها قالت لاهلها لما مات ولدها لا يكلم لابى طلحة احد قبلى ، فلما دخل سأل عن الصبى . فقالت : انه قد هدأ مما كان ، وقدّمت له طعاماً فأكل ثم تصنعت له حتى واقعها ، ثم قالت : يا ابا طلحة أرأيت قوماً أودعوا قوما وديعة ثم طلبوها منهم أفما يجب أن يؤدوها اليهم ؟ قال : بلى .قالت : فاحتسب ابنك . فغضب لما صنعت به ، فلما كان الصباح ذهب

الى رسول الله ﷺ يشكوها اليه فتبسم رسول الله ﷺ . وقال: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما » فجاءت بغلام حنكه رسول الله ﷺ وسماه عبد الله ، وهو الذى كان من سلالتـه الاخوة القراء والأول هو أبو عميرة الذى كان رسول الله ﷺ يداعبه ويقول له : ياعمير ما فعل النغير أى ما فعل عصفورك ، فهذه امرأة قـد تصبرت ورضيت وتثبتت واحتسبت فاخلف الله لها خيراً من الذى أصيبت به ، فاذا نظر من أصيب بمصيبة الى امرأة قد فعلت عند المصيبة أمراً لا يكون الا عند السرور والافراح فليتأسى الشخص وليتعلم أوصاف السابقين الأولين ويعـلم أن الرجال أولى بهذا الصنيع والصبر من النساء ، ولم تصب امرأة فى الوجود بما أصيبت به فاطمة رضى الله عنها التى هى سيدة نساء أهل الجنة ، فانها أصيبت بموت أبيها رسول الله ﷺ ولم تقل فى هذه الحال العظيمة الا قولا صـدقا محفوظا عنها فانها قالت : يا أبتاه من ربه ما أدناه ، يا أبتاه الى جبريل أنعاه ، يا أبتاه أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، فالذى ينبغى لنا التأسى بسادات المسلمين من الرجال والنساء ، مات لرجل من السلف ولد ، فعزاه سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد ، وآخرون ، وهو فى حزن شديد حتى جاءه الفضيل بن عياض . فقال : ياهـذا أرأيت لو كنت فى سجن وابنك فافرج عن ابنك قبلك أما كنت تفرح ؟ قال : بلى ! قال : فان ابنـك خرج من سجن الدنيا قبلك . قال : فسرى عن الرجل ، وقال : تعزيت . رواه الحافظ ابن عساكر وقال مالك انه بلغه عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مايزال المؤمن يصاب فى ولده وخاصته حتى يلقى الله وليست عليـه خطيئة » وقد تقدم ما رواه الامام أحمد والترمذى من حديث أبى موسى الاشعرى . والمقصود أن من سمع بهـذا الحديث وكان قد أصيب بمصيبة حصل له تسلية . ومن التأسى بمن أصيب فى نفسه فصبر وعزى نفسه وتـكلم بما حفظ عنه ، لما حضرت معاوية الوفاة قال : اقعدونى فاقعدوه

فجعل يذكر الله ويسبحه ، ثم قال : الآن تذكر ربك يامعاوية بعد الانحطام والانهزام ، الا كان ذلك وغصن الشباب ريان ، و بكى حتى علا بكاؤه ثم قال منشداً :

هو الموت لا منجا من الموت والذى أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال : اللهم يارب ارحم الشيخ العاصى والقلب القاسى ، اللهم اقل العثرة واغفر الزلة ، وجد بحلمك على من لا يرج غيرك ولا يثق باحد سواك ، ثم قال لابنه : يابنى اذا وافانى أجلى فاعمد الى المنديل الذى فى الخزانة فان فيها ثوبا من أثواب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره ، فاجعل الثوب ممايلى جسدى ، واجعل أكفانى فوقه ، واجعل القراضة فى فمى وأنفى وعينى ، فان نفعنى شىء فهذا ، فاذا وضعتمونى فى قبرى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين . ولما حضرت أبا هريرة رضى الله عنه الوفاة بكى . فقيل له : مايبكيك ؟ فقال: يبكينى بعد السفر وقلة الزاد وضعف اليقين والعقبة الكؤود التى المهبط منها اما الى الجنة واما الى النار . ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة قال . اجلسونى فأجلسوه . فقال : اللهم أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، فان غفرت فقدمننت ، وان عاقبت فماظلمت ، لا إله الا أنت . وقال سليمان التيمى : دخلت على بعض أصحابنا وهو فى النزع ، فرأيت من جزعه ما ساءنى ، فقلت له : هذا الجزع كله لماذا وقد كنت بحمد الله على حالة صالحة ؟ فقال : ومالى لا أجزع ومن أحق منى بالجزع ، والله لو أتتنى المغفرة من الله عز وجل لاهمنى الحياء منه مما أفضيت به اليه . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة جعل يقول : والله لوددت انى عبد لرجل من تهامة ارعى غنيمات فى جبالها ولم ألى . وذكر محمد الطائى الهمذانى فى ارشاد السائرين الى منازل المتقين ذكر باسناده الى المزنى قال : دخلت على الشافعى رحمه الله فى مرضه الذى مات فيه فقلت : كيف أصبحت قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولاخوانى مفارقا ، ولسوء فعلى ملاقياً ، وبكأس المنية شاربا ، وعلى الله عز وجل وارداً ،

فو الله ما أدرى أروحى تسير الى الجنة فاهنيها، أم الى النار فاعزيها . ثم بكى وأنشد :

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلما

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

فلولاك لم يقوى بابليس عالم ... وكيف وقد أغوى ضعيفك آدما

وقال بعض الصالحين لخادمه وقد حضرته الوفاة : ياغلام شد كتافى وعفر خدى فى التراب ، ففعل الغلام به ذلك . ثم قال : دنا الرحيل ، ثم قال : اللهم لا براءة لى من ذنب ، ولا عذر أعتذر به ، ولا قوة فأنتصر بها ، ثم قال : أنت لى ، أنت لى ، ثم صاح صيحة فمات ، فسمعوا صوتا يقول : اشتكى العبد لمولاه فقبله *

﴿ فصل ﴾

ومن المطالب العالية والبشارات الهائلة لمن أصيب بمصيبة

وقد تقدم غالبه ثم نذكر من لم يقدم من ولده شيئاً

قال الامام أحمد ثنا بهز ثنا حماد بن سلمة ثنا يعلى بن عطاء عن شيخ من أهل دمشق عن أبى أمامه قال قال رسول الله ﷺ : « خمس بخ بخ سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، والولد الصالح يموت للرجل فيحتسبه » وقد روى هذا الحديث بعدة طرق عن سفينة مولى رسول الله ﷺ عن الحشحاش العنبرى وهو صحابى بنحو من هذا . لكن لفظ بخ بخ لخمس ما أثقلهن فى الميزان ، ورواه ابن سعد فى الطبقات من حديث سلام الاسود ولفظه كما تقدم ، وفيه والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه . ورواه ابن أبى عاصم * وقال أبو القاسم ابن عساكر : قرأت على أبى محمد عبدالكريم بن حمزة السلمى عن أبى بكر احمد بن على الحافظ انبأ الحسن بن أبى بكر انبأ ابوالحسين احمد بن عثمان ثنا ابن أبى العوام ثنا ابى ثنا اسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل حدثنى ابى عن ابيه كهيل عن هانئ

ابن بنت الحضرمى ثنا عبد الله بن عباس ، قال : توفى ابن لصفية ابنة عبد المطلب فبكت عليه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبكين ياعمة من توفى له ولد فى الاسلام كان له بيت فى الجنة » فسكتت * وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ . قال : « يقول الله عز وجل مالعبدى المؤمن عندى جزاء اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة » . وقال الترمذى فى جامعه حدثنا نصر بن على الجهضمى وأبو الخطاب زياد بن يحيي البصرى . قالا ثنا عبد ربه بن بارق قال سمعت جدى أبا سماك بن الوليد يحدث انه سمع عبدالله بن عباس رضى الله عنهما انه سمع رسول الله ﷺ . يقول : « من كان له فرطان من أمتى أدخله الله بهما الجنة . فقالت عائشة رضى الله عنها : فمن كان له فرط من أمتك . قال : ومن كان له فرط ياموفقه . قالت : فمن لم يكن له فرط من أمتك . قال : فانا فرط أمتى لن يصابوا بمثلى » . قال الترمذى هذا حديث غريب لانعرفه الا من حديث عبد ربه بن بارق * وقد روى عنه غير واحد من الأئمة . قال الحافظ الضياء : عبد ربه بن بارق تكلم فيه يحيي بن معين . وقال الامام أحمد : مابه بأس * وقد روينا فى جزء ابن عرفة مرفوعا الموت كفارة لكل مسلم * والمقصود ان من لم يصب فى أولاده أو لم يكن له أولاد فالنبى ﷺ فرطه ، لكن أهل المصائب أيضاً يشاركونهم فى النبى ﷺ فيحصل لهم أجر من جهتين ، وقد يحصل للشخص أجر من جهات عديدة من موت وحريق ونهب وغير ذلك مما يكفر الله به السيئات ويرفع به الدرجات

﴿ الباب السابع ﴾

(فى ذكر السقط وثوابه وزيارة القبور)

قال الامام أحمد : حدثنا عفان ثنا خالد الطحان ثنا يحيى التيمى عن عبد الله ابن مسلم عن معاذ رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ان السقط ليجر أمه بسرره الى الجنة اذا احتسبته » . ورواه ابن ماجه أيضاً والدارمى من حديث يحيى بن عبد الله التيمى به * وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « ان السقط ليراغم ربه عز وجل اذا أدخل أبويه النار فيقال أيها السقط المراغم ربه أدخل أبويك الجنة » رواه ابن ماجه * وروى ابن ماجه أيضاً من حديث يزيد بن رومان عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « لسقط أقدمه بين يدى أحب الى من فارس أخلفه خلفى » . ورواه عبد الله بن الامام أحمد * وعن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « اذا كان يوم القيامة نودى فى أطفال المسلمين أن اخرجوا من قبوركم ، فيخرجون من قبورهم ثم ينادى أن امضوا الى الجنة زمراً . فيقولون : ربنا ووالدانا معنا ، فينادى فيهم الثانية أن امضوا الى الجنة زمراً . فيقولون : يا ربنا ووالدانا معنا . قال : فيتبسم الرب جل وعلا فى الرابعة فيقول ووالداكم معكم فيثب كل طفل الى أبويه فيأخذون بايديهم فيدخلونهم الجنة ، لهم أعرف بآبائهم وأمهاتهم يومئذ من أولادكم الذين فى بيوتكم » . رواه ابن شاهين والحافظ بن عساكر فى ذكر ثواب السقط * وروى عن عبد الرحمن بن أبى حاتم ثنا محمد بن الوزير ثنا خلاد بن منصور الواسطى ثنا داود بن أبى هند . قال : رأيت فى المنام كأن القيامة قد قامت وكأن الناس يدعون الى الحساب . قال : فقربت الى الميزان فوضعت

حسناتي فى كفة وسيآتى فى كفة فرجحت السيئات على الحسنات ، فبينا أنا كذلك مغموم إذ أتيت بشئ كالمنديل أو كالخرقة البيضاء فوضعت مع حسناتى فرجحت على السيآت فقيل: تدرى ماهذه ؟ قلت : لاقال: سقط كان لك.قلت. فانه قد مات لى صبية ابنة لى . فقيل لى تيك ليست لك لأنك كنت تتمنى موتها * وروى يزيد بن أبى مريم عن أبيه عن سهل بن الحنظلية الانصارى ـ وكان ممن بايع تحت الشجرة ـ وكان لا يولد له . انه قال : لأن يولد لى ولو سقط فاحتسبه أحب الى من الدنيا جميعاً *

﴿ فصل ﴾

(فى زيارة القبور)

زيارتها مستحبة وهى تذكر الآخرة وتفرح الموتى ، بما يحصل لهم من الاحياء من قراءة واستغفار ودعاء وصدقة ونحو ذلك فزيارة القبور فيها نفع للاحياء والاموات فالحى يذكر الآخرة والموت الذى ما ذكر فى قليل من متاع الآخرة الا كثره ولا فى كثير من متاع الدنيا الا قلله ، ويقرأ على نفسه آيات الصبر وقصر الأمل مثل قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق الآية) وقوله تعالى : (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لاترجعون) . وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كن فى الدنيا كانك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر يقول : « اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح واذا أصبحت فلاتنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» . فاذا تذكر ذلك حصل له الخشوع والاقلاع وتذكر من سلف من الأهل والاقارب . هذا فى الزيارة النافعة لاكما يفعل فى زماننا هذا من البدع فى الزيارة يوم الخميس والسبت فتتزين النساء ويتبهرجن ويجلسن على القبور وقد نهى فى سنن أبى داود من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال :

« لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص الى جلده خير له من أن يجلس على قبر » . وقال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها » لكن اختلف العلماء فى الجلوس ما هو؟ فأكثر العلماء على انه الجلوس المعروف . وقال : مالك هو التغوط عليها * وروى فى الموطأ : أن علياً كان يتوسد القبور ويضطجع عليها ، وأن ابن عمر كان يجلس على القبور ، وأن عثمان بن حكيم قال : أخذ خارجة بن زيد بيدى فاجلسنى على قبر ، وأخبرنى عن عمه يزيد بن ثابت انه قال : انما كره ذلك لمن أحدث عليها

والمقصود أن النساء يخرجن الى المقابر وتحضر الشباب الفسقة فيجلسون على سكك المقابر ، ويختلطون بهم فى الغالب وربما تصعد السوقة بملاذ المأكل وغيرها للبيع والشراء وربما تحدثوا بما لا يليق . فهؤلاء قبحهم الله تعالى وأبعدهم عن بابه وختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم لأنهم يشاهدون منازل الآخرة - يعنى المقابر - وهم معرضون عما يراد بهم . وقد نص الامام أحمد رحمه الله : على أن الموتى يتأذون بفعل المعصية عندهم . وفى زماننا هذا نفعل المعاصى فى الترب فيحصل للموتى الأذى بذلك ، كما نص أحمد على ذلك لأنهم رحمهم الله تعالى قد تيقنوا شؤم عاقبة الذنب ، وعاينوا عين اليقين نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة . ونص الامام أحمد : على أن الزيارة للقبور يوم الجمعة قبل طلوع الشمس فان الاموات يرون زائرهم .

وقال الغزالى فى أحياء علوم الدين : الزيارة تكون يوم الجمعة ويوم السبت قبل طلوع الشمس . ويستحب الاكثار من ذكر الموت كما ثبت فى الترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » . - يعنى الموت - ويستحب للشخص اذا دخل المقابر أن يسلم على أهل المقابر ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها . قالت : كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل الى البقيع . فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين . أتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » . وفى مسلم أيضاً من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ، فكان قائلهم . يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج الى المقبرة . فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » الحديث * وروى الامام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقبور المدينة فاقبل عليهم بوجهه . فقال : « السلام عليكم أهل القبور يغفر الله لنا ولكم أنتم سلفنا ونحن بالأثر » ورواه الترمذى وهذا لفظه . وقال حديث حسن غريب . ورواه ابن ماجه من حديث عائشة رضى الله عنها ولفظه : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنا فرط وانا بكم لاحقون اللهم لاتحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث فامسكوا ما بدا لكم ، ونهيتكم عن النبيذ إلا فى سقاء فاشربوا فى الاسقية كلها ولا تشربوا مسكراً » . رواه مسلم * وللامام أحمد والنسائى : « ونهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا يقول هجراً » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استأذنت ربى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى واستأذنته أن أزور قبرها فاذن لى » . رواه مسلم * وفى لفظ له : زار قبرها فبكى وأبكى من حوله . فقال : « استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فاذن لى فزوروا القبور فانها تذكر الموت » . وعن على رضى الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم

الآخرة ». رواه الامام أحمد ، ورواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود ، وفيه « فزوروها فانها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة » ورواه أحمد أيضا من حديث أبى سعيد مرفوعا وفيه : « فزوروها فان فيها عبرة ». وفيه دليل لمن جوز زيارة القبور للنساء

وللعلماء فيها ثلاثة أقوال (أحدها) تحريمها عليهن ، لحديث « لعن الله زوارات القبور » (الثانى) يكره (والثالث) يباح لما تقدم . فالنساء لايدخلن فى خطاب الرجال على الصحيح عند الاصوليين * وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ألا أحدثكم عن رسول الله ﷺ وعنى قلنا : بلى . قالت : لما كانت ليلتى التى كان رسول الله ﷺ فيها عندى ، وضع رداءه وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه وبسط طرف أزاره على فراشه فاضطجع ، فلم يلبث الا ريثما ظن أن قد رقدت . فاخذ رداءه رويداً وانتعل رويداً وفتح الباب فخرج ثم أجافه رويداً وجعلت درعى فى رأسى واختمرت وتقنعت أزارى ثم انطلقت على اثره حتى أتى البقيع ، فقام فاطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ، ثم انحرف ، فانحرفت ، فاسرع ، فاسرعت ، فهرول ، فهرولت ، فاحضر ، فاحضرت ، فسبقته فدخلت ، فليس الا أن اضطجعت فدخل . فقال : مالك ياعائش خشياً رابية . قلت : لاشئ . قال : لتخبرينى أو ليخبرنى اللطيف الخبير . قالت قلت : يارسول الله بأبى أنت وأمى فأخبرته . قال : فأنت السواد الذى رأيت أمامى ، قلت : نعم ! فلهزنى فى صدرى لهزة أوجعتنى . ثم قال : أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله . قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله ، نعم ! قال : فان جبريل أتانى حين رأيت فنادانى فاخفاه منك فاجبته فاخفيته منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشى . فقال : ان ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم . قالت : قلت كيف أقول يارسول

الله . قال قولى : « السلام على أهل الديار من المسلمين والمؤمنين يرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله للاحقون » . رواه مسلم *

﴿ الباب الثامن ﴾

(فى تطييب خاطر الوالدين على الاولاد)

قال الله تعالى : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم) . وقد ذكر البغوى فى تفسيره باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى عنهما . قال قال رسول الله ﷺ : « ان الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته وان كانوا دونه فى العمل لتقر بهم عينه . ثم قرأ النبى ﷺ والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم » . الآية . ففى هذه الآية والحديث دليل على تطييب خاطر الوالدين على أطفالهم وهذا الذى ينبغى أن يطيبوا أنفسهم ويقروا أعينهم فانهم وإن كانوا كباراً فهم من أهل التوحيد والاسلام ، وان كانوا صغاراً فهم ممن (لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) . لأنهم ماتوا على الفطرة السليمة وهم من السعداء الذين يدخلون الجنة بلا عمل عملوه ولا خير قدموه بل برحمة الله ومنته عليهم ، ولهذا يكونون فى برزخهم فى كفالة أبيهم ابراهيم الخليل عليه السلام أمام الحنفاء كما فى دعاء الميت اذا كان صغيراً واجعله فى كفالة ابراهيم . وكما ثبت فى صحيح البخارى من حديث سمرة بن جندب - وقد تقدم - عن النبى ﷺ فى حديث المنام قال فيه : « فاما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة . فقيل : يارسول الله وأولاد المشركين . قال : وأولاد المشركين » وفى رواية للبخارى أيضاً « والشيخ فى أصل الشجرة ابراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس » وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « مامن مولود يولد الا على الفطرة فابواه

يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع ، ثم يقول : أبو هريرة اقرأوا ان شئتم فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ». الحديث ، رواه البخارى ومسلم ولفظه للبخارى. وقال أبو بكر القطيعى : حدثنا بشر بن موسى ثنا ابن خليفة ثنا عون عن خنساء . قالت حدثتنى عمتى . قالت قلت : يارسول الله من فى الجنة . قال : النبى فى الجنة والشهيد فى الجنة والمولود فى الجنة والمؤدة فى الجنة ، وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف فذكر مثله . وقال الفراء : فى كتاب معانى القرآن عند قوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين) قال : على رضى الله عنه هم الولدان . قال الفراء : وهو شبيه بالصواب لأن الولدان لم يكتسبوا مايرتهنون به . وفى قوله تعالى (يتساءلون عن المجرمين) مايقوى أنهم الولدان لانهم لم يعرفوا الذنوب فلهذا يقولون : (ما سلككم فى سقر) الآية ، ولكن روى العقيلى باسناده عن على رضى الله فى قوله تعالى (الا أصحاب اليمين) قال : هم أطفال المسلمين ، فظاهر هذه الرواية التخصيص بهذه الامة والرواية الاولى عامة فى كل مولود . وقال : البغوى فى تفسيره (الا أصحاب اليمين) اختلفوا فيهم ، فعن على انهم أطفال المسلمين ، وهذا يوافق مارواه العقيلى عنه ، ولم يحك عنه خلافه ، ثم قال : وعن ابن عباس رضى الله عنهما انهم الملائكة . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على يمين آدم يوم الميثاق . وعنه أيضاً : هم الذين أعطوا كتبهم بايمانهم . وعنه أيضاً : هم الذين كانوا ميامين على أنفسهم . وقال الحسن : هم المسلمون المخلصون . وحكى القرطبى فى تفسيره فى هذه الآية الكريمة : أقوالا كثيرة ولم يذكر أنهم لا أطفال المسلمين ولا المشركين الا أنه ذكر فى آخر كلامه عن الفراء انه قال : هم الولدان لأنهم لايعرفون الذنوب . وقد حكيت قول الفراء قريباً وانه أسنده الى على رضى الله عنه لكن حكى القرطبى فى غير هذا الموضع : ان الاطفال ان ماتوا صغاراً فهم فى الجنة ، أعنى

جميع الاطفال لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه فى صورة الذر أقروا له بالربوبيـة وهو قوله تعـالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهـم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) . الآية ثم أعادهم فى صلب آدم بعد أن أقروا له بالربوبية ثم يكتب العبد فى بطن أمه شقياً أو سـعيداً على الـكتاب الأول *

﴿ فصل ﴾

(فى معنى الفطرة التى نشأ عليها كل مولود من بنى آدم من ذكر وأنثى)

قال الله تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) . الآية ، وقال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » . وقد تقـدم فى ذلك كلاماً مختصراً ولـكن نبين معنى الفطرة لغة واعراباً . قال أبو البقاء فى اعرابه : فطرة الله أى الزموا واتبعوا دين الله الذى خلق الناس عليها انتهى كلامه . وقال الطبرى فطرة الله مصـدر معنى فاقم وجهك لأن معنى ذلك فطر الله الناس على ذلك . وقال النحاس : سميت الفطرة دينا لأن الناس يخلقون له ، وفطر الناس عليها أى لها . وكذلك معنى قول الزجاج . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : فطرة الله أضافها اليـه على الوجه الممدوح ولهذا نصبت على المصدر الذى دل عليه الفعل عند سيبويه ، وقد تقدم كلامه رحمه الله قريبا . وقال أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد: الفطرة فى كلام العرب البداءة انتهى *

﴿ فصل ﴾

وقد اختلف بعض العلماء والمفسرون فى المعنى المراد بالفطرة عـلى أقوال (أحدها) إن المراد بالفطرة الاسلام قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما وهى أحدى الروايات عن الأمام احمد ولما ذكر ابن عبد البر النزاع فى هذه المسألة فى التمهيد قال وقال آخرون : الفطرة هاهنا الاسـلام . قال : وهو المعروف عند عامة السلف وأهل التأويل : ثم قال واما قوله تعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها)

فقد اجمعوا على أن قالوا دين الاسلام. وليس كما قال فان القرطبي وغيره من المفسرين ذكروا فى الآية أقوالا كثيرة. قال القرطبي : وفى معنى الفطرة أقوال متعدده منها دين الاسلام وهو المعروف عند عامة السلف ثم قال ومعنى هذا أن الطفل خلق سليما من الكفر على الميثاق الذى اخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه . وأنهم اذا ماتوا قبل أن يدركوا فهم فى الجنة اولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار . وقال النقاش فى تفسيره . وقد اختلف أهل التأويل والأخبار فى الفطرة فقيل على ملة ابراهيم ثم ذكر قريبا مما ذكره القرطبي وقد احتج من نصر هذا القول بحديث أبى هريرة مرفوعا «مامن مولود يولد الاعلى الفطرة». واستدلال أبى هريرة بالآية فى تمام الحديث وبحديث عياض بن حماد المجاشعى مرفوعا يقول «خلقت عبادى حنفاء» . وفى بعض الفاظه حنفاء مسلمين . ويؤيد هذا مافى الصحيحين خمس من الفطرة وفى صحيح مسلم عشر من الفطرة ورواه الأمام احمد وأبو داود من حديث عمار بن ياسر خمس من سنن الاسلام وفى لفظ عشر من سنن الاسلام

(الثانى) أن المراد بالفطرة البداءة التى بدأهم الله عليها من انه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة . وقد تقدم حكاية هذا القول وأنه حكاه أبو عمر ابن عبد البر

(الثالث) ليس المراد بالفطرة عموم الناس انما المراد بقوله فطر الناس ـ المؤمنون ـ اذ لو فطر الجميع على الاسلام لما كفر أحد وقد ثبت أنه خلق اقواماً للنار كقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) . الآية

(الرابع) أن المراد بالفطرة الخلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربه فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه اذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم .واحتج من قال بهذا القول بقوله تعالى : (ومالى لاعبد الذى

فطرني واليه ترجعون) وقد تقدم أن بسط هـذا الـكلام له موضع آخر وأنه في كتاب مفرد على الـكلام في أطفال المشركين . والمقصود أن الولدان يتوفون على ما فطرهم الله عليه من التوحيد والاسلام فهم من سعداء الآخرة الذين استحقوا دخول الجنة بلا عمل عملوه ولاخير قدموه ، بل برحمة الله عليهم ولطفه بهم (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

﴿ الباب التاسع ﴾

(فيمن مات له طفل رضيع انه يكمل رضاعه في الجنة)

قال الامام أحمد : ثنا اسود بن عامر ثنا اسرائيل عن جابر عن عامر عن البراء ابن عازب رضي الله عنه . قال : صلى رسـول الله ﷺ على ابنه ابراهيم ، ومات وهو ابن ستة عشر شهراً ، وقال : إن له في الجنـة من يتم رضاعه ، وهو صديق ، ورواه أبو يعلى الموصلي وجابر الجعفي ضعيف * وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة حدثنا عدي بن ثابت انه سمع البراء انه . قال : لمـا توفي ابراهيم يعني ابن النبي ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « إن له مرضعاً في الجنة » انفرد به البخاري * وانما كان كذلك لأنه مات وهو مرضع ابن سبعة عشر شهراً ، أوستة عشر ، وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل فالله تعالى أعلم بالصواب *

وفي بعض الروايات « أن ابني مات في الثدي وإن له مرضعاً في الجنة » فان كان هـذا خاصاً به عليه السلام فلا كلام ، والاصل عدم الاختصاص ، الا أن يقوم دليل عليـه ولم نجده ، وان كان عاماً في حق أولاد المؤمنين كما ذكر في بعض الآثار ولا يحضرني الآن ولـكن متنه « ان في الجنة شجرة تحمل الثدي يرتضع منها الولدان » فهي بشارة عظيمة المؤمنين في ولدانهم وفيه تطييب خاطر الوالدين والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

وقد روى المعافى بن الحسين فى كتاب أنس المنقطعين له فى الاطفال الرضع أن النبى ﷺ ، قال : « يجئ أطفال المسلمين يوم القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب بهؤلاء الى الجنة، فيقفون على أبواب الجنة ويسألون عن آبائهم وأمهاتهم . فيقال : آباؤكم وأمهاتكم ليسوا بأمثالكم لهم ذنوب وسيئات يطالبون بها فيصيحون صيحة واحدة عظيمة باكين. فيقول الله سبحانه وتعالى وهو أعلم : ياجبريل ماهذه الصيحة . فيقول : إلهى أنت أعلم بهم هؤلاء أطفال المسلمين يقولون لا ندخل الجنة حتى يدخل أباؤنا .فيقول الله عز وجل : ياجبريل تخلل الجمع وخذ آباءهم وأمهاتهم واجعلهم معهم فى الجنة »

﴿ الباب العاشر ﴾

(فى أنه يصلى على كل مولود مسلم ويدعى لوالديه)

وهذا باب عظيم لان فيه بشارة عظيمة لكل من أصيب فى أولاده ،أو فى واحد منهم لأنه أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى عليهم وأن ندعوا لوالديهم كما سنذكره إن شاء الله تعالى . وجمهور العلماء على انه يصلى على الطفل الصغير وإن كان سقطا قد نفخ فيه الروح ، وذهب بعض السلف الى انه لا يصلى على الصغير ما لم يحتلم . وسنذكر ما يدفع هذا القول ويضعفه . قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ثنا شعبة . قال ابن شهاب : يصلى على كل مولود يتوفى وان لغية[1] من أجل انه ولد على فطرة الاسلام يدعى أبواه الاسلام أو أبوه خاصة وان كانت أمه على غير دين الاسلام اذا استهل صارخاً صلى عليه ، ولا يصلى على من لم يستهل من أجل انه سقط ، وأبو هريرة كان يحدث عن رسول الله ﷺ . قال : « مامن مولود الا يولد على الفطرة » الحديث * وروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها . قالت : مات ابراهيم

---

(١) لغية : بكسر اللام وفتح الغين المعجمة أى لغير رشدة (يريد به انه من الزنا)

ابن النبي ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً فلم يصل عليه رسول الله ﷺ. في اسناده محمد بن اسحق والكلام فيه معروف وهو يعضد من قال من السلف بعدم الصلاة على الاطفال . لكن الحديث فيه كلام * وقد روى أبو داود أيضاً ضد هذه الرواية من حديث البُهى. قال : لما مات ابراهيم ابن النبي ﷺ ، صلى عليه رسول الله ﷺ في المقاعد ، هذا مرسل . - والبهى هذا - اسمه عبد الله بن بشار مولى مصعب بن الزبير تابعى يعد من الكوفيين * وقد تقدم ما رواه الامام أحمد من حديث البراء ابن عازب رضى الله عنه أن النبي ﷺ صلى على ابنه ابراهيم الحديث * وقال الامام أحمد أيضا : حدثنا هاشم بن القاسم ثنا المبارك أخبرنى زياد بن خير عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ . قال : « الراكب خلف الجنازة والماشى أمامها قريبا منها عن يمينها أو عن يسارها ، والسقط يصلى عليه و يدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة » ورواه أبو داود والنسائي والترمذي . وقال : حسن صحيح . ورواه ابن ماجه مرفوعا ولفظه . قال : « الراكب يسير خلف الجنازة والماشى يمشى خلفها وأمامها وعن يمينها وعن يسارها والطفل يصلى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة » فذكر ابن ماجه بدل السقط الطفل ، وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « صلوا على أطفالكم فانهم من أفراطكم » . وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « الطفل لا يصلى عليه ولا يورث ولا يرث حتى يستهل » رواه الترمذي من رواية اسماعيل بن مسلم المكى . قال الترمذي : هذا حديث قد اضطرب الناس فيه فروى مرفوعاً وروى موقوفا وهو أصح من المرفوع . قال الحافظ الضياء : اسماعيل بن مسلم المكى قد تكلم فيه غير واحد من الأئمة * وروى ابن ماجه عن جابر . قال قال رسول الله ﷺ : « اذا استهل الصبى صلى عليه وورث » - الاستهلال - هو رفع الصوت حين خروجه من الاحشاء والله أعلم * وهو من رواية الربيع بن يزيد وقد ضعفه

غـير واحد من الأئمة . قال الحافظ الضياء : وقيـل يصلى على الطفل اذا نفخ فيه الروح استهل أو لم يستهل . قلت : وهو ظاهر مذهب الامام أحمد انه يصلى عليه اذا نفخ فيـه الروح وهو أن يستكمل أربعة أشهر . قال الشيخ مجد الدين : وان أسقط لدون أربعة أشهر فلا يصلى عليـه لأنه ليس بميت اذا لم ينفخ فيه الروح وقال شيخ الاسلام ابن تيميه : الصلاة على السقط مالم ينفخ فيه الروح مبنية على بعثه وللعلماء فيه قولان ، فان قلنا إنه يبعث صلى عليه ، والا لم يصلى عليه والله أعلم انتهي كلامه . قال أحمد بن أبى عبدة : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل متى يجب أن يصلى على السقط ؟ قال : اذا أتى عليه أربعة أشهر لانه قد نفخ فيه الروح ولـكن حديث المغـيرة بن شعبة المتقدم الذى رواه أحمـد والنسائى والترمذى وصححه والسقط يصلى عليه . وفى رواية ابن ماجه والطفل يصلى عليه . ولم يفرق بين أن يكون له أربعة أشهر أو أقل أو أكثر ، لـكن لم أعلم أن أحداً ذهب الى الصـلاة على السقط مطلقاً الاسعيد بن المسيب وهوظاهر الحديث . لـكن السقط قيل ان السقط ليس بميت لانه ينفخ فيه الروح و يؤيد ذلك ما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح» .الحديث فاذا نفخ فيه الروح وجبت الصلاة عليه و بعث يوم القيامة * وقد اختلف الناس فى هذه الآثار فمنهم من أثبت الصلاة عليه ومنع صحة حديث عائشـة وغيره من الاحاديث كما قال الامام أحمد وغيره وهذه المراسيل مع حديث البراء يشد بعضها بعضاً . ومنهم من ضعف حديث البراء لاجل جابر الجعفى وضعف هذه المراسيل . قال : حديث ابن اسحق أصح منها . قال أبو يعلى الموصلى : حدثنا عقبة بن مكرم ثنا بشر بن أبى بكر ثنا محمد بن عبيد الله الفزارى عن عطاء عن أنس : «أن رسول الله ﷺ صلى على ابنه ابراهيم

فكبر عليه أربعاً ». وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى : حدثنا محمد بن عمر - يعنى الواقدى - قال حدثنى اسامة بن زيد الليثى عن المنذر بن عبيد عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أمه سيرين . قالت : حضرت موت ابراهيم ابن رسول الله ﷺ فلما صحت أنا وأختى ما ينهانا ، فلما مات نهانا عن الصياح وغسله الفضل بن عباس ورسول الله ﷺ كانسان ثم حمل . فرأيت رسول الله ﷺ على شفة القبر والعباس الى جنبه ، وترك فى حفرته الفضل واسامة بن زيد وأنا أبكى عند قبره ماينهانى أحد وخسفت الشمس ذلك اليوم . فقال الناس : لموت ابراهيم . فقال النبى ﷺ : « انها لاتخسف لموت أحد ولا لحياته » . ورأى رسول الله ﷺ فرجة فى اللبن فأمر بها أن تسد فقيل لرسول الله ﷺ . فقال : « أما انها لا تضر ولا تنفع ولكن تقر عين الحى وإن العبد اذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » ومات يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر . وهكذا رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت عن أبيه ثم قال : هذا حديث غريب . ثم ساقه من طرق أخرى من حديث الزبير بن بكار حدثنى محمد بن طلحة عن اسحق بن ابراهيم بن عبد الله بن حارثة عن عبد الرحمن بن حسان فذكر نحوه وفيه مدرج يوم وفاته وشهره وسنته والظاهر والله أعلم انه من كلام الواقدى . ولكن قيل : إن فى بعض طرق هذا الحديث انه صلى عليه ولكن لم أره فى هذين الطريقين فالله تعالى أعلم بذلك . وقال الحافظ : أبو يعلى الموصلى حدثنا ابراهيم الشامى ثنا حماد عن ثمامة بن عبد الله عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ : صلى على صبى أو صبية . وقال : « لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا هذا الصبى » . وقد روى أبو داود مرسلا عن عطاء بن أبى رباح أن النبى ﷺ صلى على ابنه ابراهيم وهو ابن سبعين ليلة * قال البيهقى : بعد أن ذكر مرسل البهى وقد تقدم ذكره ومرسل عطاء هذا وغيرهما من أحاديث الصلاة على الأطفال . قال : فهذه الآثار وان كانت مراسيل

فبعضها يشد بعضاً وقد أثبتوا صلاة رسول الله ﷺ على ابنه ابراهيم وذلك أولى من رواية من روى انه لم يصل . يعنى حديث عائشة المتقدم المتصل * وقد روى متصلا انه صلى عليه من حديث البراء بن عازب ، وقد تقدم لكنه حديث لا يثبت لأنه من رواية الجعد ولا يحتج بحديثه . وقال الخطابى وغيره : اختلف فى السبب الذى لأجله لم يصل . فقال بعضهم : انما ترك الصلاة على ابنه لانه قد استغنى ببنوة رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه التي هى شفاعة له كما استغنى الشهيد بشهادته عن الصلاة عليه . وقال غيره : انما لم يصل عليه لانه يوم مات ابراهيم عليه السلام كسفت الشمس فاشتغل بصلاة الكسوف عن الصلاة عليه والله أعلم . رجعنا الى كلام الخطابى ثم انه ذكر مرسل عطاء وقال هذا أولى الأمرين وان كان حديث عائشة أحسن اتصالا وقد اعتل من لم ير الصلاة على الاطفال بترك صلاة رسول الله ﷺ الصلاة على ابنه واشتغاله بنفل صلاة الكسوف والجواب والله أعلم عن ذلك : أن صلاة الكسوف كانت واجبة فى حقه لانه لولم يصلها لم نعلها نحن ، وأيضا ولو لم يقع ذلك لم نعلم كيفية صلاة الكسوف ، فصلاته كصلاة الكسوف على هذه الصفة دليل على أن الله أوحى اليه أن يشرعها لنا على هذه الصفة ، ويجب أن يبين كلما أنزل اليه من ربه لقوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) الآية *

﴿ الباب الحادى عشر ﴾

(فى استحباب اصطناع الطعام لأهل المصيبة)

وهذا الفعل من أحاسن الشريعة التى جاء بها النبى ﷺ : ان أهل الميت لا يتكلفون طبخ طعام لاحد من الناس بل أمره ﷺ للناس أن يصنعوا طعاماً لأهل الميت ويرسلونه اليهم هذا من أعظم مكارم الأخلاق والشيم ، والحمل عن

أهل الميت اعانة لهم ، وجبراً لقلوبهم ، لانهم فى شغل بمصابهم عن اصلاح طعام لأنفسهم . فكيف للناس والاهتمام بامرهم ، فاذا صنع الناس لهم الطعام المعروف وحملوه اليهم حصلت الراحة لأهل الميت من وجهين : أحدهما شغلهم بمصابهم ثم بتجهيزه وغسله وتكفينه والصلاة عليه وحمله ومواراته فى حفرته ، ثم من بعد ذلك اذا تفرغوا من هذه الامور وحصل لهم سكون ودعة فان هذه كافية لهم عن شغلهم بالناس ، الثانى عدم الخسارة فان عدمها فيها تسلية لأهل الميت ، فان فى زماننا هذا مايتوارى الميت فى حفرته حتى يخسر عليه دراهم كثيرة ، فلأن لايجتمع عليه خسارتان أولى . وقد وردت السنة بصنع الطعام لا هل الميت سواء فقد ميتهم فى السفر أو فى الحضر ، وسواء حصلت عليهم خسارة أو لم تحصل ، فقد حصلت البشارة لمن صنع لهم طعاما وحمله اليهم انه اتبع سنة رسول الله ﷺ وامتثل أمره ، فقد روى الامام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه . قال : جاء نعى جعفر رضى الله عنه حين قتل . قال النبى ﷺ : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد أتاهم ما يشغلهم » ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه . وعن اسماء بنت عميس قالت : لما اصيب جعفر رضى الله عنه رجع رسول الله ﷺ الى أهله. فقال : « إن آل جعفر قد شغلوا بشأن ميتهم فاصنعوا لهم طعاماً » رواه الامام احمد وابن ماجه وهذا لفظه . ويروى عن عبد الله بن أبى بكر أنه قال : مازالت السنة فينا حتى تركها من تركها *

﴿ الباب الثانى عشر ﴾

(فى الذبح عند القبور وكراهة صنع الطعام من أهل المصيبة)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « لاعقر فى الاسلام » رواه الأمام احمد فى حديث طويل هذا منه . وأبوداود وروى الترمذى

نحوه . وقال حديث حسن صحيح غريب * ورواه ابن حبان البستى وفى رواية عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أوشياً . أما العقر عند القبور هو الذبح عندها وهذا الفعل عندها فانه من فعل الجاهلية وهو فعل محرم على هذه الأمة . وقوله عليه الصلاة والسلام : « لاعقر فى الأسلام » . قال الخطابى هو ما كان عليه أهل الجاهلية من عقر الابل على قبور الموتى ، كانو اذا مات الشريف الجواد عقروا عند قبره ، وكانوا يقولون إن صاحب القبر كان يعقرها للاضياف يقريهم أيام حياته فيكافأ عليه بمثل صنيعه أنتهى كلامه . وقال : قوم كانوا يعقرون الابل عند القبور لتطعمها السباع والطير عند قبر الميت فيدعى مطعماً حيا وميتا . وقيل : بل كان مذهبهم أن صدى الميت يصيب من ذلك الطعام ، فجاء الاسلام فمحا ذلك كله .

وأما هذه البدعة الخبيثة فهى موجود قريب منها فى غالب قرى البر ، وهو أن الشخص اذا توفى فى بلده فان أهل القرى التى حوله يأتون لأجل العزاء فيذبحون لهم من مال الميت المنتقل الى ورثته من ايتام صغار وغيرهما ، بل قد يذبحون البقرة أو نحوها من بهيمة الانعام لايكون للايتام غيرها على ما شاهدته و بلغنى ، فنسأل الله أن يقيض لهذه البدعة من ولاة أمور المسلمين من يبطلها . حدثنا ابن هاشم ثنا الدبرى عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت عن انس رضى الله عنه أن النبى ﷺ . قال : « لااسعاد ولا عقر فى الأسلام » قد تقدم الكلام على العقر فى الاسلام ، قوله لا اسعاد فهو من اسعاد النساء فى المناحاة ، وهو أن تقوم المرأة فى المأتم وتقوم معها أخرى فيقال قد اسعدتها فهى مسعد . ويروى فى حديث آخر أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت : يارسول الله إن فلانة اسعدتنى أفأسعدها ؟ فقال : لا . ونهى عن النياحة بالاسعاد . ويقال انها مأخوذة من وضع الرجل يده على ساعد صاحبه اذا تماشيا فى حاجة . وأما صنع أهل الميت طعاماً للناس فمكروه لأن فيه زيادة على مصيبتهم ، وشغلا لهم الى شغلهم وتشبيها بصنع أهل الجاهلية ، فانهم يتكلفون طبخ الطعام كما يفعله أهل البر فى زماننا وقد

تقدم . فهذا من النياحة التى نهى عنها رسول الله ﷺ لما ثبت فى مسند الامام احمد من حديث جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه . قال : كنا نعد الاجتماع الى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة . ورواه ابن ماجه ورواه سعيد بن منصور فى سننه ولفظه : إن جريراً وفد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : هل يناح على ميتكم ؟ قال : لا . قال : فهل تجتمعون عند أهل الميت وتجعلون الطعام ؟ قال : نعم . قال : ذاك النوح * وقال الشيخ موفق الدين رحمه الله فى المغنى : وإن دعت الحاجة الى ذلك جاز فانهم ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والاماكن البعيدة ويبيت عندهم ، فلا يمكنهم الا أن يضيفوه انتهى كلامه . قلت : واذا دعت الحاجة الى صنع الطعام من أهل الميت لمن يفد من القرى ونحوها . إنما ذاك بشرط أن لا يكون من مال الايتام ، خصوصا اذا لم يكن لليتيم سوى ذلك الحيوان . فاما وفود أهل البادية على أهل الميت فى قريتهم ، فالضيافة على أهل القرية إما واجبة أو مستحبة وليست على أيتام الميت والله تعالى أعلم *

﴿ الباب الثالث عشر ﴾

(فى الثناء الحسن على الميت وذكر محاسنه والسكوت عن مساويه)

واعلم أن من أطلق الله السنة الناس فيه بالخير والثناء الحسن والذكر الصالح وغير ذلك من الاقوال الصالحة ، غلب على الظن أنه من أهل الخير وغير مستنكر اذا احب الله عبدا أن يلقى على ألسنة المسلمين الثناء الحسن عليه ، وفى قلوبهم المحبة له . قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) . وثبت أن النبى ﷺ . قال : « إن الله اذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إن الله يحب فلانا فاحبه . قال : فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء إن الله يحب فلانا

فاحبوه . قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » وذكر فى البغضاء مثل ذلك . رواه البخارى ومسلم . وقد شاهدنا فى عصرنا هذا وبلغنا عن عصر غيرنا أن اقواما من العلماء وأهل الحديث والتجار والسوقة كثر الثناء عليهم وصرفت قلوب الناس اليهم ، وحصلت الحفلة العظيمة فى جنائزهم من كثرة المشيعين لها ، وحضرها الالوف من الناس . وربما كثر الله الخلق فى تشييع هؤلاء من الجن والملائكة ، وربما سمع ضجة عظيمة من جهة السماء فى حال حضور الناس فى الجنازة ، ولقد اخبرنى شيخنا العلامة شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الخطيب المقدسى بالجامع المظفرى تغمده الله تعالى برحمته . قال لى : سمعت هذه الضجة من السماء مراراً لبعض الاموات كهيئة البشائر ثم قال : وحدثنى بها جماعة من اصحابنا أنهم سمعوا ذلك فى بعض جنائز المتهمين بالصلاح والله تعالى أعلم بذلك * وذكر قاسم بن أصبغ قال : حدثنا احمد بن زهير ثنا محمد بن يزيد الرفاعى قال : مات عمرو بن قيس الملائى فى ناحية فارس فاجتمع لجنازته من الخلق مالا يحصى كثرة ، فلما دفن نظروا فلم يروا احداً . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : مر بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » ومر بجنازة فاثنوا عليها شرا فقال نبى الله ﷺ : « وجبت » فقال عمر رضى الله عنه : فداك أبى وامى يارسول الله مر بجنازة فاثنوا عليها خيرا فقلت وجبت ، ومر بجنازة فاثنوا عليها شرا فقلت وجبت ، فقال رسول الله ﷺ : « من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار أنتم شهداء الله فى الأرض أنتم شهداء الله فى الارض ثلاثا » وفى لفظ وجبت وجبت ثلاثا . رواه البخارى ومسلم . وفى رواية للبخارى فقيل : يارسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت . قال : « شهادة القوم المؤمنين شهداء الله فى الارض » ولما مات الامام احمد بن حنبل . قال الهيثم بن خلف : دفنا احمد بن حنبل يوم الجمعة بعد العصر سنة أحدى وأربعين ومائتين

وما رأيت جمعا قط أكثر من ذلك . وقال ابن أبى صالح القنطرى : شهدت أربعين عاماً ما رأيت جمعا قط مثل هذا ثم . قال عبد الوهاب الوراق : ما بلغنا أن جمعا فى جاهلية ولا اسلام مثل الجمع فى جنازة احمد حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على الصحيح فاذا هو نحو من ألف ألف ، وأما النساء فهو من ستين ألف امرأة وكلهم يشهدون له بالصلاح والولاية ، ويرجون بالصلاة عليه البركة ، ويثنون عليه بانواع الخير رحمة الله عليه *

﴿ فصل ﴾

وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اذا رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن » وفى رواية ويحبه الناس عليه . قال العلماء : معناه هذه البشرى المعجلة له بالخير هى دليل للبشرى المؤخرة الى الآخرة لقوله تعالى (بشرا كم اليوم جنات) وهذه البشرى المعجلة دليل على رضى الله تعالى عنه ومحبته له ومحبته الى الخلق * وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « اذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان وفى لفظ فاشهدوا له بالخير » . قال الله تعالى : (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك) الآية . رواه الترمذى وقال: حديث حسن . وشهادة الناس له بعد الموت بالخير هى الشهادة التى كانوا يشهدون له بها فى حال الحياة والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

فى الكف عن ذكر مساوى الاموات

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ماقدموا) . رواه الامام أحمد والبخارى والنسائى . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا موتانا فتؤذوا أحيانا » .

رواه الامام أحمد . وعن أبي رافع أسلم مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « من غسل ميتاً فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة » . رواه الحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم * قال ابن السماك : انما سيفك بين لحييك تأكل به كل من مر عليك ، قد أذيت أهل الدور فى الدور حتى تعاطيت أهل القبور ، أما أهل القبور فما ترى لهم وقد جرى البلاء على وجوههم وأنت هاهنا تنبشهم ، ويحك ما عندك من نبشهم الا أخذ الخرق عنهم ، إذا ذكرت مساويهم فقد نبشتهم . إنه لينبغي لك أن تترك القول فى أخيك لخلال ثلاث ، أما الأولى فلعلك تذكره بأمر هو فيك ، والثانية لعلك تذكره بامر قد عافاك الله منه ، فهذا جزاؤه اذ عافاك ، اما تسمع إذ يقال ارحم أخاك واحمد الذى عافاك ، وفى أبي داود فى الادب والترمذى فى الجنائز من حديث معاوية بن هشام عن عمران بن انس المكى عن عطاء عن ابن عمر مرفوعا « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » . وقد روى أبو داود مرفوعاً : أن النبي ﷺ قال : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يفعله » وأما من جهة الاموات فقد روى ابن أبي الدنيا باسناده أن النبي ﷺ قال : « لا تذكروا موتاكم الا بخير إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ماهم فيه »

﴿ الباب الرابع عشر ﴾

فى فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد ﷺ

أعلم ان لله علينا من النعم مالا يحصيها الا الله تعالى الذى هدانا للاسلام وجعلنا من أمة خير الانام ، فان كل نبي من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين فضل بشىء ، فنبينا فضل به وزاد عليه ، وهو أول من تنشق عنه الارض ،

وأول شافع وأول مشفع ،وأول من يقرع باب الجنة، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قل قال رسول الله ﷺ : « انا أول الناس مشفع فى الجنة وأنا أكثر الانبياء تبعاً » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يأتى معي من أمتى يوم القيامة مثل السيل والليل فيحطم الناس فتقول الملائكة لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع سائر الانبياء » رواه البزار ، وعن بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الامة وأربعون من سائر الامم » رواه الترمذى * عن الطفيل بن أبى عن أبيه عن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة كنت أمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » رواه الترمذى * وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً » رواه مسلم * وعن حذيفة بن اليمانى رضى الله عنه قال : غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت ، فلما رفع قال : « إن ربى عز وجل استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ قلت : ما شئت يارب هم خلقك وعبادك ، فاستشارنى الثانية فقلت : له كذلك ثم استشارنى الثالثة فقلت : له كذلك فقال : انى لم أخزك فى أمتك و بشرنى ان أول من يدخل الجنة زمراً من أمتى سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ثم أرسل الى ربى عزوجل ادع تجب وسل تعطه. فقلت لرسوله: أومعطنى ربى عزوجل سؤلى ؟ قال ما أرسل اليك الا ليعطيك ، وقد اعطانى ربى غير فخر أنه غفر لى من ذنبى ما تقدم وتأخر وشرح صدرى ، واعطانى أن لا تجوع أمتى ولا تغلب ، وانه أعطانى الكوثر نهر فى الجنة يسيل من حوضى، وانه أعطانى العزة والنصرة والرعب وانه أعطانى بأنى أول الانبياء دخولا الى الجنة وطيب لى ولامتى الغنيمة وأحل

لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج . فلم أجـد شكراً الا هـذه السجدة » رواه أبو بكر الشافعى . وقوله ولا تجوع أمتى ـ أى لا تجوع كلها فان جاعت فى أرض شبعت فى أخرى ، وكذلك : ـ لا تغلب ـ أى كلها فان غلبت فى موضع غلبت فى موضع آخر والله أعلم *

﴿ الباب الخامس عشر ﴾

فى استحباب التعزية لاهل المصيبة والدعاء لميتهم

يقال عزى الرجل عزاء إذا صبر على ما نابه ، والتعزية التصبر وعزيته أمرته بالصبر ، والعزاء بالمد اسم أقيم مقام التعزية ذكره النواوى . وقال الازهرى : أصل التعزية التصبر لمن أصيب بمن يعزى عليه . وقال غيره : التعزية التسلية وهو أن يقال له تعزى بعزاء الله وعزاء الله قوله تعالى (والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون) الآية ومعنى قوله تعزى بعزاء الله أى تصبر بالتعزية التى عزاك الله بها كما فى كتابه . أو يقال : لك أسوة فى فلان فقـد مضى حميمه واليفه فحسن صبره . وأصل العزاء الصبر والله أعـلم . عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيـه عن جـده عن النبى ﷺ قال : « مامن مؤمن يعزى أخاه بمصيبة الا كساه الله عز وجل من حلل الـكرامة يوم القيامة » رواه ابن ماجه وصححه الشيخ وقال : رواته كلهم ثقات . وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من عزى مصاباً فله مثل أجره » رواه ابن ماجه والترمذى وقال لا نعرفه مرفوعاً الا من حـديث على بن عاصم ، وذكر أنه روى موقوفا . وعلى بن عاصم ضعف * وعن أبى برزة رضى الله عنـه قال قال رسول الله ﷺ : « من عزى ثـكلى كسى برداً فى الجنة » قال الترمذى اسناد هذا الحديث ليس

بالقوى والمقصود من التعزية تسلية أهل المصيبة وقضاء حقوقهم والتقرب اليهم بقضائها قبيل الدفن و بعده لشغلهم بمصابهم

﴿ فصل ﴾

ويستحب تعزية أهل الميت وهى مسئلة متفق عليها ، ولم أعلم أن أحداً خالف فيها الاسفيان الثورى رحمه الله قال : لاتستحب التعزية بعد الدفن لأنها خاتمة أمره ، والمعروف المستقر عند أهل العلم استحباب التعزية قبل الدفن و بعده لما تقدم من الاحاديث قريباً مثل عموم قوله عليه السلام : « من عزى مصاباً فله مثل أجره ؛ من عزى ثكلى كسى برداً فى الجنة » فكل هذه عمومات تدل على الاستحباب مطلقا .

﴿ فصل ﴾

ويستحب تعزية جميع أهل المصيبة كبارهم وصغارهم ويخص خيارهم والمنظور اليه من بينهم ليستن به غيره ، وذا الضعف منهم عن تحمل المصيبة لحاجته اليها ولا يعزى الرجل الاجنبى شواب النساء مخافة الفتنة ، ويجوز المرأة البرزة ونحوها * وثبت أن عائشة رضى الله عنها : نهت عن الضحك فى المصيبة لأن فيه إشماتا بالمسلم وكسراً لقلبه . ولهذا رأى الامام أحمد رجلا يضحك فى جنازة فهجره . وقال : أى موعظة اتعظ هذا أونحوه *

﴿ فصل ﴾

(وما يفعله غالب أهل زماننا من الجلوس عند القبر يوم الدفن للتعزية)
(وكذلك فى اليوم الثانى والثالث)

قال أبو الخطاب : يكره الجلوس للتعزية . وقال ابن عقيل : يكره الاجتماع بعد خروج الروح لأن فيه تهييجاً للحزن . وقال الامام أحمد رحمه الله : يكره التعزية عند القبر الا لمن لم يعزى فيعزى اذا دفن الميت أو قبل أن يدفن . وقال أحمد : إن

شئت أخذت بيد الرجل فى التعزية وإن شئت لم تأخذ. واذا رأى الرجل قد شق ثوبه على المصيبة عزاه ولم يترك حقاً لباطل وإن نهاه فحسن . قلت : إن كان الاجتماع فيه موعظة للمعزى بالصبر والرضاء وحصل له من الهيئة الاجتماعية تسلية بتذاكرهم آيات الصبر وأحاديث الصبر والرضاء فلا بأس بالاجتماع على هذه الصفة فان التعزية سنة سنها رسول الله ﷺ لكن على غير الصفة التي تفعل فى زماننا من الجلوس على الهيئة المعروفة اليوم لقراءة القرآن تارة عند القبر فى الغالب ، وتارة فى بيت الميت وتارة فى المجامع الكبار فهذا بدعة محدثة كرهه السلف كما تقدم . لكن فيه تسلية لهم واشغال لهم عن الحزن والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وأما قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء ففى غالب كتبهم يذكرون انه لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوبا يعرف به و بعض أصحابنا المقادسة يرخى عذبة من غير عادة . قالوا : لأن التعزية سنة وفى ذلك تيسير لمعرفته حال التعزية. وأنكر هذا الفعل شيخ الاسلام ابن تيمية وقال : لا ريب ان السلف لم يكونوا يفعلون شيئا من ذلك ، ولا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين . وثم آثار صريحة تأتى فيما بعد إن شاء الله تعالى تقوى هذا القول . وقد كره اسحاق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وقد ذكر الشيخ موفق الدين وغيره من أصحابنا فى غالب الكتب : أن التعزية تجوز قبل الدفن وبعده ، وانه يقول فى تعزية المسلم بالمسلم : أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ورحم ميتك ، وفى تعزيته بكافر أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك ، وتوقف أحمد رحمه الله عن تعزية أهل الذمة وهى تخرج على عيادتهم فى أمراضهم وفيها روايتان (احداهما) يعودهم لأنه روى أن غلاماً من اليهود كان

يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه . فقال له : إسلم ، فنظر الى أبيه وهو عندرأسه . فقال : أطع أباك أبا القاسم فاسلم ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذنى من النار » رواه البخارى ، ولكن الحكمة فى العيادة منتفية فى التعزية وهو رجاء اسلامه والله تعالى أعلم * والرواية الثانية لايجوز لان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبدؤوهم بالسلام » قال (. . . .) بجواز تعزيتهم عن مسلم يقال له : أحسن الله عزاءك وغفر لميتك * وعن كافر أخلف الله عليك ولا نقص عددك . ويقصد زيادة عددهم لتكثر جزيتهم . وقال أبو عبد الله بن بطة : لا بأس أن يقول فى تعزية الكافر أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحد من أهل ملتك * وقد روى أبو عبد الله المرزبانى باسناده عن الحسن نحواً مما قال ابن بطة ، ولكن لفظه أجزاك الله على مصيبتك باعظم مما جازى به أحداً من أهل ملتك * وروى أبو موسى المدينى باسناده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا دعوتم لأحد من اليهود أو النصارى فقولوا : أكثر الله مالك وولدك »

﴿ فصل ﴾

ولم يرد فى التعزية شئ محدود الا أنه يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم عزى رجلا فقال : « رحمك الله وآجرك » رواه الامام أحمد ، وعزى أحمد أبا طالب فوقف على باب المسجد فقال : أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك * وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده . قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءت التعزية سمعوا قائلا يقول : « إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركا من كل مافات فبالله فثقوا وإياه فارجوا فان المصاب من حرم الثواب » رواه الشافعى فى مسنده * وروى الحاكم فى مستدركه . وقال : صحيح الاسناد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدق به أصحابه فبكوا حوله

واجتمعوا ، فدخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ثم التفت الى أصحاب رسول الله ﷺ فقال : « ان فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فائت ، وخلفاً من كل هالك فالى الله فانيبوا واليه فارغبوا ونظره اليكم فى البلاء فانظروا فانما المصاب من لم يجبر » وانصرف . فقال بعضهم لبعض : تعرفون الرجل؟ قال : أبو بكر وعلى : نعم ، هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر عليه السلام . وروى الحاكم من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، لما توفى رسول الله ﷺ جاءتهم الملائكة يسمعون الحس ولا يرون الشخص . قالت : السلام عليكم ورحمة وبركاته إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا فانما المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وحسنه الحاكم * وسيأتى كلام السلف رحمهم الله فى التعازى بألفاظ مختلفة ، فتارة مطولة وتارة وجيزة بليغة كما سأذكره قريباً إن شاء الله *

﴿ فصل ﴾

ومن بلغه وفاة أحد من المؤمنين فليحسن الاسترجاع والتثبت ، فقد روى الطبرانى باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال قال النبى ﷺ : « إن للموت فزعاً فاذا أتى أحدكم وفاة اخيه فليقل إنا لله وإنا اليه راجعون وإنا الى ربنا لمنقلبون اللهم اكتبه فى المحسنين واجعل كتابه فى عليين واخلف عقبه فى الآخرين اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده » وفى حديث أبى سلمة لما مات شق بصره فاغمضه النبى ﷺ ثم قال : « إن الروح اذا قبض تبعه البصر » فصاح ناس من أهله فقال : « لاتدعوا على انفسكم الا بخير فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون . ثم قال : اللهم اغفر لابى سلمة وارفع درجته فى المهدين واخلفه فى عقبه فى الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له فى قبره ونور له فيه» رواه مسلم . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه لما بلغه وفاة أبى بكر

رضى الله عنه . قال : رضينا عن الله قضاه وسلمنا له أمره إنا لله وانا اليه راجعون *
وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا يوسف بن عطية الصفار . قال : جلست
الى عطاء بن أبى ميمونة وهو يعزى رجلا فقال : حدثنا أنس بن مالك، أن رجلا
كان يجىء بصبى له معه الى رسول الله ﷺ وأن الغلام مات فاحتبس أبوه عن النبى
ﷺ فسأل عنه رسول الله ﷺ فقالوا : مات صبيه الذى رأيت معه فقال :
« افلا آذنتمونى فقوموا الى أخينا نعزيه فلما دخل عليه اذا الرجل حزين وبه
كآبة فعزاه . فقال : يا رسول الله كنت ارجوه لكبر سنى وضعفى فقال رسول الله
ﷺ : اما يسرك أن يكون يوم القيمة بازائك يقال له ادخل الجنة فيقول رب
وأبواى ولا يزال يشفع حتى يشفعه الله عز وجل فيكم ويدخلكم جميعاً الجنة »

﴿ فصل ﴾

(فيما نقل الينا من الفاظ التعزية عن السلف والخلف)

فقد روى الطبرانى فى كتاب الدعاء باسناده عن محمود بن لبيد عن معاذ بن
جبل رضى الله عنه أنه مات ابن له فكتب اليه رسول الله ﷺ يعزيه بابنه
فكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى معاذ بن جبل سلام
عليك فانى احمد اليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فاعظم الله لك الاجر
والهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر فان أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب
الله الهنية وعواريه المستودعة متعك الله به فى غبطة وسرور، وقبضه منك باجر
كثير الصلاة والرحمة والهدى إن احتسبته بالصبر ولا يحبط جزعك أجرك فتندم
على مافاتك من ثواب مصيبتك فانك لو اطلعت على ثواب مصيبتك لعرفت أن
المصيبة قد قصرت عن الثواب ـ وهذه الزيادة في بعض طرقه ـ ثم قال (. . . . .)
وما هو نازل بك فكأن قد والسلام * ورواه الحاكم فى المستدرك وقال : غريب
حسن . ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى كتاب الأدعية وعنده : فليذهب

اسفك ما هو نازل بك . واحفظ الحاكم : فان أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة نمتع به الى أجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر اذا أعطى والصبر اذا ابتلى وباقى الحديث كما ساقه الطبرانى والله أعلم *

ورأيت فى جزء لا أعرف مؤلفه وليس له أول . قال زيد بن أسلم : مات ابن لداود عليه السلام فجزع عليه فعزوه فيـه فقيل له : ما كان يعدل عندك ؟ قال : كان احب الى من ملء الأرض ذهباً ، فقيل له : فان لك من الاجر على قدر ذلك * وفى الاسرائيليات : أن سليمان بن داود عليهما السلام مات له ولد فجزع عليه حتى عرف ذلك فى مصابه ، فتحاكم اليه ملكان فى صورة رجلين فقال أحدهما : إن هـذا بذر بذراً فى طريق الناس فمررت فافسدته . فقال : سليمان للآخر ! لم بذرت فى الطريق ؟ أما علمت أنه لابد للناس من ممر ؟ فقال : ولم تحزن أنت على ابنك وهذا طريق الناس الى الآخرة * وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما . قال : أرسلت ابنة النبى صلى الله عليه وسلم اليه أن ابنالى قد قبض فاتنا . فارسل يقرى السلام ويقول : « إن لله ما أخـذ وله ما أعطى وكل شئ عنـده باجل مسمى فلتصبر ولتحتسب » رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه * وقال وهب بن منبه قرأت فى بعض كتب الله تعالى يقول : لولا أنى جعلت الميت ينتن على أهله مادفن ميت ، ولولا أنى جعلت الطعام يفسد لاحتجبه الملوك ، ولولا أنى آتى بالعزاء بعد المصيبة ما عمرت الدنيا . وقال الحسن البصرى رحمـه الله : مامن جزعتين احب الى الله من جزعة مصيبة موجعة محرقة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجزعة غيظ ردها صاحبها بحلم * وقد روى عن شمر أنه كان اذا عزى مصاباً قال : اصبر لما حكم ربك * وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى عبد الله بن محمد بن اسماعيل التيمى أن رجلا عزى رجلا على ابنه فقال : انما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمع

الى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالاجر، فانها أعظم مصيبتين عليك والسلام *
وعزى ابن السماك رجلا فقال : عليك بالصبر فيه بعمل من احتسب واليه يصير من
جزع * وقال عمر بن دينار : قال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن
القلب ولكن الجزع القول السىء والظن السىء . وقال خالد بن أبى عثمان القرشى
كان سعيد بن جبير يعزينى على أبى فرآنى أطوف بالبيت متقنعاً فكشف القناع
عن رأسى . وقال : الاستتار من الجزع * وروى البيهقى باسناده فى مناقب الشافعى
رحمه الله : أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديدا فبعث
اليه الشافعى يقول له : يا أخى عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من فعلك
ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر ،
فكيف اذا اجتمعا مع اكتساب وزر فتناول حظك يا أخى اذا قرب منك قبل
أن تطلبه وقد تناء عنك . الهمك الله عند المصائب صبرا واحرز لنا ولك بالصبر
اجرا ثم انشده :

إنى معزيك لا إنى على ثقة ... من الخلود ولكن سنة الدين
فلا المعزى بباق بعد ميته ... ولا المعزى ولو عاشا الى حين

ومات ابن للشافعى رحمه الله فجاؤا يعزونه فانشد :

وما الدهر الا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو فراق حبيب

دخل بعض الاعراب على بعض ملوك بنى العباس وقد توفى له ولد اسمه العباس
فعزاه فيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فانما ... صبر الرعية عند صبر الراس
وخير من العباس اجرك بعده ... والله خير منك للعباس

وذكر أبو على الحسن بن احمد بن البنا باسناده أن شخصا من
الحكماء أنشده :

اذا دام ذا الدهر لم يحزن على أحد ممن يموت ولم يفرح بمولود

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا الحسين ثنا عبد الله ثنا محمد بن مسلمة القاسمى وكان قد قارب المائة قال : وعظ عابد جباراً فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وحمل الى متعبده ، فجاء اخوانه يعزونه . فقال : لاتعزونى ولكن هنونى بما ساق الله الى ثم قال الهى أصبحت فى منزلة الرغائب أنظر الى العجائب ، إلهى أنت تتودد بنعمتك الى من يؤذيك فكيف لاتتودد الى من يؤذى فيك * وذكر عن سليمان بن حبيب قال لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل عليه هشام فعزاه عنه فقال عمر : وأنا أعوذ بالله أن يكون لى محبة فى شىء من الامور تخالف محبة الله عز وجل فان ذلك لا يصلح لى فى بلائه عندى ، واحسانه الى وفى رواية أخرى قال لما مات ابنه عبد الملك وأخوه سهل ومزاحم مولى عمر بن العزيز فى ايام متتابعة ، دخل عليه الربيع بن سبرة فقال : أعظم الله اجرك يا امير المؤمنين فما رأيت أحدا أصيب باعظم من مصيبتك فى ايام متتابعة والله ما رأيت مثل ابنك ابنا ، ولا مثل أخيك أخاً ، ولا مثل مولاك مولى قط ، فطأطأ رأسه فقال لى رجل معه على الوساد ، لقد هيجت عليه . قال : ثم رفع رأسه فقال : كيف قلت ؟ فاعدت عليه ما قلت . فقال : لا والذى قضى عليهم بالموت ما أحب أن شيئاً من ذلك لم يكن * وعن بشر بن عبد الله قال : قام عمر بن عبد العزيز على قبر ابنه عبد الملك فقال : رحمك الله يابنى فقد كنت ساراً مولوداً ، وباراً ناشئاً ، وما أحب انى دعوتك فاجبتنى . ولما توفيت الياقوتة بنت المهدى ، جزع عليها جزعاً لم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر أن لا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى واجتهدوا فى البلاغة فاجمعوا انهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شبة فانه . قال : أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجراً ، وأعقبك خيراً ، ولا أجهد بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمة ؛ ثواب الله خير لك منها ، ورحمة الله خير لها

منك ، وأحق ماصبر عليه ما لا سبيل إلى رده * وفي رواية قال : يا أمير المؤمنين الله خير لك منها ، وأنا أسأل الله أن لايحزنك ولا يفتنك * وقد روى مالك في الموطأ عن يحيي بن سعيد عن القاسم قال : هلكت امرأة لى، فأتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى بها فقال : إنه كان فى بنى اسرائيل رجل فقيه عالم عابد مجتهد وكانت له امرأة وكان بها معجباً ولها محبا ، فماتت فوجد عليها وجداً شديداً ، وتأسف عليها تأسفا شديداً ، حتى خلا فى بيت وأغلق على نفسه واحتجب ، وإن امرأة سمعت به فجاءته . فقالت : إن لى اليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزينى إلا مشافهته ، فذهب الناس ولزمت بابه . وقالت : مالى منه بد . فقال له قائل : إن هاهنا امرأة أرادت أن تستفتيك . قال : إئذنوا لها فدخلت . فقالت : انى استعرت من جارة لى حليا وكنت ألبسه وأعيره ، فلبث عندى زماناً ، ثم أنهم أرسلوا الى فيه أفأرده اليهم ؟ قال : نعم ، والله . قالت : إنه مكث عندى زمانا . قال : فذاك أحق لردك إياه اليهم . قالت : أفتتأسف على ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك فابصر ماهو فيه ونفعه الله تعالى بقولها * وعزى عمرو بن عبيد ليونس بن عبيد على ولد له مات . فقال : إن أباك كان أصلك ، وإن ابنك كان فرعك ، وإن امرءاً ذهب أصله وفرعه لحرى أن يقل بقاؤه * وعزى صالح المرى رجلا قد مات ولده . فقال : إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة فى نفسك فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن كانت لم تحدث لك عظة فى نفسك ، فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك * وعزى رجل رجلا . فقال : يا أخى العاقل يصنع فى أول يوم ما يفعله الجاهل بعد عام . وعزى رجل رجلا فقال : عليك بتقوى الله والصبر فيه فانه يأخذ المحتسب واليه يرجع الجازع * وعزى رجل رجلا . فقال : إن من كان لك فى الآخرة أجراً ، خير ممن كان لك فى الدنيا سروراً * وعن ابن جريج . قال : من لم يتعز عند مصيبته بالأجر والاحتساب ، سلا كما تسلوا البهائم * قال بعض

السلف وقد عزى مصابا : إن صبرت فهى مصيبة واحدة ، و إن لم تصبر فهما مصيبتان * وذكر ابن الدنيا باسناده عن ميمون بن مهران . قال : عزى رجل عمر ابن عبد العزيز رحمة الله عليه على ابنه عبد الملك . فقال عمر: الأمر الذى نزل بعبد الملك أمر كنا نعرفه فلما وقع لم ننكره * وروى ابن أبى الدنيا باسناده قال : مات ابن رجل فحضره عمر بن عبد العزيز فكان الرجل حسن العزاء . فقال رجل من القوم :هذا والله الرضا . فقال عمر بن عبدالعزيز : أو الصبر .قال سليمان : الصبر دون الرضا ، الرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راض بأى ذلك كان ، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة فيصبر * وذكر الحافظ بن عساكر . قال ابراهيم بن خالد : كتب محمد بن ادريس الشافعى الى رجل من اخوانه من قريش يعزيه بابن أصيب به ، اعلم يا أخى أن كل مصيبة لا يجبر صاحبها ثوابها فهى المصيبة العظمى فكيف رضيت يا أخى بابنك فتنة ولم ترض به نعمة ، وكيف رضيت به مفارقا ولم ترض به خالداً ، وكيف رضيته على التعريض من الفساد ولم ترض به على اليقين من الصلاح بل كيف لك بمقت منعم ولم تعرف له نعمة ؟ يريك ماتحب و يرى منك مايكره ، ارجع الى الله عز وجل وتعز برسول الله ﷺ وتمسك بدينك والسلام * وذكر أيضاً باسناده قال : كتب رجل الى أخ له يعزيه بابنه : (أما بعد) فان الله تعالى وهب لك موهبة جعل عليك رزقه ومؤنته ، وأن تخشى فتنته ، فاشتد لذلك فرحك ، فلما قبض موهبته وكفاك مؤنته ، اشتد لذلك حزنك ، أقسم بالله إن كنت تقيا لهنئت على ما عزيت عليه ، ولعزيت على ماهنئت عليه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاصبر نفسك عن الامر الذى لاصبر لك على عقباه ، واصبر نفسك عن الامر الذى لا غنى بك عن ثوابه ، واعلم أن كل مصيبة لم يذهب فرح ثوابها حزنها ، فذلك الحزن الدائم والسلام * عن عبدالله بن صالح العجلى . قال : كتب ابن السماك الى رجل يعزيه عن مولودله مات : (أما بعد) فان استطعت أن يكون شكرك حين

قبضه الله عز وجل منك ، أكثر منه حين وهبه لك ، فافعل فقد أحرز لك هبته حيث قبضه ، ولو بقى لم تسلم من فتنه ، أرأيت حزنك على فراقه وتلهفك على ذهابه ، أرضيت الدار لنفسك فترضاها لابنك ، أما هو فقد خلص من الكدر وبقيت أنت معلقا بالخطر ، والمصيبة إن جزعت فهى واحدة إن صبرت ، ومصيبتان إن لم تصبر ، فلا تجمع الأمرين على نفسك والسلام * وكتب رجل الى بعض اخوانه يعزيه بابنه : (أما بعد) فان الولد على والده ما عاش حزن وفتنة ، فاذا قدمه فصلاة ورحمة ، فلا تجزع على مافاتك من حزنه وفتنه ، ولا تضيع ماعوضك الله من صلاته ورحمته . وقال موسى بن المهدى : لابراهيم بن مسلم وعزاه بابنه ، أسرك وهو بلية وفتنة ، وأحزنك وهو صلوات ورحمة؟ وقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه دفن ابناً له فضحك عند قبره . فقيل له : أتضحك عند القبر؟ قال : أردت أن أرغم الشيطان * ومات للحافظ بن عساكر ولد لم يحتلم وكان ولداً حسناً . قال الحافظ : فحمدت الله ولم أظهر لموته جزعاً ولا قلقاً ، ولم أحالف لذهابه هلعاً ولا أرقاً ، ولم أترك لحزنه مجلس التحديث ، ولم أمتنع لاجله من الانبساط والحديث ، وما كان ذلك الا بتوفيق الله واعانته ، وحسن عصمته من الجزع وصيانته فله الحمد اذ لم يحبط أجرى فيه بجزعى ، ولم يذهب بصبرى عنه بهلعى ، لان المحروم من حرم عظيم الثواب ، والملوم من جزع لأليم المصاب ، وأعجب من تصبري : لما عزانى بعض إخوانى حضنى على الصبر . وقال لى : مررت بك يوم ثانيه وأنت تحدث الجماعة فتعجبت من انشراح صدرك للتحديث تلك الساعة . فقلت له : إن الجزع لايرد فائتاً ولا ذاهباً ، والحزن لا يرجع هالكا ولا عاطبا ، والبكاء لا يجدى صرفاً لمسلم ولا نفعاً ، والقلق لا يفيد دركا لخطب ولا دفعا ، والاحتيال لايوجب لهالك ضراً ولا نفعاً ، واذا كان الأمر بهذه الصفة ، والحال هكذا عند أهل المعرفة ، فالصبر أحمى بذوى الحجى ، وأليق بأولى الدين والنهى *

﴿ الباب السادس عشر ﴾

(فى وجوب الصبر على المصيبة)

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وقال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) والآيات التى فيها الأمر بالصبر كثيرة جداً معروفة . قال الامام أحمد : ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر فى القرآن فى تسعين موضعاً . اعلم أن حقيقة الصبر عند أرباب التصوف خلق فاضل من أخلاق النفس يمنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها . قال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه الا الصبر . وقد تقدم حديث أبى زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وارسال بنت رسول الله ﷺ الى رسول الله ﷺ أن ابنى قد احتضر فاشهد ، فارسل يقرى السلام . ويقول : « إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب » الحديث . أمرها بالصبر . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : مر النبي ﷺ بامرأة تبكى عند قبر . فقال : اتق الله واصبرى . فقالت : إليك عنى فانك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى ﷺ ، فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين . فقالت : لم أعرفك . فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » رواه البخارى ومسلم . وفى رواية تبكى على صبى لها . فقال : « إنما الصبر عند أول صدمة » وهذا يشبه قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » فان مفاجأة المصيبة بغتة لها روعة

تزعزع القلب وتزعجه بصدمها ، فان صبر للصدمة الأولى انكسرت حدتها ، وضعفت قوتها ، فهان عليه استدامة الصبر كذلك الغضب . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ . قال : « يقول الله عز وجل ما لعبدى المؤمن عندى جزاء اذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه الا الجنة » رواه البخارى *

وعن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون ، فاخبرها : « أنه كان عذاباً يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً يعلم انه لايصيبه الا ما كتب الله له الا كان له مثل أجر الشهيد » رواه البخارى ورواه الامام أحمد من حديث عائشة أيضاً بلفظه . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين ، و إنما اختلفوا فى وجوب الرضا . انتهى كلامه . فالصبر واجب من حيث الجملة ، ولكنه يتأكد بحسب الاوقات . فهو فى زمن الطاعون آكد منه فى غيره ، فانه اذا صبر على الاقامة فى البلد الذى وقع فيه الطاعون ، وصبر عند موت أولاده أو أقاربه أو أصحابه وصبر أيضاً عند مصيبته بنفسه ، وعلم يقيناً أن الآجال لاتقديم فيها ولا تأخير ، وأن الله تعالى كتب الآجال فى بطون الامهات كما ثبت فى الصحاح ، كتب رزقه وأجله وشقى هو أو سعيد فلا زيادة ولا نقص الا فى صلة الارحام ففيها خلاف معروف بين أهل العلم ، فاذا صبر واحتسب لم يكن له ثواب دون الجنة ، واذا جزع ولم يصبر أثم وأتعب نفسه ولم يرد من قضاء الله شيئاً ، ولقد ضمن الوافى الصادق الناطق فى محكم كتابه حيث قال عن الصابرين : (انهم يوفون أجرهم بغير حساب) وأخبر انه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين . فقال تعالى : (واصبر والله مع الصابرين) فذهب الصابرون بهذه المعية التى هى خير الدنيا والآخرة وشارك بعض الأنبياء فى قوله (إننى معكما أسمع وأرى) وأخبر تعالى أن الصبر خير لأهله خبراً مؤكداً . فقال تعالى : (ولئن

صبرتم لهو خير للصابرين) وأخبر أن الصبر مع التقوى لايضر كيد الاعداء أبداً . فقال : (و إن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط)

﴿ الباب السابع عشر ﴾

(فيما ورد فى الصبر على المصيبة)

قال الله تعالى : (و بشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقال تعالى : (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) وقال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) وهـذا باب متسع جداً فى الآيات والاحاديث ، وانما نذكر منه ما يوقظ الساهى و ينبه الغافل . وقد تقدم حديث أم سلمة من غير وجه من رواية الامام أحمد ومسلم وغيرهما وعن أبى مالك الحارث بن عاصم الاشعرى رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمـد لله تملآن ما بين السموات والارض والصـلاة نور ، والصدقة برهان ، والصـبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك » الحديث رواه مسلم ورواه أبو داود من طريق أخرى بلفظ غريب أن أم سـلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل إنا لله و إنا اليه راجعون اللهم عندك احتسبت مصيبتى فأجرنى بها و أبدلنى خيرا منها فلما احتضر أبو سلمة قال : اللهم اخلفنى فى أهلى خيرا منى . فلما قبض . قالت أم سلمة : إنا لله و إنا اليـه راجعون عنـد الله احتسبت مصيبتى فأجرنى فيها * فانظر رحمـك الله الى ما آلت اليه حين احتسبت وصبرت و رضيت و ركنت واتبعت السنة وقد تقدم نحو ذلك * وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسا من الانصار سألوا رسول الله ﷺ فاعطاهم ، ثم سألوه فاعطاهم حتى نفد ما عنـده فقال لهم حين أنفق كل

شئ بيده : « مايكون عندى من خير فلن ادخره عنكم ومن يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » رواه البخارى ومسلم * وعن صهيب بن سنان رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لاحد الا للمؤمن إن اصابته سراء شكر كان خيراً له ، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » رواه مسلم * وعن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عز وجل . قال: « إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة » ـ يريد عينيه ـ رواه البخارى * وعن عطاء بن أبى رباح . قال : قال لى ابن عباس رضى الله عنهما : الا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ . فقالت : إنى أصرع وانى أتكشف فادع الله تعالى لى فقال : « إن شئت صبرت ولك الجنة و إن شئت دعوت الله أن يعافيك » فقالت أصبر ثم قالت : إنى أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها . رواه البخارى ومسلم * وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ . قال : «مايصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولاهم ولاحزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكه يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » رواه البخارى ومسلم . الهم على المستقبل ، والحزن على الماضى ، والنصب التعب ، والوصب المرض * وروى من حديث أبى موسى الاشعرى أن النبى ﷺ . قال : « لا يصيب العبد نكبة فما فوقها أو دونها الا بذنب ، ومايعفو الله عنه أكثر » قال : وقرأ (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير) وروى من حديث عمرو بن العاص أن النبى ﷺ . قال : « المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم » * وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ :« من يرد به خيراً يصب منه » رواه البخارى . قوله : يصب

بفتح الصاد وكسرها * وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قسم مالا ، فقال بعض الناس : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ . فقال : « رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » * قال عبد الرزاق . حدثنا السورى عن سفيان العصفرى عن سعيد بن جبير أنه قال : فى قوله تعالى . (يأيها الذين آمنو استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) . قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الصبر الا تسمعون الى قول يعقوب عليه السلام : يا أسفى على يوسف * وروى سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا اسماعيل بن ابراهيم ثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس رضى الله عنهما نعى اليه أخوه قثم وهو فى سفر فاسترجع ، ثم تنحى عن الطريق فاناخ ثم صلى ركعتين فاطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى الى راحلته وهو يقول: (استعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة الا على الخاشعين) . وقال هشيم : حدثنا خالد بن صفوان . قال : حدثنى زيد بن على أن ابن عباس كان فى مسيرله فنعى اليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع . وقال : فعلنا كما أمرنا الله (واستعينوا بالصبر والصلاة) . وقال أبو الفرج بن الجوزى : روى عن أم كلثوم وكانت من المهاجرات أنه لما غشى على زوجها عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه خرجت الى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة . وحكى سعيد بن منصور عن الحجاج عن ابن جريج (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال : انهما معونتان على رحمة الله * وعن ابن مسعود رضى الله عنه . قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك فقلت يا رسول الله إنك توعك وعكا شديداً . قال : « أجل إنى أوعك كما يوعك الرجلان منكم » قلت ذلك أن لك أجرين . قال : « أجل ذلك كذلك ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقه الا كفر الله بها سيآته كما تحط الشجرة ورقها » رواه البخارى ومسلم * والوعك معث الحمى وقيل الحمى * وعن خباب بن الارت رضى الله عنه . قال : شكونا الى رسول

الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » رواه البخارى . وفى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله اذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط » قال الترمذى : حديث حسن. وعن أنس رضى الله عنه . قال: كان ابن لابى طلحة رضى الله عنه يشتكى ، فخرج أبو طلحه فقبض الصبى ، فلما رجع أبو طلحه قال : ما فعل ابنى ؟ قالت أم سليم وهى أم الصبى : هو أسكن ما كان ، فقدمت له العشاء فتعشى ثم أصاب منها ، فلما فرغ منها قالت : واروا الصبى . فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ فاخبره فقال ؟ أعرستم الليلة . قال : نعم . قال : « اللهم بارك لهما » فولدت غلاما ، فقال لى أبو طلحة احمله حتى تأتى به النبى ﷺ وبعث معه تمرات فقال أمعه شىء ؟ قال : نعم تمرات فاخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها فى فىّ الصبى وحنكه وسماه عبد الله . رواه البخارى ومسلم وفى رواية البخارى . قال ابن عيينة : فقال رجل من الانصار : فرأيت تسعة اولاد كلهم قد قرأ القرآن – يعنى من اولاد عبد الله – وفى رواية لمسلم مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لاهلها لاتحدثوا أبا طلحه بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء فقربت اليه عشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت انه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما اعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم . قال : لا . فقالت : احتسب ابنك . فغضب ثم قال : تركتينى حتى اذا تلطخت ثم

اخبرتيني فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فاخبره بما كان . فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله في ليلتكما » قال : فحملت وذكر تمام الحديث وقد تقدم * وعن أبي هريرة رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وماعليه خطيئة » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح * وعن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال قال : رسول الله ﷺ : « تنصب الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولاينشرلهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب » ثم قرأ (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء والفضل . رواه ابن منجويه فى تفسيره * وروى مالك بن أنس فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن النبى ﷺ . قال : « إذا مرض العبد بعث الله اليه ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواده فان هو إذا جاءوه حمد الله واثنى عليه رفعا ذلك الى الله وهو أعلم فيقول لعبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة وأن انا شفيته أن أبدله لحماً خيرا من لحمه ودماً خيرا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته »

﴿ فصل ﴾

(فى كلام السلف فى الصبر)

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر ثلاثة ، صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب له ثلثمائة درجة ، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة ، ومن صبر عن

المعصية كتبت له تسعمائة درجة * وقال ميمون بن مهران : الصبر صبران فالصبر على المصيبة حسن وأفضل منه الصبر عن المعصية * وقال الجنيد وقد سئل عن الصبر . فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبس * وقال الفضيل بن عياض : فى قوله تعالى : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ثم قال : صبروا على ما أمروا به وصبروا عما نهوا عنه ، انتهى كلامه . فكأنه رحمه الله جعل الصبر عن المعصية داخلا فى قسم المأمور به * قال الامام أحمد : حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن أبى السفر ؟ قال : مرض أبو بكر فعادوه . فقالوا : ألا ندعوا لك الطبيب . فقال : قد رآنى الطبيب . قالوا : فأى شىء قال لك ؟ قال : إنى فعال لما أريد * قال أحمد : ثنا أبو معاوية ثنا الاعمش عن مجاهد . قال : قال عمر بن الخطاب : وجدنا خير عيشنا بالصبر * وفى رواية « أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً * وقال على بن أبى طالب : الا إن الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فاذا قطع الرأس بار الجسد ثم رفع صوته . فقال : ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له . وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله الا لعبد كريم عنده . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضها مكانها الصبر الا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه منه * وقال بعض العارفين فى رقعة يخرجها كل وقت فينظر فيها وفيها مكتوب (واصبر لحكم ربك فانك باعيننا) وقال : مجاهد فى قوله تعالى : (فصبر جميل) فى غير جزع . وقال عمرو بن قيس : (فصبر جميل) قال الرضا بالمصيبة والتسليم . وقال حسان : (فصبر جميل) لاشكوى فيه . وقال همام : عن قتادة ، فى قول تعالى : (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) قال كظيم على الحزن فلم يقل الا خيراً . وقال الحسن : الكظيم الصبور . وقال الضحاك : كظيم الحزن . وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير . قال :

الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله . وقال يونس بن يزيد : سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن ما منتهى الصبر ؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه * وقال قيس بن الحجاج فى قوله تعالى (فاصبر صبراً جميلا) قال : أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لايعرف من هو * وذكر أبو الفرج ابن الجوزى فى عيون الحكايات . قال الاصمعى : خرجت أنا وصديق لى الى البادية فضللنا الطريق ، فاذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدناها فسلمنا فاذا امرأة ترد علينا السلام . قالت : ما أنتم ؟ قلنا قوم ضالون عن الطريق آتيناكم فأنسنا بكم . فقالت : ياهؤلاء ولو وجوهكم عنى حتى أقضى من حقكم ما أنتم له أهل . ففعلنا . فألقت لنا مسحاً . فقالت : اجلسوا عليه الى أن يأتى ابنى . ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها الى أن رفعتها فقالت : أسأل الله بركة المقبل ، أما البعير فبعير ابنى ، وأما الراكب فليس بابنى ، فوقف الراكب عليها . فقال : يا أم عقيل أعظم الله أجرك فى عقيل . قالت : ويحك مات ابنى ؟ قال نعم قالت : وما سبب موته ؟ قال : ازدحمت عليه الابل فرمت به فى البئر . فقالت : انزل فاقض ذمام القوم ودفعت اليه كبشاً فذبحه وأصلحه وقرب الينا الطعام ، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها ، فلما فرغنا خرجت الينا وقد تكورت فقالت : ياهؤلاء هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئا ؟ قلت : نعم قالت : أقرأ على من كتاب الله آيات أتعزى بها . قلت : يقول الله عز وجل فى كتابه (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قالت : آلله انها لفى كتاب الله هكذا ؟ قلت : آلله انها لفى كتاب الله هكذا قالت : السلام عليكم ثم صفت قدميها وصلت ركعات ثم قالت : (إنا لله وإنا اليه راجعون) عند الله أحتسب عقيلا . تقول ذلك ثلاثا اللهم إنى فعلت ما أمرتنى به فانجز لى ما وعدتنى *

﴿ الباب الثامن عشر ﴾

(فى أن الشخص لا يستغنى عن الصبر لا فى المصيبة ولا فى غيرها)

اعلم رحمك الله أن الشخص البالغ العاقل المسلم ما دام فى دار التكاليف والاقلام جارية عليه ، لا يستغنى عن الصبر فى حالة من الأحوال ، فانه بين أمر يجب عليه امتثاله والصبر لا بد له منه قولا وفعلا ، و بين نهى يجب عليه اجتنابه وتركه والصبر لا بد له منه ، و بين قضاء وقد يجب عليه الصبر فيهما ، و بين نعمة يجب عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه ، واذا كانت هذه الاحوال لا تفارقه فالصبر لازم له الى الممات ، فان قيل النعم يجب الصبر عليها ؟ قيل نعم : لانها من الابتلاء كما قال تعالى :(فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن) وقال تعالى : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) وفى الآية الأخرى : (وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا) أى ليس الأمر كذلك ، وانما الله تعالى يبتلى عباده بالغنى والفقر ، فينظر من هو المجاهد الشاكر الصابر على ما ابتلاه به كما يبتلى عباده بالمصائب والاسقام تطهيراً لهم من الذنوب والآثام .

﴿ فصل ﴾

و يحتاج العبد الى الصبر فى ثلاثة أحوال (أحدها) قبل الشروع فى العبادات بتصحيح النية والاخلاص ، وعقد العزم على توفية المأمور به وتجنب دواعى الرياء والسمعة (والحالة الثانية) الصبر حال العمل فيلازم الصبر عند دواعى التقصير فيه والتفريط و يلازم على استصحاب ذكر النية وحضور القلب بين يدى المعبود ، وهو محتاج الى الصبر فى توفية أركانها وشروطها وواجباتها وسننها (والحالة الثالثة) الصبر بعد الفراغ من العمل فيحذر من الاتيان بما يبطله كما قال تعالى: (لا تبطلوا صدقاتكم

بالمن والاذى) فالصبر على محافظتها بعد الفراغ من أنفع ما للعبد. هذا معنى ماذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . وقال العلامة ابن القيم : وكل ما يلقى العبد فى هذه الدار لايخلو من نوعين (أحدهما) موافق هواه ومراده (والثانى) يخالفه ، وهو محتاج الى الصبر فى كل منهما ، أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شئ الى الصبر فيها من وجوه (أحدها) أن لا يركن اليها ولا يغتر بها ولا يحمله عليه البطر والاشر والفرح المذموم الذى لايحب الله أهله (الثانى) أن لا ينهمك فى نيلها ولا يبالغ فى استقصائها فانها تنقلب الى اضدادها فمن يبالغ فى الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك ضده وحرم الأكل والشرب والجماع (الثالث) أن يصبر على اداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها *(الرابع) أن يصبر عن صرفها فى الحرام فلا يمكن نفسه من كل ماتريده منها توقعه فى الحرام ، فاذا احترز أوقعته فى المكروه ، ولايصبر على السراء الا الصديقون . قال بعض السلف : البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية الا صديق

واما النوع الثانى، فاما الطاعة فالعبد يحتاج الى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبادات الامن وفقه الله ، وتبين ذلك بالصلاة طبع النفس فيها الكسل وايثار الراحة ، والزكاة فطبع النفس فيها الشح والبخل ، وأما الصوم فطبع النفس بمحبة الفطر وعدم الجوع ، وعلى هذا فقس ، فهو محتاج الى الصبر فى جميع ذلك والله أعلم .ومن هذا الباب قول عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه : ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر *

﴿ فصل ﴾

وانما كان الصبر على السراء شديد مشق على النفس لانه مقرون بالقدرة على ما تشتهيه النفس وتميل اليه ،لان الجائع عند عدم الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره ،وكذلك الشبق عند غير المرأة اصبر منه عند حضورها ،وكذلك العطشان

الشديد العطش عند عدم الماء اصبر منه عند وجوده *

﴿ فصل ﴾

وقد حذر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فى كتابه العزيز من فتنة المال ومن فتنة الازواج ومن فتنة الاولاد فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) . وقال تعالى : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) . وقال تعالى :(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) وليس المراد من هذه العداوة مايفهمه كثير من الناس انها عداوة البغضاء والمجادلة ، بل عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعليم العلم وغير ذلك من أعمال البر ، هذا معنى ماذكره العلامة ابن القيم . فالمقصود أنه من صبر فى السراء عن المعصية فقد أمن فتنة المال فانه قادر على فعل المعصية و بذل المال ، فلهذا كان له الثواب الجزيل ، والفضل العظيم وكذلك من صبر على تربية الاولاد وأذى بعض الزوجات كان له الدرجات العاليات فانه ليس كل زوجة وولد منهم إذا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » فان من هنا للتبعيض باتفاق الناس ، والمعنى إن من الأزواج والأولاد عدواً ليس المراد إن كل زوج وولد عدو فان هذا ليس هو مدلول اللفظ وهو باطل فى نفسه فانه سبحانه وتعالى قد قال عن عباد الرحمن انهم يقولون . « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » . فسألوا الله أن يهب لهم من أزواجهم وأولادهم قرة أعين ، فلو كان كل زوج وولد عدواً لم يكن فيهم قرة أعين فإن العدو لا يكون قرة عين بل سخنة عين . وأيضاً فانه من المعلوم أن إسماعيل و إسحاق ابنى إبراهيم ويحيى بن زكريا وأمثالهم ليسوا أعداء ، وقول من قال : إنها زائدة غلط لوجوه . أحدها إن مذهب سيبويه وجمهور أئمة النحاة إنها لا تزاد فى الاثبات وانما تزاد فى النفى تحقيقاً لعموم النفى لقوله تعالى : « وما من إله إلا الله . وما من إله

إلا إله واحد . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » ونحو ذلك فانه لولا من لكان الكلام ظاهراً فى العموم فانه يجوز أن يقول ، مارأيت رجلا بل رأيت رجلين. فاذا أدخلت من فقلت : مارأيت من رجل كان نعتا فى العموم . فلا يجوز أن يقال : ما رأيت من رجل بل رجلين . مع أن النكرة فى سياق النفى للعموم مطلقا ، لكن قد يكون نصاً وقد يكون ظاهراً ، فاذا كانت ظاهراً احتملت فنفى الواحد من الجنس بخلاف النص وهذا الموضع اثبات لا نفى فلا تزاد فيه * الثانى إن من جوز زيادتها فى الاثبات كالأخفش لايجوزه إلا اذا كان فى الكلام ما يدل عليه وإلا فلو قال قائل : إن من هؤلاء القوم مسلمين ، وأراد ان جميعهم مسلمون لم يجز ذلك بالاتفاق * الثالث ، إذا قيل بزيادتها كان المعنى باطلا * الرابع ، الزيادة على خلاف الأصل فلا يجوز ادعاءها بغير دليل . انتهى كلامه . وهذه فائدة عارضة ذكرتها على سبيل التنبيه لوقوع ناس كثير فيها . والمقصود إن العبد لا يستغنى عن الصبر فى حالة من الاحوال ، ويكفى من فضل الصبر ان الله تعالى وصف نفسه به كما فى حديث أبى موسى أن النبى ﷺ قال : « ليس أحد أو ليس شىء أصبر على أذى أسمعه من الله تعالى إنهم يدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم » رواه البخارى . قال القرطبى فى تفسيره : وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد فى التنزيل ، وانما ورد فى الحديث ، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم قاله ابن فورك انتهى كلامه . وذكر عند قوله تعالى . « ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » قلت وقد جاء فى أسمائه الحسنى الصبور . وجاء فى أسمائه الحليم فلو كان الصبور بمعنى الحليم كان الاسمين الشريفين مترادفين والاصل فى الاسماء التغاير والله أعلم *

﴿ الباب التاسع عشر ﴾

(فى أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس)

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر الى قسمين (أحدهما) بحسب قوة الداعى الى الفعل (الثانى) بسهولته على العبد ، فاذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق ، وان فقدا معاً - يعنى قوة الداعى وسهولته - سهل الصبرعنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه دون آخر ، فمن لا داعى له الى قتل النفس والسرقة وشرب الخمر وأكل الحشيشة وأنواع الفواحش ،ولا هو سهل عليه فصبره عنه من أيسر شئ وأسهله ، ومن اشتد داعيه الى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شئ عليه ، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشباب عن الفاحشة ، وصبر الغنى عن تناول اللذات والشهوات،منزلتهم عند الله منزلة عظيمة عالية منيعة لا يصل اليها الا من صبر مثل صبرهم وكذلك من صبر على موت أولاده وأبويه وأقاربه وأصحابه ونحوهم ، وهو مع ذلك صابر محتسب يأمر أهله بالصبر ، وينهاهم عن لطم الخدود وشق الجيوب ، وعن كلام ما لا يجوز لهم شرعا، فهذا له من الثواب الجزيل والأجر العظيم مالا يعلمه الا الله .فالعبد اذا ذاق لذة المعصية ثم تاب وصبر عنها كانت توبته توبة صادقة ،ولقد بلغنى عمن أعرفه أنه تاب عن الخمر وحلف بالطلاق لا يشربه ثم إنه خالع وشرب * ولقد رأيت جماعة منهم ممن حلف بالطلاق الثلاث لا يلعب بالشطرنج وتاب منه ، ومع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه وأنه يصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأنه يحصل عليه من الحلف الكاذبة والفحش ماهو معروف مشهور ، ومع ذلك منهم من خالع ولعب ، ومنهم من لعب ووقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة والحلف. فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف على جاهه أوماله أوعرضه ،صبر على المعاصى ، ومواظبته على ما أمره الله تعالى به صبر على

الطاعات ، فاذافعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى جوابه أن يوفى أجره بغير حساب *
ولهذا روى الامام أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ . قال : «عجب ربك من شاب
ليست له صبوة » وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ . قال :
« سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، امام عادل ، وشاب نشأ فى
عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا
عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ،
ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله
خالياً ففاضت عيناه » ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم فى ظله لكمال
صبرهم ومشقته على نفوسهم ، فصبر الملك على العدل مع قدرته على الظلم والانتقام من
رعيته ، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة
المسجد ، وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن شماله مع قدرته على الرياء ،
وصبر المدعو الى الفاحشة مع جمال الداعى ، وصبر المتحابين فى الله فى اجتماعهما
وانفرادهما ، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك عن الناس ، فهذه الامور
فيها مشقة على النفوس ، فالصبر عليها بتوفيق الله وفضله واحسانه الى عبده صبر
جميل عظيم *

﴿ فصل ﴾

ولما كان الداعى فى حق بعض الناس ضعيف ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر ،
كان عقوبتهم عند الله تعالى أشد من عقوبة غيرهم ، كالشيخ الزانى ، والملك
الكذاب ، والفقير المختال ، وانما كانوا أشد عقوبة من غيرهم لسهولة التصبر عن
هذه المحرمات عليهم ، ولضعف دواعيها فى حقهم . فكان تركهم الصبر عنها دليلا
على تمردهم على الله تعالى ، وعتوهم عليه ، ولهذا كان الصبر على معاصى اللسان
والفرج من أشق أنواع الصبر لشدة الداعى اليهما وسهولتهما ، فان معاصى اللسان

فاكهة الانسان لسرعة حركته وسهولة اطلاقه؛ وثبت أن النبي ﷺ . قال : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ، فيجب لجامه بلجام الشرع ، ولهذا قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فان اللسان رحب الميدان فى الخير والشر ، فمن أطلقه ولم يضبطه بالشرع سلك به الشيطان فى المهالك ، وكبه فى النار عندمالك . فالكمال إمساكه مطلقا عن فضول الكلام الا فى خير وما لابد منه ؛ فان اللسان لا تؤمن غائلته وخطره عظيم . ولسهولة حركته وسرعة اطلاقه قد بلى أكثر الناس فى زماننا بآفاته التى هى فاكهتهم وسرور مجالسهم : كالغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال والخوض فى الباطل والخصومات وفضول الكلام والتحريف والزيادة والنقصان وتزكية النفس تعريجاً وتعريضا ، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه وتزكية من يحبه وهتك المستورات ونحو ذلك . فيتفق قوة الداعى وسرعة حركة اللسان فيضعف الصبر ولهذا . قال النبى ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك » . وقد تقدم الحديث . فاذا صارت هذه الآفات التى ذكرناها للسان عادة وسجية فانه يشق على العبد الصبر عنها الامن عصمه الله . فآفات اللسان مهلكة ولها حلاوة فى القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، نسأل الله السلامة منها.
لهذا نجد كثيراً من المتفقهة وغيرهم ممن ينتسب الى الورع يتورع من استناده الى مخدة من الحرير ، أو من قعوده على بساط حرير ، أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب (أو الجلوس) لحظة واحدة فى فرح وغيره مع ما فيه من الخلاف ولا يتورع من اطلاق لسانه فى الكبائر من الذنوب ، كالغيبة والنميمة والنقلة فى أعراض الخلق ، وكذا اذا وقع الكلام فى تفسير كلام الله ، أو فى مسند رسول الله ، أطلق لسانه فيهما بغير علم مع علمه بقوله تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ثم أيضاً ممن يتورع عن الحبة من

الحرام ، بل عن الفلس المحرم ، وعن القطرة من الخمر ، ويتحرز على مثل رأس الابرة من النجاسة ، ولا يبالى بارتكاب الفرج المحرم سواء كان صبيا أو امرأة . كما يحكى : ان رجلا خلا بامرأة أجنبية فلما أراد جماعها قال : ياهذه غطى وجهك فان النظر الى وجه الاجنبية حرام . والمقصود أن الصبر عن الاشياء التى اعتادها الانسان وورد الشرع بذمها من أشق الاشياء على النفوس الامن وفقه الله لذلك *

﴿ فصل ﴾

ومن علامة الصبر وعدم مشقته على النفس عند ورود المصائب ، وكف السكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود ، وحبس اللسان عن الاعتراض على المقادير ، والتسخط والامتناع من كل شئ يوجب اظهاره ، حتى ان السلف كرهوا الانين قالت الحكماء : العاقل يفعل أول يوم مايفعله الجاهل بعد خمسة أيام . وقد قال عليه الصلاة والسلام للاشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا والا سلوت كما تسلوا البهائم »

﴿ الباب العشرون ﴾

(فى الرضاء بالمصيبة)

اعلم رحمك الله أن الرضاء بالمصائب أشق على النفوس من الصبر ، وقد تقدم أن الصبر من أشق الاشياء على النفوس ، وفى جامع الترمذى أن النبى ﷺ . قال : « اذا أحب الله قوماً ابتلاهم فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط » وقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الامام أحمد وغيرهم فى الرضاء بالقضاء هل هو واجب أو مستحب على قولين : فعلى الاول يكون من أعمال المقتصدين ، وعلى الثانى يكون من أعمال المقربين ، ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . فالعبد قد يصبر على المصيبة ولا يرضى بها ، فالرضاء أعلى من مقام الصبر ، لكن الصبر اتفقوا على

وجوبه ، والرضاء اختلفوا فى وجوبه ، والشكر أعلى من مقام الرضاء فانه يشهد المصيبة نعمة فيشكر المبلى عليها . قال عمر بن عبد العزيز : أما الرضاء فمنزلة عزيزة أو منيعة ، ولكن قد جعل الله فى الصبر معولا حسنا . وقال محمد ادريس الشافعى: حدثنا زهير بن عباد عن السرى بن حيان قال : قال عبد الواحد بن زيد : الرضاء باب الله الاعظم وجنة الدنيا وسراج العابدين * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه . قال : سمعت رسول الله ﷺ . يقول : « الصبر رضاء » فهذا الحديث فيه بشارة عظيمة لأهل المصائب ، اذ سمى الصبر رضاء . وباسناده أيضا الى أبى مسلم . قال أبو مسلم : دخلت على أبى الدرداء فى اليوم الذى قبض فيه وكان عندهم فى العز كأنفسهم ، فجعل أبو مسلم يكبر . فقال أبو الدرداء : أجل فهكذا فقولوا ، فان الله اذا قضا بقضاء أحب أن يرضى به . وذكر ابن أبى الدنيا فى قوله تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال علقمة بن أبى وقاص : هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم انها من عند الله فيسلم لها ويرضى . وقال : حدثنا الحسين ثنا عبد الله ثنا على بن الحسن العامرى ثنا أبوه بدر ثنا عمر بن ذر . قال : بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول : إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى الله لهم رضوا به لهم فى الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة * وبهذا الاسناد عن سليمان بن المغيرة . قال : كان فيما أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ، إنك لن تلقانى بعمل هو أرضى لى عنك ولا أحط لوزرك من الرضاء بقضائى ، ولن تلقانى بعمل هو أعظم لوزرك ولا أشد لسخطى عليك من البطر ، فاياك ياداود والبطر * وقال الشافعى : سمعت ابن أبى الحوارى يقول سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : أرجوا أن أكون قد رزقت من الرضاء طرفا لو ادخلنى النار لكنت بذلك راضياً * وقال ابن زيد : نظر على بن أبى طالب رضى الله عنه الى عدى ابن حاتم كئيبا . فقال : ياعدى مالى أراك كئيبا حزينا ؟ قال : وما يمنعنى وقد قتل

أبنائى وفقئت عينى . فقال : ياعدى من رضى بقضاء الله كان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله . ذكره ابن أبى الدنيا * وقال أبو عبدالله البراثى : من وهب له الرضاء فقد بلغ أقصى الدرجات * فان قيل : غالب الناس يصبرون ولا يرضون فكيف يتصور الرضى بالمكروه ؟ يقال : إن نفور الطبع عن المصائب لاينافى رضا القلب بالمقدور ، فانا نرضى القضاء وان كرهنا المقضى ؟ قيل لبعض الصالحين : قتل ولدك فى سبيل الله فبكى . فقيل له : أتبكى وقد استشهد ؟ فقال : إنما أبكى كيف كان رضاه عن الله عز وجل حين أخذته السيوف * وذكر أبو الفرج بن الجوزى بسنده عن عمار بن ياسر رضى الله عنه انه قال : اللهم لو أعلم أنه أرضى لك أن أوقد نارا عظيمة فاقع فيها لفعلت ، ولو أعلم انه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فاغرق لفعلت * وعن مصعب بن ماهان عن سفيان الثورى . قال : فى قوله تعالى :(وبشر المخبتين) . قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له *

﴿ فصل ﴾

وقد أطنب الناس من السلف والخلف فى الرضاء و بسطوا القول فيه واعتنوا به وهذا يدل على علو منزلته . قال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبامعاوية الاسود . يقول : فى قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) قال : الرضاء والقناعة . وذكر بن أبى الدنيا باسناده رفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم .قال : « جلساء الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة الخائفون الراضون المتواضعون الشاكرون الذاكرون » وباسناده الى محمد بن كعب رفعه انه قال : أى رب أى خلقك أعظم ذنباً ؟ قال : الذى يتهمنى . قال : رب وهل يتهمك أحد ؟ قال : نعم الذى يستجيرنى ولا يرضى بقضائى * قال مالك بن أنس : بلغنى أن أبا الدرداء دخل على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى . فقال أبو الدرداء : أصبت ، الله تعالى اذا قضا قضاء أحب أن يرضى به * وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن ابن عون انه . قال : أرض بقضاء الله على ما كان عسر ويسر ،

فان ذلك أقل لغمك ، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك ، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاءه عنـد الفقر والبلاء ؟ كرضائه عنـد الغناء والرخاء ، كيف تسـتقض الله فى أمرك ثم تتسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك ؟ ولعـل ما هويت من ذلك لو وفق لك لـكان فيه هلـكاك ، وترضى قضاءه اذا وافق هواك وذلك لقلة علمك بالغيب ، وكيف تسـتقضيه إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك ، ولا أصبت باب الرضا * وروى أبو بكر بن أبى الدنيا أيضاً . قال : حدثنا الحسين ثنا عبـد الله حدثنى المروزى . قال : قال حفص بن حميد : كنت عند عبد الله بن المبارك بالـكوفة حين ماتت امرأته ، فسألته ما الرضاء ؟ قال : الرضاء أن لا يتمنى خلاف حاله . فجاء أبو بكر بن عياش فعزى ابن المبارك . قال حفص : ولم أعرفه . فقال عبد الله : سله عما كنا فيه فسألته . فقال : من لم يتكلم بغير الرضاء فهو راض . قال حفص : وسألت الفضيل بن عياض . فقال : ذاك للخواص . ثم قال قادم الديلمى العابد : قال قلت للفضيل بن عياض : من الراضى عن الله ؟ قال : الذى لا يحب أن يكون على غير منزلته التى جعل فيها . وقال أبو عبـد الله البرائى : لم يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله عز وجل على كل حال * وقال سيار : دخلت على أبى العالية فى مرضه الذى مات فيه . فقال : إن أحبه الى أحبه الى الله عز وجل . وقال عمرو بن أسلم العابد : سمعت أبا معاوية الاسود يقول : فى قوله تعالى : (فلنحيينه حياة طيبة) . قال : الرضا والقناعة . ذكرهن ابن أبى الدنيا فى كتاب الرضا ، ثم ذكر عن مصعب بن ماهان عن سفيان الثورى . قال : فى قوله تعالى (وبشر المخبتين) قال : المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له * وعن وهب بن منبة . قال : وجدت فى زبور داود صلى الله عليه وسلم ياداود هل تدرى أى الفقراء أفضل ؟ الذين يرضون بحلمى وبقسمى ويحمدونى على ما أنعمت عليهم ، هل تدرى يا داود أى المؤمنين أعظم عنـدى منزلة ؟ الذى هو بما أعطى أشد فرحاً بما

حبس * وروى الامام أحمد فى كتاب الزهد عن زياد بن أبى حسان انه شهد
عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه حين دفن ابنه عبد الملك استوى قائما وأحاط
به الناس . فقال : والله يابنى لقد كنت باراً بأبيك ، والله مازلت منذ وهبك الله لى
مسروراً بك ولا والله ما كنت قط أشد سروراً ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ
وضعك الله فى المنزل الذى صيرك اليه ، فرحمك الله وغفر لك ذنبك ، وجزاك
باحسن عملك ، ورحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد وغائب ، رضينا بقضاء الله
وسلمنا لأمره والحمد لله رب العالمين ثم انصرف . وقال سفيان الثورى : قال عمر بن
عبد العزيز لابنه : كيف تجدك ؟ قال : فى الموت قال : لأن تكون فى ميزانى أحب
الىّ من أن أكون فى ميزانك . فقال : والله يا أبه لان يكون ما تحب أحب إلى
من أن يكون ما أحب * وروى الامام أحمد فى الزهد باسناده عن الحسن . قال :
حدثنى الأحوص قال : دخلنا على ابن مسعود رضى الله عنه وعنده بنون له ثلاثة
كأنهم الدنانير حسناً ، فجعلنا نتعجب من حسنهم . فقال لنا : كأنكم تغبطوننى
بهم ، قلنا : أى والله لمثل هؤلاء يغبط المسلم ، فرفع رأسه الى سقف بيت له صغير
قد عشش فيه خطاف وباض . فقال : والذى نفسى بيده لأن أكون نفضت يدى
عن تراب قبورهم أحب الى من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه *
وباسناده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . انه قال يوم مات أبو بكر الصديق
رضى الله عنه : رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره انا لله وإنا اليه راجعون

﴿ فصل ﴾

قد تقدم ما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة وما نهى عنه ، ومما سنه الخشوع
والبكاء الذى لاصوت معه ، وحزن القلب وكان يفعل ذلك . ويقول : « تدمع العين
ويحزن القلب ولا نقول الا مايرضى الرب » وكذلك الحمد والاسترجاع * وقد
تقدم . ومن سنته الرضاء عن الله فى المصيبة وغيرها ، ولم يكن ذلك منافيا لدمع

العين وحزن القلب ، وأشد الناس حرصاً على رضى مولاهم الانبياء . فقد روى ابن أبى الدنيا باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ . قال : « إنامعاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفاً » قال : فقلنا : سبحان الله . قال: « أفعجبتم إن أشد الناس بلاء الأنبياء والصالحون الامثل فالامثل » . قلنا : سبحان الله . قال : « أفعجبتم ان كان النبي من الأنبياء ليتدرع العباءة من الحاجة لايجد غيرها » قلنا : سبحان الله . قال : « أفعجبتم ان كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء » ولهذا كان أرضاهم وأرضى الخلق عن الله نبينا محمد ﷺ فى قضائه وقدره . وأعظمهم له حمداً ، ولم يمكنى أحصر ماوقع له فى ذلك لكثرته وشهرته ، ومع ذلك بكى يوم مات ابنه ابراهيم عليه السلام رأفة ورحمة منه للولد ورقة عليه وقلبه ﷺ ممتلئ بالرضا عن الله تعالى وشكره له واللسان مشتغل بحمده وذكره * ولما ضاق هذا المشهد والجمع بين الامرين - يعنى رحمة الولد والرقة عليه والرضاء عن الله تعالى - على أن بعض العارفين من السلف يوم مات ولده جعل يضحك . فقيل له : تضحك فى مثل هذه الحال ؟ فقال : إن الله تعالى قضا بقضاء فاحببت أن أرضى بقضائه . فاشكل هذا على جماعة من العلماء وأرباب الاحوال والتصوف وقالوا : كيف يبكى رسول رب العالمين ﷺ يوم مات ولده وهو أرضى الخلق عن الله ، ويبلغ الرضا بهذا العارف الى أن ضحك يوم مات ولده ؟ قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هدى نبينا ﷺ أكمل من هدى هذا العارف ، فانه ﷺ أعطى العبودية حقها ، فاتسع قلبه للرضا عن الله ورحمة للولد والرقة عليه ، فحمد الله ورضى عنه فى قضائه وبكى رحمة ورقة فحملته الرحمة على البكاء ، وعبوديته لله ومحبته له على الرضا والحمد ، وهذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين ، ولم يتسع بطانه لشهودهما والقيام بهما فشغلته ، عبودية الرضاء عن عبودية الرحمة والرقة ، والله تعالى أعلم انتهى *

(قلت) ومما يؤيد ما ذكره الشيخ رحمه الله قصة نبى الله يعقوب اسرائيل الله عليه السلام ، إذ حكى الله تعالى عنه انه ابيضت عيناه من الحزن . وقال : (فصبر جميل ، وإنما أشكوا بثى وحزنى الى الله) فمشهده أوسع من مشهد هذا العارف ، بل نبى الله يعقوب أبلغ من هذا العارف ، فان يعقوب كان له عدة من الولد ومع هذا فهذه الرقة والرحمة التى عنده مع الرضاء الكامل ، فاستعمل الرضاء والتفويض . فى قوله : (إنما أشكو بثى وحزنى الى الله) واستعمل الرقة والرحمة عند وابيضت عيناه من الحزن ، فطريقة يعقوب عليه السلام أفضل من طريقة هذا العارف ، مع كثرة أولاد يعقوب ، وهذه رحمته ورقته ، وأما هذا العارف على ما قيل لم يكن له ولد سواه * وروى الامام أحمد فى كتاب الزهد باسناده عن ثابت البنانى : أن صلة بن أشيم كان فى مغزى له ومعه ابنه . فقال له : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فجاء فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم أبوه فقتل ، فاجتمعت النساء عند أمه معاذة العدوية . فقالت : مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئننى مرحبا بكن ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن * وذكر أبو الفرج ابن الجوزى ، قال أبو جحيفة: انا لمتوجهون الى همذان ومعنا رجل من الأزد فجعل يبكى . فقلت : أجزع هذا ؟ قال : لا ولكن تركت ابنى فى الرحل فلوددت انه كان معى فدخلنا الجنة جميعا *

﴿ فصل ﴾

الرضاء من أعمال القلوب ، لكن وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى ان بعضهم فسر الحمد بالرضاء ، ولهذا جاء فى الكتاب والسنة حمد الله على كل حال ، وذلك يتضمن الرضا بقضائه ، وفى الحديث : « أول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » وفى الحديث مرفوعا ، أن النبى ﷺ كان اذا أتاه أمر يسره . قال : « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه أمر يسوءه قال : « الحمد لله على كل حال » وقد تقدم فى مسند الامام أحمد من

حديث أبي موسى الاشعرى ، أن النبي ﷺ . قال : « اذا قبض الله ولد العبد يقول الله لملائكته أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله عزوجل : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد » ومحمد نبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد ، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، والرضاء والحمد على الرضاء له مشهدان (أحدهما) علم العبد بان الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه ، أحسن كل شئ خلقه وأتقن كل شئ وهو العليم الحكيم (الثانى) أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه كما روى مسلم فى صحيحه ، عن النبي ﷺ انه . قال : « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً وليس ذلك الا للمؤمن إن أصابته سراء شكره فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » فاخبر ﷺ ان كل قضاء يقضيه الله المؤمن الذى يصبر على البلاء ويشكر على الرخاء فهو خير له كما قال تعالى : (إن فى ذلك لآيات لكل صبارٍ شكور) فمن لايصبر على ، البلاء ولا يشكر على الرخاء ، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له ، ولهذا أجيب من أورد على هذا بما يقضى على المؤمن من المعاصى بجوابين (أحدهما) أن هذا انما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله كما فى قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وكقوله تعالى أيضا (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) أى بالسراء والضراء (الثانى) ان هذا فى حق المؤمن الصابر الشاكر ، والذنوب تنقص الإيمان ، فاذا تاب العبد أحبه الله وقد ترتفع درجته بالتوبة . قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة ، فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير : أن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار ، وان العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة ، وذلك انه يعمل الحسنة فتكون نصب عينيه ويعجب بها ، ويعمل السيئة فتكون

نصب عينيه فيستغفر الله و يتوب اليه منها . وثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ . قال : « الاعمال بالخواتيم » والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع بعشرة أسباب (أحـدهما) أن يتوب توبة نصوحا ليتوب الله عليه ، فان التائب من الذنب كمن لاذنب له (الثانى) أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له (الثالث) أن يعمل حسنات يمحوها لقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) (الرابع) أن يدعوا له اخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً (الخامس) أن يهد له اخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به (السادس) أن يشفع فيه نبينا محمـد ﷺ (السابع) أن يبتليه الله فى الدنيا بمصائب فى نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك (الثامن) أن يبتليه فى البرزخ بالفتنة والضغطة وهى عصر القبر فيكفر بها عنـه (التاسع) أن يبتليه الله فى عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنـه (العاشر) أن يرحمـه أرحم الراحمين . فمن أخطأته هـذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فى الأحاديث الآلهيات (إنما هى أعمالـكم ترد عليكم فمن وجـد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . والمقصود أن المؤمن اذا كان يعلم أن القضاء خيراً له فيرضى عن الله بما قسم له ؛ كان قد رضى بما هو خيراً له ، وفى الحديث ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه . قال : « ان الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط »

﴿ الباب الحادى والعشرون ﴾

(فيما يقدح فى الصبر والرضاء وينافيهما)

قد تقدم ان الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ، وانه حبس النفس عما لا يحسن فعـله ولا يجمل ، وحبس اللسان عما لا يحسن قوله ، فاذا كان معنى هذه المقالة ان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله ، والقلب

عن التسخط ، والجوارح عن لطم الخدود ، وخمش الوجوه ، وشق الثياب ، ونحو ذلك ، وأن العبد يرضى عن الله فيما يفعله به مما يحب وقوعه ، ومما يكره وقوعه ، فاذا وقع من العبد عكس ما ذكرته كان متلبساً بالنقائص والرذائل ، فمن شكا ما به الى مخلوق مثـله كان قد شكا ربه الى بعض مخلوقاته ، فمثله كمثل من شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضره ونفعه (الى من لا يرحمه وليس بيده نفعاً ولاضراً . فهذا من عدم المعرفة وضعف الايمان شكاية الضار النافع الذى بيده أزمة الأمور ، الى من لا يضر ولا ينفع . قال شقيق البلخى : من شكا مصيبة نزلت به الى غير الله لم يجد فى قلبـه لطاعة الله حلاوة أبدا . وأما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى ، فان كان للاستعانة بان يرشده أو يعاونه أو يوصله الى زوال ضره بما ينفعه مما هو اخبر منه به ، كالحجام يحجمه و يقلع ضرسه ، أو رجل صالح يدعوا له ، فهذه الامور على هـذا الوجه لم تقدح فى صبره لأن هذا كاخبار المريض الطبيب بحاله (واخبار المبتلى فى جسده ببلائه لمن يرجوا أن يكون فرجه على يديه ، وكذلك اخبار المظلوم لمن ينتصر به ، واخبار المبتلى فى دينـه لمن هو مسترشـد الهداية ليبين له طرق الهداية ان وفق لها ، وقد ثبت أن النبى ﷺ كان اذا دخل على المريض سأله عن حاله . ويقول : « كيف تجدك » وهو استخبار منـه واستعلام بحاله . وأما الأنين فهل يقدح فى الصبر ؟ فيه روايتان عن الامام أحمـد ، قال القاضى أبو الحسين : أصح الروايتين الـكراهة لما روى عن طاووس انه كان يكره الأنين فى المرض * وقال مجاهد : يكتب على ابن آدم مما يسطر به حتى أنينه فى مرضـه انتهى . وقال جماعة من العلماء : الأنين شكوى بلسان الحال فينافى الصبر . وقال عبـد الله بن الامام أحمد : قال لى أبى فى مرضه الذى توفى فيـه : أخرج الى كتاب عبـد الله بن ادريس ، فأخرجت الـكتاب . فقال : اخرج أحاديث ليث بن أبى سليم ، فاخرجت أحاديث ليث بن أبى سليم . فقال : اقرأ

على أحاديث الليث. قال قلت لطلحة : إن طاووساً كان يكره الانين فى المرض فما سمع له أنين حتى مات ، فما سمعت أبى أن فى مرضه ذلك الى توفى * والرواية الثانية انه لا يكره ولايقدح فى الصبر بل قد يقدح فى الرضا . قال بكر بن محمد عن أبيه سئل الامام أحمد عن المريض يشكوا ما يجد من الوجع . فقال : يعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ . قال : نعم ، حديث عائشة ،وارأساه . وجعل يستحسنه وقال المروزى : دخلت على أبى عبد الله أحمد بن حنبل وهو مريض فسألته ، فتغرغرت عينه وجعل يخبرنى ما مر به فى ليلته من العلة * قال العلامة ابن القيم رحمه الله : اعلم ان الأنين على قسمين ، أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفريج فلا يكره ، والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

ومما ينافى الصبر والرضاء ما يفعله أ كثر الناس فى زماننا عند المصيبة من شق ثيابهم ، ولطم خدودهم ، وخمش وجوههم ، ونتف شعورهم ، والتصفيق باحدى اليدين على الأخرى ، ورفع أصواتهم عند المصيبة ، ولقد حضرت عند شخص حين فارق الدنيا وهو من الجند فحين خرجت روحه أتوا بجعبة نشاب فكسروها بمجموعها واحدة بعد واحدة عليه ،وأتوا أيضا بعدة الحرب فرموها عليه ، وأنا مع ذلك أعظهم وأقول لهم : هذا حرام نهى الله ورسوله عن ذلك ، وهذا فيه اضاعة مال . فقال بعضهم لى : لم يصبك ما أصابنا . فخرجت عنهم ، ثم إنهم بعد ذلك ندموا على ما فعلوا من اتلاف ما أتلفوه . ولهذا قال النبى ﷺ : « إنما الصبر عن الصدمة الأولى » لان فى تلك الحالة هيجان الحزن واستغراق الذهن ، وذهول العقل بما دهمه ، وتمكن الشيطان منه ،فان الشيطان لعنه الله دائما يتمكن من بنى آدم عند ذهول عقلهم ، إما بسكر كما وقع فى قصة هاروت وماروت، وهى مشهورة حين دعتهما المرأة الى قتل الولد ، أو السجود للصنم ، أو شرب القدح من الخمر مراراً

وانهما شربا القدح من المسكر ، فلما شربا سكرا ، فاتيا كلما أمرتهما به . وكذلك ذهول العقل عندالعشق ، وعند الولاية ، وعند كثرة المال ،وعند المصيبة ، فكل هذه الأمور العارضة للعبد فى الغالب يحصل له بها ذهول العقل فيتمكن الشيطان بها منه ، نسأل الله العافية ودوام العافية ، والثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد فان النبي ﷺ كان يسأل الله فى دعائه : « اللهم انى أسألك الثبات فى الأمر » الدعاء المشهور . وكان يقول : « اللهم يامثبت القلوب ثبت قلبى على دينك » فالثبات فى الأمور مطلوب شرعا ، كما أن العبد منهى عن الامور المذمومة من اللجاج والطيش ، والعجلة والحدة ، وافتقاد الحزن وغير ذلك من الامور المذمومة التى لاأحصيها عدداً ويحاً ، لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الامور المذمومة التى نهى الشرع عنها ، غير تائب منها ، معتمداً على صومه وصلاته وحجه وعبادته ، وهو مع ذلك فرح مستبشر كانه قد جاز الصراط وأعطى البراءة وجاءه البشير من الله تعالى بالفوز والخلاص ، ويحاً لمن يغتر باعماله الظاهرة و باطنه مثل المزابل ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق *

﴿ فصل ﴾

وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم ، فهو لا ينافى الصبر والرضاء وقد تقدم لنا قريبا من ذلك . قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) . قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً . مع قوله تعالى : (انما أشكوا بثى وحزنى الى الله) وقوله تعالى عنه فى أول السورة (فصبر جميل) وقد جاء فى أثر مرفوع الى النبى ﷺ : « من بث فلم يصبر» لكن يعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من البكاء ولم ينافى حزنه وبكاءه صبره فانه عليه السلام ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق ، وانما شكاه الى الله . وروى حماد ابن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنه

عن النبي ﷺ . قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » قال خالد بن أبي عثمان : مات ابن لى ، فرآنى سعيد بن جبير مقنعاً . فقال لى : إياك والتقنع فانه من الاستكانة . وقال بكر بن عبد الله المزنى : كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة . وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السئ ، والظن السئ . ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع اليه العلماء والفقهاء . فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا انه اذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع * وقال ابن عبدالعزيز : مات ابن لى نفيس . فقلت لامه : اتق الله واحتسبيه عند الله واصبرى . فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : اتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت . فقال : ابنك يقضى وأنت تصلى : فقال : ان الرجل اذا كان له عمل يعمله فتركه يوماً واحداً كان ذلك خللا فى عمله . وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيته أحسن شئ شارة وأطيبه

﴿ فصل ﴾

ولا بد أن يعلم المصاب أن الذى ابتلاه بمصيبته أنه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وانه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه ، ولا ليجتاحه ، وانما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طريحاً على بابه لائذا بجنابه مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى اليه. قال الشيخ الامام العالم العارف المكاشف عبد القادر الكيلانى رحمة الله عليه لابنه : يابنى ان المصيبة ماجاءت لتهلكك وانما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك ، يابنى القدر سبع ، والسبع لا يأكل الميتة . انتهى كلامه . والمقصود أن المصيبة كير العبد الذى يسبك بها حاصله فاما أن يخرج ذهبا أحمر ، وإما أن يخرج خبثاً كله كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

فان لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فاذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لابد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل ، فالعبد اذا امتحنه الله بمصيبة فصبر عند الصدمة الاولى ، كما ورد فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : مر النبى ﷺ بامرأة عند قبر وهى تبكى فقال لها : « اتق الله واصبرى » فقالت : اليك عنى فانك لم تصب بمصيبتى ، ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى ﷺ فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين . فقالت : لم أعرفك يارسول الله . قال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » رواه البخارى . ولفظ مسلم : أتى على امرأة تبكى على صبى لها . فقال لها : « اتق الله واصبرى » فقالت : وما تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ، فاخذها مثل الموت ، فاتت بابه فلم تجد على بابه بوابين ، وذكر تمام الحديث *

فصل

ومما يقدح فى الصبر والرضاء وينافيهما ، اظهار المصيبة والتحدث بها واشاعتها سواء كان الكلام بها بين الاصحاب أو غيرهم ، اللهم الا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه : مات فلان . يعنى والده أو ولده . ونحو ذلك ، ومايريد به اظهار المصيبة ، وانما يريد اعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك مماهو من فروض الكفايات ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر ، وقد تقدم ان الاعلام بالميت هل هو نعى أم لا ، والمقصود ان كتمان المصيبة رأس الصبر . قال الحسن بن الصباح فى مسنده : حدثنا خلف بن تميم ثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله ﷺ : « من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة » وذكر انه من بث لم يصبر * وروى من وجه

آخر من حديث أنس رضى الله عنه رفعه الى النبى ﷺ . قال : « من كنوز البر كتمان المصائب وما صبر من بث » ولما نزل فى إحدى عينى عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينه التى أصيب فيها فلم يشعر به فعلم أن الشيخ قد أصيب * ودخل رجل على داود الطائى فى فراشه ، فرآه يزحف فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون . فقال : مه لا تعلم بهذا أحداً . وقد أقعد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد * وشكا الأحنف الى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه . فقال : ما تكرر على لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فما شكوتها الى أحد * ومن المنافاة للصبر والرضاء الهلع عند ورود المصيبة وهو الجزع . قال الله تعالى : (إن الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً) قال الجوهرى : الهلع أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع . وفى الحديث « شرما فى العبد شح هالع وجبن خالع » قال العلامة ابن القيم رحمه الله : هنا فى هذا الحديث أمران ، أمر لفظى وأمر معنوى ، فاما اللفظى فانه وصف الشح بكونه هالعاً ، والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوعاً ، ولا يقال : هالع له ، فانه لا يتعدى وفيه وجهان (أحدهما) انه على النسب ، كقولهم ليل نائم ، وشر قائم ، ونهار صائم ، ويوم عاصف كله عند سيبويه على النسب أى ذو كذا * (والثانى) أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظائر . وأما المعنوى ، فان الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ، ولا سيما اذا كان شحه هالعاً ، أى ملولة فى الهلع ، وجبنه خالعاً ، أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة . كما يقال : لا يطرد ولا يثرد انتهى كلامه * وروى سعيد بن منصور فى سننه ، حدثنا اسماعيل بن عياش عن سليمان بن سليم عن يحيى ابن جابر أن رجلا أتى النبى ﷺ . فقال : ما يحبط الأجر فى المصيبة ؟ قال : « تصفيق الرجل بيمينه على شماله – والصبر عند الصدمة الأولى – فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط » وذكر باسناده أيضاً رفعه الى النبى ﷺ . قال : « إن القوم ليصابون بالمصيبة فيجزعون ويهلعون فما يكون لهم من أجرها شىء فيمر بهم الرجل

من المسلمين فيسترجع فيكتب الله عز وجل له أجر ما أعطاهم من تلك المصيبة»
وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أحمد بن عبد الأعلى حدثني شيخ من آل ميمون
ابن مهران أن الحجاج أصيب بابن له فاشتد جزعه عليه ، فدخل فغير ثيابه ومس
شيئاً من طيب وجلس ، وأذن للناس فلم يتكلموا . فقال : حسبي ثواب الله من كل
نكبة ، وحسبي بقاء الله من كل هالك ، تحدثوا .

﴿ فصل ﴾

والله تبارك وتعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره ورضاه
بما قضاه عليه ، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده اذا نزل بهم مايختبرهم به من المصائب
وغيرها ، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم ، فيثيب كل عبد على قصده ونيته ،
وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : (ولقد
أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) والعبد أضعف من أن يتجلد
على ربه ولا يشكو اليه حاله ، فانه اذا كان سادات الخلائق وهم الأنبياء المعصومون
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قد أثنى الله تعالى عليهم حيث شكوا مابهم الى
الله تعالى . فقال تعالى عن بعضهم : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن ألن نقدر
عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وأثنى
على أيوب بقوله : (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وعلى يعقوب : (إنما
أشكوا بثي وحزني الى الله) وعلى موسى بقوله : (إني لما أنزلت الى من خير فقير)
وقد شكا اليه خاتم أنبياءه ورسله بقوله : « اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتي وقلة
حيلتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين » الحديث
المشهور في دعاء الطائف وهو دعاء عظيم ، فالشكوى الى الله تعالى لا تنافي الصبر
ولا الرضاء ، بل إعراض العبد عن الشكوى الى غيره من جهله بخالقه وعدم رضائه
وصبره بما ابتلاه الله تعالى به والله تعالى يمقت من يشكوه الى خلقه ، ويحب من

يشكو ما به اليه . قيل لبعضهم : كيف تشتكى الى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؟ فقال :

قالوا أتشكو اليه   ما ليس يخفى عليه
فقلت ربى يرضى   ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن الحسن . قال : قال رجل : لأمتحنن أهل البلاء . قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حدته من الوجع ، وان ذلك لبعين الله ، أحبه الى أحبه الى الله عز وجل ، ووددت ان ربى قطع منى الأعضاء التى اكتسبت بها الاثم وانه لم يبق منى الا لسانى يكون له ذاكراً . قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفاك الخلق كلهم عبيد الله وعياله فاذا نزلت بالعباد علة فالشكوى الى الله ليس يشكى الله الى العباد *

* الباب الثانى والعشرون *

(هل المصائب مكفرات أو مثيبات)

وقد اختلف العلماء فى هذا الباب اختلافا كثيراً ، وتباينوا فيه تباينا شديداً فذهب بعض العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة ، وذهب طائفة أخرى من العلماء الى أنه لايثاب على المصائب مطلقاً ، وانما يثاب على الصبر عليها ، حتى قطع به ابن عبدالسلام فى قواعده ، وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء الى أن اطلاق القول بالثواب ، واطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه مايدفعه ، وان ثم فرق مؤثراً نذكره فيما بعد ان شاء الله * وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت اليه كما سنذكره بعد * احتجت طائفة من العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى : (ذلك بانهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون

موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) الآية وفى الصحيحين عن النبى ﷺ . قال : « مايصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولاحزن ولاغم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » ـ الوصب الوجع اللازم ـ ومنه قوله تعالى : (ولهم عذاب واصب) أى لازم ثابت ، والنصب التعب * وروى الحاكم فى المستدرك أن النبى ﷺ . قال : « المصاب من حرم الثواب » * وروى ابن ماجه من حديث أبى ذر رضى الله . قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعته ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » ورواه الامام أحمد موقوفاً على أبى مسلم الخولانى . وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ . قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث[1] الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ورواه أحمد والنسائى « ما مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث الاغفر لهما » وغير ذلك من الأحاديث مما اختصرته . قال النواوى رحمه الله : فى شرح مسلم عند قوله ﷺ : « ما مسلم يشاك بشوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » وفى رواية « الا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة » وفى بعض النسخ « وحط عنه بها خطيئة » بغير ألف ، وفى رواية « الا كتب له بها حسنه أو حطت عنه بها خطيئة » قال : وفى هذه الاحاديث بشارة عظيمة

---

(١) قال الجراعى : فى حاشية الفروع ، وقوله لم يبلغوا الحنث أى لم يبلغوا مبالغ الرجال ، ويجرى عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ـ وهو الأثم ـ قال القاضى : لافرق بين الولد الصغير والكبير ، والحكمة فى تنصيصه صلى الله عليه وسلم على الصغير هو حصول المشقة بموته لكثرة الحنو عليه ، وهذا التنصيص خرج مخرج الغالب فنعزيه الى كل مولود وجد فيه ذلك . اه

للمسلمين ، فانه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شئ من هذه الامور وفيه تكفير الخطايا بالامراض والاسقام ومصائب الدنيا وهمومها وان قلت مشقتها ، وفيه رفع الدرجات بهذه الامور وزيادة الحسنات ، وهذا هو الصحيح الذى عليه جماهير العلماء . وحكى القاضى عياض عن بعض العلماء : أنها تكفر الخطايا فقط . ولم يبلغهم هذه الاحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات ، وكتب الحسنات انتهى كلامه . ويؤيد ذلك قول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت رجلا اشتد عليه الوجع من رسول الله ﷺ . وقوله ﷺ : « إنى لاوعك مثل رجلين منكم » وإنك لتوعك وعكا شديداً وقوله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل » . قال جماعة من العلماء : والحكمة فى كون الأنبياء أشد بلاء ثم الامثل فالامثل ، أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحه الاحتساب ، والأنبياء معصومون من الخطايا ، فتعين الثواب والله أعلم * وفى حديث المرأة التى كانت تصرع دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب . وفى مسلم ، قالت امرأة : يارسول الله دفنت ثلاثة من الولد . قال : « احتظرت بحظار من النار » قال بعض السلف : فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة فانه قد ثبت أن النبى ﷺ . قال : « المصاب من حرم الثواب » * وقد تقدم . وتقدم فى أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول والله أعلم * احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بان المصائب لا يثاب عليها ، وانما يثاب على الصبر عليها . بقوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . قال ابن عبد السلام فى قواعده : الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه . قال تعالى : (والذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم : (إنا لله وإنا اليه راجعون) فالاسترجاع هو سبب فى حصول ما ذكر ، وكذلك

حـديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنـه . انه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل لملك الموت : ياملك الموت قبضت ولد عبدى ، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده ، قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع ، قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمـد » فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له فى الجنة ، وتسمية البيت كافية . قال القاضى عياض : وقد روى عن عبد الله بن مسعود . انه قال : الوجع لا يكتب به أجر إنما يكفر الخطايا فقط *

﴿ فصل ﴾

(فى سياق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله)

أما ما يحدثه الله من المصائب ، فتارة بغـير فعل الخلائق كالامراض ونحوها وتارة بفعلهم ، وفصل الخطاب أن المصائب تولدت عن عمل صالح كما تتولد عن الجهاد والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ونحوه ، فهذا يثاب عليه ، فان الانسان يثيبه الله على عمله وعلى ما يتولد عن عمله اذا أقدم على احتماله ، فان المجاهد قد أقدم على الجهاد وهو يعلم انه يؤذى فى الله عز وجل ، وقد يناله ضرر فى جهاده ، فتموت فرسه ، أو يؤخذ ماله ، أو يضرب أو يشتم ونحو ذلك . كما قال تعالى :(ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الـكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) فاخبر تعالى انه يكتب لهم عمل صالح بما يصيبهم من التعب والجوع والعطش ، ونحو ذلك الذى حصل لهم بسبب الجهاد فى سبيل الله عز وجل ، فهذه الأمور يغفر الله بها خطاياه ، و يؤجر على هذه المصائب لانها حصلت بسبب جهاده ، فهى مما تولد عن عمله ، وما تولد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها * وأما الجوع والعطش والتعب الذى يحصل بدون ذلك فلا يثاب إلا على الصبر عليه ، فانه ليس من عمله ولا متولداً عن عمل صالح ، لـكن هو من المصائب التى يكفر الله بها خطاياه * وأما المصيبة بالولد ، فالولد تولد عن جماعه

الذى صان نفسه به عن الزنا وقصد به النسل وتكثير الأمة وغض البصر عن المحارم ، فاذا حصل له ذلك ثم مات الولد فقد أثيب عليه من جهة ، وكفر الله به خطاياه من جهة ، لانه تولد عن عمله * وأما الامراض والاسقام فهى تكفر الخطايا * وقد روى أن أبا عبيدة بن الجراح لما عادوه . وقالوا له : أجر . فقال : ليس لى من الأجر مثل هذه ، ولكن المرض حطة يحط الله به الخطايا . فهذا الذى ذكرته هو الفرق بين المصائب التى يثاب عليها ، والمصائب التى لا يثاب عليها ؛ فان بعض الناس يظن إنه يثاب على كل مصيبة ، ومن العلماء من يطلق القول بان المصائب يثاب عليها ، وانما يثاب على الصبر عليها . ثم قال بعد ذلك بكلام كثير : فمن فعل فعلا صالحا باختياره فأوذى واحتسب ذلك الأذى ، كان ذلك الأذى من عمله الصالح الذى يثاب عليه ، كالصائم اذا احتسب جوعه وعطشه . وقد قال ﷺ : « لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » والخلوف تولد عن صومه بغير اختياره ، لكن تولد عن عمل صالح وكذلك القائم بالليل اذا احتسب تعبه وسهره ، فان الأذى الذى يحصل باختيارك فى طاعة الله أنت جلبته على نفسك باختيارك طاعة الله ، فليس هو كمن أوذى بغير اختياره ، فان ذلك أذاه مصيبة محضة ، لكن هى حق له على الظالم . وقال الشيخ رحمه الله فى قول النبى ﷺ : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له وليس ذلك لاحد الا للمؤمن إن أصابته سراء شكر كان خيراً له و إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » وهى نفسها تكفر خطاياه و يؤجر على الصبر عليها ، ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا ، وله فيها رحمة من جهة ما يؤجر على الصبر عليها ، لا سيما اذا اقترن بها توبة وأنابة الى الله ، وتوكل عليه وتوحيد له ، واخلاص الدين له ، فانها تكون من أعظم النعم ، ومصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله . قال بعض السلف : يا ابن آدم لقد بورك لك فى حاجة أكثرت فيها قرع باب سيدك ، وفى الحديث .

اذا قالوا للمريض : اللهـم ارحمه . يقول الله عز وجل : كيف أرحمـه من شئ به أرحمه ؟ وفى الأثر : يا ابن آدم البلاء يجمع بينى و بينك ، والعافية تجمع بينك و بين نفسك . انتهى * والمقصود من كلام الشيخ رحمـه الله ان كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائب أثيب عليـه بخلاف المصائب التى لم تتولد عن عمـله فانها مكفرات لامثيبات *

﴿ فصل ﴾

قال الشيخ رحمه الله : وكثير من الناس لايعرف النعمة الا مايلتذ به فى دنياه، كما قال بعض السلف : من لم يعرف نعمة الله الا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه : وحضر عذابه . فمن الناس من يرى النعمة فى بدنه فقط بالأكل والشرب والنكاح ، ومنهم من يرى النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الامر والنهى وقهر الاعداء ، ومنهم من يرى النعمة فى جمع الاموال والقناطير المقنطرة ، وهؤلاء من جنس الكفار ، يرون هـذه نعما ، وأعـلى من هؤلاء من يرى النعمة فى الايمان والعمل الصالح ، لـكن لايرى الأمر بذلك والجهاد عليـه نعمة ، بل يرى فيه من المضار مايوجب تركه ، والذين يرون هذه النعمة منهـم من لايراه نعمة الامع السلامة والغنيمة ، فان جرح أو قتل بعض أولاده ، أو أخـذ ماله ، عـدّ ذلك مصيبة لانعمة * وحجة هؤلاء كلهم ان النعمة ما يتنعم به العبد وهذه الامور تؤلم للنفس فلا تـكون من النعم بل من المصائب ، ولا ريب أنها من المصائب باعتبار ما يحصـل فيها من الألم ، ولهذا أمر بالصـبر عليها ، لـكن لا منافاة بين كون الشئ مصيبة باعتبار ، ونعمة باعتبار ، فباعتبار ما يحصـل به من الأذى هو مصيبة ، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة وهذا لانه اذا قيل هذا يكفر به الخطايا و يؤجر عليها و يؤجر على الصبر عليها كانت نعمة ، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الـكريه ، هو مصيبة باعتبار مرارته ، وهو نعمة باعتبار ازالته للمرض الذى هو أشد ضرراً فيه ، وأدنى الشرين

اذا زال أعظمهما كان نعمة ، ومن استعمل نعمة الله فى المعاصى كانت شراً فى حقه ، لانها جرته الى العذاب الذى هو أعظم من تلك اللذة ، كمن أكل عسلا فيه سم ، فان ضرر السم أعظم من حلاوة العسل . والله أعلم انتهى كلامه *

﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾

(فى الصدقة عن المصاب به وأفعال البر عنه)

وهذا الباب مما يطيب قلوب أهل المصائب على مصابهم ، فانهم اذا بدلوا بدل الحزن والبكاء ولطم الخدود وشق الثياب والنياحة ، الصدقة والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والصلاة والصيام ، ونحو ذلك من أفعال القرب ، وعلموا وصولها الى موتاهم ، وانه يحصل لهم بذلك -: إما تكفير سيئات ، أو رفع درجات ، أو كلاهما حصل لهم السرور بذلك والفرح الزائد ، وهذا الباب منعقد على اهداء القرب الى الموتى والاحياء فنذكر اختلاف العلماء فى وصول ثواب ذلك اليهم ، فمن أنواع القرب قرب لم يختلف العلماء فى وصول ثوابها الى الموتى ؛ وثم قرب اختلف العلماء فى وصول ثوابها اختلافا كثيراً ، فنذكر ما يسره الله تعالى فى ذلك ، فان ذكر الاختلاف والبسط سبيل ذلك الكتب المطولة *

﴿ فصل ﴾

(فى ذكر اختلاف الناس فى وصول ثواب اهداء القرب الى الموتى)

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وقضاء الدين وآداء الواجبات ، فلا أعلم خلافا فى وصولها ، حكاها غير واحد من العلماء ، ومن العلماء من يشرط فى الوصول اذا كانت الواجبات مما يدخله النيابة . قال الله تعالى : (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) الآية . وقال تعالى : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ودعا النبى

ﷺ لابى سلمة حين مات أبو سلمة ، ودعاء النبى ﷺ للميت الذى صلى عليه ، وشرع الله ذلك له ، وشرعه لكل من صلى على ميت بقوله : « اللهـم أغفر لحينا وميتنا ، وكذلك اللهم أغفر له وارحمه وعافه واعف عنه » الدعاء المشهور المعروف .
وأما وصول العبادات المالية المحضة ، كالعتق والصـدقة ونحوهما فجمهور العلماء من أهل السنة والجماعة على وصول ثوابها الى الموتى كما يصل اليهم الدعاء والاستغفار ، وأما وصول ثواب الاعمال البدنية كالصوم والصلاة والقراءة ونحو ذلك فالصحيح الوصول وهو مذهب الامام احمد وأبى حنيفه وطائفة من أصحاب مالك والشافعى لما يأتى من الاحاديث بعد إن شاء الله *

﴿ فصل ﴾

(فى الآيات والاحاديث الواردة فى هذا الباب)

قد تقدم قوله تعالى : (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالأيمان) الآية . وقال تعالى : (واستغفر لذنبك وللؤمنين والمؤمنات) وقال تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) فلو لم ينفعهم ذلك لم يخبر الله تعالى به ترغيباً ، وأما الأحاديث فمنها ، ما روى الامام احمد من حديث الحسن بن سعد بن عبادة أن أمه ماتت ، فقال : يارسول الله إن أمى ماتت أفأتصـدق عنها ؟ قال : نعم . قال : قلت فاى الصـدقة أفضل ؟ قال : سقى الماء . قال الحسن : فتلك سقاية آل سعد بالمدينة . ورواه النسائى أيضا ، ومنها عن معقل بن يسار . قال قال رسول الله ﷺ : « اقرأو يس على موتاكم » رواه أبو داود وابن ماجه ورواه الأمام احمد ولفظه : يس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة الاغفر له ، واقرؤوها على موتاكم . وفيه دليل على وصول القراءة الى الميت فانه ﷺ أمرنا أن

نقرأها على موتانا ، وأمره فى هذا المكان أمر إرشاده لايجوز أن يعرى عن فائدة ، ولا فائدة للعبد بعد موته أعظم من الثواب ، فانا نعلم يقينا أن الميت من احوج الناس الى مايقربه من رحمة الله ، ويباعده من عذاب الله ، وقد امتنع عليه ذلك بعد موته بفعل نفسه فما بقى يحصل له ذلك الا بفعل غيره ، والحصول هو الثواب المترتب على القراءة والله أعلم . فان قيل قد فسر جماعة من العلماء أن المراد بقراءة يس عند الاحتضار للمسلم الذى سيموت ـ وقد ذهب الى هذا جماعة من العلماء حتى الشيخ مجد الدين بن تيمية الحرانى بوب عليه فى كتابه المنتقى ـ قيل : هذا خلاف الحقيقة ، فانه اذا حمل على من سيموت يكون حمل اللفظ على مجازه ، ومعلوم ان حمل اللفظ على حقيقته أولى من حمله على مجازه ، فان سلم انه أريد به المختصر فهو حجة على المخالف المانع من وصول ثواب القراءة الى الميت ، فان قول المخالف فى أن الحى لا ينتفع بعمل الغير ، أشد من قوله فى الميت ، فان قيل انما يحصل له به راحة وسرور كالتذاذه به فى الدنيا قلنا : هذه دعوى تفتقر الى دليل ، والأصل عدمه ، بل نقول أى راحة وسرور أعظم من ثواب يحصل للميت يرفع درجاته أو يحط عنه سيئاته ؟ وقد أفردت لهذا الكلام جزءاً وسميته (الدر المنتخب فى إهداء القرب) فمن رام كشف ذلك فليطلبه من محله ، وما نذكره هنا على سبيل التنبيه (ومنها) ماروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان العاص بن وائل نذر أن ينحر فى الجاهلية مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين ، وأن عمراً سأل النبى ﷺ عن ذلك . فقال : « أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت عنه وتصدقت عنه نفعه ذلك » رواه الامام أحمد . وهو دليل على وصول أفعال الخير الى الميت * (ومنها) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ إن أبى مات ولم يوص أفينفعه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم . رواه مسلم والامام أحمد والنسائى وابن ماجه (ومنها) عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا . قال للنبى



صلى الله عليه وسلم : « إن أمى أفتلتت نفسها ، وأراها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم » رواه البخارى ومسلم والامام أحمد * وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « ما على أحدكم اذا أراد أن يتصدق بصدقة تطوعا أن يجعلها عن والديه اذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها وله مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيئاً » رواه حرب فى مسائله بسنده * وروى ابن المنذر باسناده عن عائشة رضى الله عنها انها أعتقت عن أخيها عبد الرحمن عبداً بعد موته * وروى الدار قطنى وغيره عن عطاء بن أبى رباح مرسلا أن رجلا . قال يارسول الله : إن أبى مات أفأعتق عنه ؟ قال : نعم . وروى الدار قطنى أيضا عن الحسن والحسين رضى الله عنهما انهما كانا يعتقان عن أبيهما على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد موته. عن ابن أسيد مالك بن ربيعة الساعدى قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة . فقال : يارسول الله هل بقى من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما بعدهما وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما وإكرام صديقهما » رواه أبو داود وهذا لفظه وابن ماجه *

﴿ فصل ﴾

ومن الادلة المستحسنة . قوله صلى الله عليه وسلم فى الأضحية لما ضحى بكبشين ، فلما ذبح أحدهما . قال : « بسم الله والله أكبر اللهم هذا عن محمد وآل محمد » ولما ذبح الثانى . قال : « اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » وفى رواية ابن ماجه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موسومين فذبح أحدهما عن محمد وآل محمد ، وذبح الآخر عن أمته وعمن شهد له بالبلاغ ، ففيه دليل على أن النفع قد نال الأحياء والأموات من أمته بأضحيته صلى الله عليه وسلم والا لم يكن فى ذلك فائدة ، فانه صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى . وقال للذى قضى الدين

عن الميت : الآن بردت عليه جلدته . وحديث ابن عباس أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول - وفي لفظ لا يستنزه من البول - وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرس على كل قبر واحد . وقال : انه ليخفف عنهما مالم ييبسا » قال الخطابي : هذا عند أهل العلم محمول على أن الأشياء ما دامت على أصل خلقتها أو خضرتها وطراوتها فانها تسبح الله عز وجل حتى تجف رطوبتها ، أو تحول خضرتها ، أو تقطع من أصلها ، فاذا خفف عن الميت بوضعه ﷺ الجريدة على قبره ، لكونها تسبح الله ، فبطريق الأولى والأحرى أن تخفف القرب على اختلاف أسبابها ، وان أعظم القرب كلام رب العالمين ، الذي نزل به الروح الأمين ، على قلب أشرف المرسلين ، وقد أوصى بريدة رضي الله عنه أن يجعل جريدة على قبره . ذكره البخاري . وقد استحب ذلك جماعة من العلماء من أصحابنا وغيرهم وأنكره آخرون * وقال الشيخ محيي الدين النواوي في شرح مسلم : ذكر أن العلماء استحبوا القراءة لخبر الجريدة لأنه اذا رجى التخفيف لتسبيحها فالقراءة أولى . انتهى كلامه *

﴿ فصل ﴾

(في قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى)

وأما احتجاج بعض من خالف من أصحاب الشافعي ومالك بهذه الآية على أن الميت لا ينتفع بثواب من سعى غيره لان النبي ﷺ . قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به من بعده ، أو ولد صالح يدعو له » قالوا : ولأن نفع العبادة لا يتعدى فاعلها ، فيقال لهم : قد ثبت بالسنة المتواترة وإجماع الأمة ، أن الميت يصلى عليه ويدعى له ويستغفر له ، وهذا من سعي غيره ، وكذلك ما وافقوا عليه وسلموه من أنه ينتفع بالصدقة والعتق وهو من

سعى غيره ، فما كان جوابهم عن مورد الاجماع ، فهو جواب الباقين عن محل النزاع ، وللناس فى ذلك أجوبة متعددة سبيلها الكتب المطولة ، ولكن تحقيق ذلك أن يقال إن الله تعالى لم يقل إن الانسان لاينتفع الا بسعى نفسه ، وإنما قال : (وأن ليس للانسان الا ماسعى) وهو لايملك الا سعيه ، ولا يستحق غير ذلك ، وإنما سعى غيره فهوله ، كما إن الانسان لايملك الا مال نفسه ، ويملك نفع نفسه بمال غيره ، وقد روى عن ابن عباس أن الآية منسوخة بقوله تعالى : (والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الحقنا بهم ذرياتهم) فادخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، ولايصح هذا : لان لفظ الآيتين لفظ خبر والأخبار لاتنسخ . قال شيخ الاسلام ابن تمية : اللفظ المنقول عن ابن عباس هو من تفسير على بن طلحة الوالبي عنه ، وقد قيل إنه لم يسمعه من ابن عباس ، وقال عكرمة هى خاصة بقوم ابراهيم وموسى دون هذه الأمة ، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا ، وأما هذه الامة فلهم ما سعوا وسعى لهم.قال الشيخ : وهذا ضعيف ، لان الله إنما ذكر هذا ليخبر به هذه الامة، وليعلموا أن هذا حكم شامل ، ولو كان هذا مخصوصا بامة موسى وابراهيم لم يقم به حجة ، على أن من أرسل اليه النبى ﷺ وجميع المسلمين بما فى هذا لقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وأيضاً فمن أين لهم أن تلك الأمة لم تكن تنفعهم الصدقة عنهم بعد الموت والدعاء لهم ؟ وقد بين النبى ﷺ أنا إذا قلنا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أصابت كل عبد لله فى السماء والارض، ونحن إذا ذكرنا الصالحين من الامم وترحمنا عليهم وصل ذلك اليهم ، وليس هو من سعيهم، وابراهيم قد دعا لاولاده بنص القرآن وليس ذلك من سعيهم . وقال الربيع بن أنس: المراد بالانسان الكافر ، وهذا ليس بشىء ، لان سياق الآية يناقضه بقوله : (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وهذا يتناول المؤمن قطعا ، فلو عكس كان أولى ، مع إن حكم العدل لافرق فيه بين مؤمن وكافر . قال الحسن بن الفضل : ليس للانسان

الا ماسعى من طريق العدل ، فاما من طريق الفضـل فجايز أن يزيده الله ماشاء .
قال شيخ الاسلام بن تيمية : وهـذا القول أمثل من غيره ، ومعناه صحيح ، لـكنه لم يفسر لفظ الآية ، فان قوله ليس للانسان نفى عام فليس له الا ذلك ، وهذا هو العدل ، ثم إن الله قد ينفعه و يرحمه بغير سعيه من جهة فضله و إحسانه ، و إن كان ذلك ليس له ، ثم قال الشيخ : وقال ابن الزاغونى : إنه ليس له الا سعيه ، غير أن الاسـباب مختلفة ، فتارة يكون سعيه فى تحصيل الشىء نفسـه ، وتارة يكون فى تحصيل سببه ، مثل سعيه فى تحصيل قرابة أو نـكاح ليحصل له ولد صالح يدعو له ، أو صديق صالح ، وتارة يسعى فى خدمة أهل الدين والعبادة ، فيكتسب محبتهم بسبب سعيه فى ذلك ، قال الشيخ رحمه الله : وهذا أمثل من غيره وقد استحسنه ورجحه أبو البركات وهو ضعيف ، فانه قد ينتفع بعمل غـيره من لم يحصل سبباً ، وبسط القول على هذا وعلله بامور ، وذكر عن ابن الزاغونى قولا آخر قال : وأن ليس للانسان بمعنى وأن ليس عليـه الا ماسعى . قال الشيخ : وهـذا من ارذل الاقوال ، فانه قلب لمعنى الآية ، فانه ليس للانسان الا ماسعى ، وتمامها وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، أفترى السعى الصالح لم يدخل فى هذه؟ وبسط القول على هـذا وبين فساده ، وقد ذكرنا هـذه الاقوال ورتبناها مبسوطة فى (إهداء القرب)

﴿ فصل ﴾

ومما يستأنس به فى وصول الثواب إنه يستحب الدفن عند الصالحين لينالة بركتهم ، ونص الامام أحمد على أن الميت يتأذى بالمنكر عنـده . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . انه قال : جنبوا الميت جار السوء . وقالت عائشة رضى الله عنها : الميت يؤذيه فى قبره ما يؤذيه فى بيته . لـكن هذان الأثران و إن كان فيهما ضعف ففيهما دلالة على المسـئلة ، فان الميت اذا تأذى بالمنكر انتفع بالخير

بطريق الاولى * وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ . قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » فالله تعالى أحكم وأعدل من أن يوصل عقوبة المعصية اليه ، ويحجب عنه المثوبة والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

تستحب القراءة عند القبر ، لانه قد صح عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها. والمشهور عن الامام أحمد أن القراءة فى المقبرة وعند القبر لا تكره ، اختاره أبو بكر عبد العزيز والقاضى وجماعة من من أصحابنا ،ذكره بعض أصحابنا ، وعليه عمل الناس فى زماننا هذا . قال فى المستوعب : ولا تكره القراءة على القبر . وكان أحمد رحمه الله يكرهها ، ثم رجع رجوعاً أبان به عن نفسه . وقال : يقرأ بعد أن نهى عن ذلك . ومن أصحابنا من يتمسك بكراهته أولا ويجعل المسألة على روايتين . ثم قال بعد ذلك : فان أهدى اليه الثواب نفعه . انتهى كلامه . وهذا مذهب الحنفية، لكن اختلف أصحابهم هل تستحب القراءة أم تباح ؟ وجهان لهم . وروى عن الامام أحمد أن القراءة لا تكره حال الدفن دون غيره. وروى عنه الكراهة مطلقا، اختارها الامام عبدالوهاب الوراق وأبو حفص العكبرى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : الكراهة نقلها الجماعة عن الامام أحمد وهى قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه كالمروزى وغيره . وقال ابن عقيل وابن المنجى : تعليلا لرواية الكراهة ، بانها مدفن النجاسة كالحش ونحوه انتهى كلامهما. وذكر بعض أصحابنا عن الخلال أنه قال : المذهب رواية واحدة ، إن القراءة عند القبر لا تكره . انتهى. لكن القراءة على القبر ليست من فعل النبى ﷺ ولا أصحابه والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

(نص الامام احمد على أنه يستحب الدعاء للميت عقب دفنه)

ثم قال أحمد: قد فعله على بن أبي طالب ، والاحنف بن قيس ، ويروى عن عثمان بن عفان أنه . قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه . وقال : « استغفروا لاخيكم وسلوا له التثبت فانه الآن يسأل » رواه أبوداود وروى الطبراني من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . قال: كان رسول الله ﷺ يقف على القبر بعد مايسوى عليه التراب فيقول : « اللهم نزل بك صاحبنا وخاف الدنيا خلف ظهره اللهم ثبت عند المسائلة منطقه ولا تبتله فى قبره بما لا طاقة له به » ويروى أن علياً رضى الله عنه كان يقول : ـ إذا سوى على الميت التراب عند شفير القبر بعد ما يدفن ـ اللهم عبدك وولد عبدك نزل بك وأنت خير منزول به اللهم أوسع له مدخله ، وأغفر له ذنبه فانا لا نعلم الاخيراً وأنت أعلم به . رواه حرب الكرمانى فى مسائله. وكان أنس رضى الله عنه إذا سوى على الميت قبره قام عليه فقال : اللهم عبدك ونزل بك فارأف به وارحمه ، اللهم جاف الارض عن جنبيه ، وافتح أبواب السماء لروحه ، وتقبل منه بقبول حسن ، اللهم إن كان محسناً فضاعف له الحسنات أو قال : ـ فزد له فى إحسانه ـ و إن كان مسيئا فتجاوز عنه. رواه الامام أحمد والطبرانى وغيرهما. وذهب الشافعى أيضا الى إستحباب الدعاء عقيب الدفن وقال أكثر المفسرين : فى قوله عز وجل فى حق المنافقين (ولا تقم على قبره) معناه بالدعاء والاستغفار بعد الفراغ من دفنه . وكذلك ذكر جماعة من المفسرين : لماهم النبي ﷺ بالاستغفار لعمه أبى طالب لما مات ، وهم بعض الصحابة بالاستغفار لابويه ، أنزل الله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) الآية . فلولا إن ذلك نافع للمؤمنين كما تقدم ، لم يكن لذلك معنى ، بل لما نهى عنه للمشركين دل على وقوعه للمؤمنين ونفعه لهم. وقال محمد بن

حبيب التمار : كنت مع احمد بن حنبل فى جنازة ، فاخذ بيدى وقمنا ناحية ، فلما فرغ الناس من دفنه جئنا الى القبر، فجلس ووضع يده على القبر وقال : اللهم إنك قلت فى كتابك (فأما إن كان من المقربين) فقرأ الى آخر السورة، اللهم و إنا نشهد أن هـذا فلان بن فلان ما كذب بك ولقد كان يؤمن بك و برسولك ، اللهم فاقبل شهادتنا له ، ودعا له ثم انصرف *

﴿ فصل ﴾

هل يصح اهداء ثواب نوافل العبادات للمسلم الحى؟

وهذه مسألة لا تكاد تظفر بها فى كتاب مشهور لغرابتها ، فذكر ابن تميم فى كتابه ، فذكر وصول الثواب الى الميت . قال : وفى الحى وجهان، وذكر لى بعض فضلاء الحنفية أن وصول القرب الى الحى مذهبهم ، والدليل على الوصول قوله تعالى :(فاعف عنهم واستغفر لهم)وأيضا فان الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون مازال يدعون بعضهم لبعض عموماً وخصوصاً لاحيائهم وأمواتهم من غير نكير ، ولانه مشروع فى دعاء الميت الى يوم القيامة فى قوله : «اللهم أغفر لحينا وميتنا» . قال القاضى أبو يعلى : وليس يعرف عن الامام أحمد رواية فى الفرق بين الحى والميت ، بل ظاهر قوله يعمهما . وقـد دل عليه الكتاب والسنة فى الدعاء والاستغفار للتساوى فلا فرق . وقال الشيخ شمس الدين بن عبـد القوى فى مجمع البحرين : هـذا ليس له نكير فهو إجماع ولا شبهه لمن قال بعدم الجواز. انتهى كلامه . وقال ابن عقيل فى المفردات : إن القراءة ونحوه لا تصـل الى الحى فانه يفتح مفسـدة عظيمة ، فان الاغنياء يتكلون عن الأعمال يبذل الأموال التى تسهل لمن ينوب عنهم ، فيفوتهم أسباب الثواب بالاتكال على الثواب ، وتخرج أعمال الطاعات عن بابها الى المعاوضات . انتهى كلامه . فلو قال قائل : نحن نلتزم ذلك لوروده فى الكتاب والسنة ، ونقول :ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾

(فى ذكر عمارة القبور)

وقد اشتغل بعض أهل زماننا ممن أصيب بموت أقاربه، ببناء قبورهم وتبليطها وتجصيصها ، وبناء التربة المحتوية على القبور وتحسينها وتزويقها ، ويزرعونها أنواع الرياحين ، ويصعدون اليها فى الغالب كل يوم خميس بالاهل والأقارب وملاذ الأطعمة وأنواعها، ويظنون أن ذلك قربة وطاعة الى الله عز وجل ،وربما يقولون : فى هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى. وما علموا أن هذه الأمور من البدع المكروهة المنهى عنها ، وأن من البدع تعظيم القبور وتبليطها وتجصيصها ، وبناء القباب عليها ، كل هذا من البدع الذى كرهه السلف والعلماء ، وهو مخالف لسنة رسول الله ﷺ وقد روى أبو داود والترمذى من حديث جابر : إن النبى ﷺ نهى أن يجصص القبر ، وأن يبنى عليه . زاد الترمذى وأن يكتب عليه وأن يوطا ، وحسنه وصححه ولفظ أبى داود : أن يقعد عليه ، وقد بعث النبى ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه أن لا يدع تمثالا الا طمسه، ولا قبرا مشرفا الا سواه، وعن أبى الهياج الاسدى قال قال لى على : ألا ابعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ إذهب فلا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته رواه أبو داود والترمذى. فالسنة تسوية هذه القبور المشرفة المحجرة المطينة المجصصة ، وكذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عليها، ونهى عن اتخاذها مساجد ، و إيقاد السرج عليها، واشتد نهيه ﷺ حتى لعن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة الى القبور ، حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيدا . وكان رسول الله ﷺ يعظ الناس عند القبور ، كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى ومسلم من حديث على رضى الله عنه قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فجلس وجلسنا حوله، ومعه مخصرة ، فنكس

وجعل ينكت بمخصرته . وقال : « مامنكم من أحد الا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة» فقالوا: يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال « إعملوا وسددوا وقاربوا وكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ هذه الآية (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وفى الصحيح أيضاً إنه كان يقف عند الدفن ويقول : « استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل » .

﴿ فصل ﴾

وليعلم أن عمارة الأحياء والأموات ليست من خارج ، فان النبى ﷺ . قال: « إن الله لا ينظر الى صوركم ولا الى لباسكم ولكن ينظر الى قلوبكم » فعمارة القلب هى العمارة النافعة ، والميت فى قبره كذلك ، ليست بزخرفة القبر ولا التربة ولا تزويقها، وإنما العمارة بالصدقة عن ساكنها وأفعال القرب عنه ، وقد تقدم هذا فى الباب الذى قبله . أما علم أن القبر الذى يزخرف ظاهره إن باطنه مظلم ضيق ، وقد طرح فيه من هو من أحب أقاربه اليه فريداً وحيداً ، مستوحشاً من غير وسادة ولا تمهيد ، وقد باشر الثرى وواجه البلا ، وترك دنياه بالورى ، ونبذ منها ما كان بيده بالعرا ،مع حبيب تركه ،وقرين أسلمه ، فكل ماذكرته لك يا أخى يفطم النفوس عن الشهوات ، وتعلم أن عمارة البواطن أولى من عمارة الظواهر، وهى العمارة النافعة فى يوم القارعة ، فاذا بحثت عن الحقيقة ، ونظرت بعين البصيرة علمت أنك عن قريب صائر الى ما صار اليه ، وقادم على ما قدم عليه ، فان العبد بينما هو يمرح فى أمنيته ، غافلا عن يوم مصرعه، اذ هجمت عليه المنية فهتكت استاره ، وكسفت أنواره ، وطمست أعلامه وآثاره ،فاخرجته من قصر مشيد ، وبيت حميد ، مزخرف نضيد ،الى حفرة من الارض كحفرة أخيه أو ولده أو غيرهما ، مظلمة

ضيقة الجوانب ، مملوءة من الرعب والفزع ، فاما هى روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار ، أعاذنا الله منها . قيل لبعض الزهاد : ما ابلغ الموعظة ؟ قال : النظر فى محلة الاموات * فاذا كانت القبور النظر اليها موعظة، وهى أول منازل الآخرة وعبرة لاهل الدنيا ، فلا ينبغى التزين ولا التزخرف ولا مايفعله غالب الاغنياء من الامراء والتجار وغيرهم ، من ضرب الخام والخيام وغيرهما فى الترب ، ووضع البسط والفرش تحت ذلك وينامون عليها ، واخوانهم تحت ذلك على التراب فى حفرة ضيقة مظلمة ، فاى موعظة تعظ هؤلاء بموتاهم ؟ بل هذه غفلة نسأل الله تعالى السلامة منها *

﴿ فصل ﴾

وكان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ . قال : « إن القبر أول منازل الآخرة فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » وروى الترمذى فى جامعه أن النبى ﷺ . قال : « ما رأيت منظرا الا والقبر أفظع منه » وروى الترمذى أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناسا كانهم يكتشرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات - يعنى الموت - لشغلكم عما أرى فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت فانه لم يأت على القبر يوم الا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود ، فاذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا أما إن كنت لأحب من مشى على ظهرى الى فاذا وليتك اليوم وصرت الى فسترى صنيعى بك . قال : فيتسع له مد بصره ويفتح له باب الى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى الى فاذا وليتك اليوم فسترى صنيعى بك فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه وتختلف اضلاعه . قال : رسول الله ﷺ باصابعه

فادخل بعضها فى بعض . قال : ويقيض له سبعين تنينا لو أن واحدا منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيأ مابقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به الى الحساب قال رسول الله ﷺ إنما القبر روضـة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار »

وروى الحاكم فى كتاب الـكنى ، والقاسم بن أصبغ من حديث ابى الحجاج الثمالى قال قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت اذا وضع فيه ، ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ؟ ألم تعلم أنى بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الوحدة و بيت الدود ، ماغرك بى يا ابن آدم فان كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فيقول القبر إنى أعود عليـه خضرا و يعود جسمه نورا وتصعد روحه الى رب العالمين »

وقال مجاهـد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته تقول : أنا بيت الدود و بيت الوحدة و بيت الوحشة ، و بيت الظلمة و بيت الغربة ، هذا ما أعددت لك ياابن آدم فما أعددت لى ؟ وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : الا أخبركم بيوم فقرى ، يوم أدخل قبرى * وكان جعفر الصادق رضى الله عنه يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبون ؟ ثم يقول : حيل والله بينهـم و بين الجواب ، وكأنى أكون مثلهم ، وأدخل فى جملتهم ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه لبعض جلسائه : يافلان لقد أرقت البارحة تفكرا فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليال فى قبره لاستوحشت منـه بعد طول الأنس به ، ولرأيت بيتا تجول الهوام فيه ، ويجرى فيه الصديد ، وتخرقه الديدان ، مع تغير الريح وتقطع الاكفان ، وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه *

وقال بعض الحكماء : أربعة أبحر لأربع ، الموت بحر الحياة ، والنفس بحر الشهوات ، والقبر بحر الندامات ، وعفو الله بحر الخطيئات . فنسأل الله العظيم أن

يجعل القبر خير بيت نعمره ونسكنه !

﴿ فصل ﴾

واعلم أنه لو دخل شخص الى المقابر المزخرفة ليميز السعيد من الشقى ما علم هذا من هـذا ، وما يعلمه الا علام الغيوب ، بل قد يكون قبراً من القبور قـد درست أعلامه ، وقد بقى ممشى للدواب ، وصاحبه فى أعلا الجنان ، وقد يكون قبرا مزخرفا وقد عليت عليه القباب والبشخانات الحرير وصاحبه فى نار جهنم ، بل نقول لو دخل شخص المقابر لم يميز قبر الذكر من الانثى ، ولا الشيخ من الشاب ، ولا الحر من العبد ، فاذا كان هـذا التمييز الذى يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء فى الحياة الدنيا قد أبهم علينا بعـد الموت ، فكيف نميز السعيد من الشقى ؟ ويشبه هـذا ما روى أن الاسكندر مر بمدينة قد ملكها عـدة ملوك وبادوا : فقال الاسكندر ، هل بقى من نسل أولئك الملوك أحـد ؟ فقيل له : مابقى منهم الا رجل واحد يأوى المقابر ، فدعا به فلما أحضره قال له : ماحملك على لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجـدت الكل سواء. قال له الاسكندر : هل لك أن تتبعنى فأحيز لك بشرف أبائك إن كانت لك همة عظمية؟ فقال : إن لى همة عظيمة بشرط إن كانت بغيتى عندك تبعتك . قال : ومابغيتك ؟ قال : حياة لاموت فيها ، وشباب ليس معه هرم ، وغناء ليس معه فقر ، وسرور ليس معه حزن . قال الاسكندر : أليس ذلك عندى ولا بيدى ، فقال : أى خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هـذه الاشياء ؟ فامض لشأنك ودعنى أطلب ذلك ممن يملكه وهو عنـده . ثم عاد الى مكانه ولم يلتفت الى الاسكندر * وكان عطاء السليمى رحمه الله إذا جن الليل خرج الى المقابر فيقول : ياأهل القبور متم فوا موتاه، وعاينتم أعمالـكم فوا عمـلاه ، ثم يقول : غـدا يكون عطاء فى القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبـح * وقال سفيان الثورى : من أكثر من ذكر القبر وجده

روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار * ومر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمقابر فوقف عليها قليلا فقال : السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى فى جميع أحواله عن الله تعالى . ثم قال : ياأهل القبور أما الزوجات فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت الى اصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى * ويروى أن رجلا دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فرآه قد تغير من كثرة العبادة ، فجعل يتعجب من تغير لونه واستحالة صفته ، فقال له عمر : يا ابن أخي وما تعجبك مني ؟ فكيف لو رأيتني بعد دخولي قبري بثلاث ؟ وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقطعت الشفتان ، وتقلصت عن الاسنان ، وخرج الصديد والدود من المنخرين والفم ، وانتفخ البطن فعلا على الصدر ، لو رأيت إذ ذاك مني فهو أعجب مما رأيته الان * واعلم رحمك الله أنه من علم مصيره الى هذه الحفرة المظلمة الموحشة لم يبالغ فى تحسين ظاهرها ، مع علمه بما يؤول صاحبها اليه ؛ مع ترافة جسمه ، وحسن منظره ، ولين بدنه ، فانه عن قريب سيطرح فى حفرة تتقطع فيها أوصاله ، وتتغير فيها أحواله ، ثم ينتن بعد ذلك ويفر من رائحته من كان عنده من أحب الناس اليه إذ اطلع عليها ، فاذا نظر العبد بعين بصره وبصيرته الى قبور المترفين من أهل الدنيا كانهم لم يشاركوا أهل الدنيا أبدا فى لذاتهم وطيب عيشهم ، هم والله صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصابت الهوام فى أجسادهم ، فأطيبهم وأنعمهم من قد أمن من عذاب الله عز وجل . قال ثابت البناني : دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذا أنا بصوت يقول : ياثابت لا يغرنك

صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها *

﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾

(فى أن الله يثبت الذين آمنوا عند المسائلة)

قال الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) . قال أكثر المفسرين : هى كلمة التوحيد . وهي قول لا إله إلا الله فى الحياة الدنيا - يعنى قبل الموت - وفى الآخرة - يعنى فى القبر - وذهب بعض المفسرين الى أن قال : فى الحياة الدنيا فى القبر عند السؤال ، وفى الآخرة عند البعث ، والأول أصح * عن البراء بن عازب رضى الله أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم اذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر . يقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبى محمد ، وذلك قول الله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الآية * رواه البخارى ومسلم ، ورواه الامام أحمد مطولا ، وأهل السنن والمسانيد * ورواه الامام أبو داود فى سننه بأتم من هذا من حديث البراء أيضاً ولفظه . قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا الى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » وذكر صفة قبض الروح وعروجها الى السماء ، ثم عودها اليه الى أن قال : « وإنه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له : ياهذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » وفى لفظ « فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الاسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ قال :

فيقول : هو رسـول الله . فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت . فذلك قوله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال : فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً الى الجنة قال : فيأتيـه من روحها وطيبها . قال : ويفسح له مد بصره . قال : وإن الـكافر فـذكر موته . قال : وتعاد روحه الى جسـده فيأتيه ملـكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى . فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فافرشوه من النار ، وألبسوه من النار وافتحوا له باباً الى النار ،فيأتيه من حرها وسمومها . قال ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه قال : ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار تراباً. قال : فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب الا الثقلين ، فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح » ورواه الطبرانى بأتم من هذا ، فقد اشتمل هذا الحديث على فوائد منها ، التثبيت لأهل الاسـلام والايمان الذين آمنو بالله ،وماجاء من عند الله وصدقوا به وآمنوابرسوله واتبعوه ،ومنها الايمان بعذاب القبر واعادة الروح الى الجسد وغير ذلك من الأمور التى لاتحضرنى كما سأذكره مفصلا بعد إن شاء الله *

عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنـه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا . قال يأتيه ملـكان فيقعدانه ، فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبـد الله ورسوله . قال : فيقال له : أنظر الى مقعد من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال نبى الله ﷺ : فيراهما جميعاً ، وذكر لنا انه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ، يملأ عليـه خضراً الى يوم يبعثون . وأما المنافق أو الـكافر فيقول : لا أدرى كنت أقول ما تقول الناس فيه . فيقال : لا دريت

ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين » رواه البخارى ومسلم * وقد روى مثل حديث البراء وحديث أنس فى قبض الروح والمسائلة ونعيم صاحب القبر وعذابه عن أبى هريرة وحذيفة بن اليمان وغيرهما ، فرواه الامام أحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة ولفظه أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « إن الميت اذا وضع فى قبره إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فان كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات والصدقة والصلة والمعروف والاحسان عند رجليه ، فيأتيا من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل ، ثم يأتى من عن يمينه فيقول الصيام ما قبلى مدخل ، ثم يأتى من قبل شماله فتقول الزكاة ما قبلى مدخل ، ثم يأتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان ما قبلى مدخل ، فيقال : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد أضاءت الغروب فيقال له : هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما ذا تشهد به عليه ؟ فيقول : دعونى حتى أصلى فيقال : إنك ستصلى ، أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيتك هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد به عليه ؟ قال : فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله . فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك تموت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة . فيقال له : هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفسح فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدا منه فيجعل نسمة فى النسيم الطيب وهى طير يعلق من شجر الجنة . قال : فذلك قوله تعالى . (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وذكر فى الكافر ضد ذلك الى أن قال : يضيق عليه قبره الى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة الضنكا التى قال الله تعالى : (فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وهذا مختصر من

الحديث . ورواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ . قال : « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعد انها فذكر من ريح طيبها وذكر المسك . قال : فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الارض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه ، فينطلق به الى ربه ثم يقول: أنطلقوا به الى آخر الأجل ، قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه ، وذكر من نتنها وذكر اللعن فيقول أهل السماء : روح جاءت من قبل الأرض فيقال :انطلقوا به الى آخر الأجل » قال أبو هريرة : فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا. وفى رواية أخرى فيقول عبدك فلان - يعنى مؤمن - فيقول أرجعوه فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فانه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه ، فيأتيه آت ، وفى لفظ فيأتيه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير ، فى الترمذى فيقولان ، وفى غيره فيقول : من ربك مادينك من نبيك ؟ فيقول : ربى الله ودينى الاسلام و نبيى محمد ﷺ فينتهره ، فيقول من ربك مادينك من نبيك ؟ وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الآية . فيقول كما قال : فيقول له صدقت ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر بكرامة من الله ونعيم مقيم ، فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول: أنا عملك الصالح كنت والله سريعا فى طاعة الله ، بطيئاً عن معصية الله ، فجزاك الله خيراً ، ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار فيقول هذا منزلك لو عصيت الله أبدلك به هذا ، فاذا رأى مافى الجنة قال رب عجل قيام الساعة كيما أرجع الى أهلى ومالى ، فيقال له : اسكن ، وفى لفظ فيقال له: نم كنومة العروس الذى لايوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه وإن الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد فانتزعوا روحه كما

ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل ، وينزع نفسه مع العروق فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب الا وهم يدعون الله أن لا يعرج بروحه من قبلهم ، فاذا عرج بروحه قالوا : رب فلان عبدك ، قال : أرجعوه فانى عهدت اليهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فانه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه قال : فيأتيه آت فيقول ما دينك ؟ فيقول لا أدرى ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، فيأتيه آت قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بالشر من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعا فى معصية الله ، فجزاك الله شراً ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه ضربة فيصير ترابا ، ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعه كل شئ الا الثقلين ، قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ويمهد له من فرش النار » ورواه الامام احمد * وروى احمد والحافظ ابن منده باسناد حسن من حديث البراء أيضا باتم مما تقدم من حديث أبى هريرة والبراء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة فانتهينا الى القبر ، فجلس فجلسنا كأن على اكتافنا فلق الصخر ، وعلى رؤسنا الطير ، فأرم قليلا - والأرمام السكوت - فلما رفع رأسه قال : « إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت فجلس عند رأسه ونزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مد البصر ثم يقول - يعنى ملك الموت - أخرجى أيتها النفس الطيبة - وفى رواية أيتها النفس المطمئنة - الى مغفرة من الله ورضوان قال : فتخرج نفسه كما تسيل القطرة من فى السقاء فاذا خرجت نفسه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض الا الثقلين فيأخذها وفى رواية ، فأذا أخذها - يعنى ملك الموت - لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فى ذلك

الـكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كاطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض، قال : فيصعدون بها الى السماء فيفتح له السماء ويشيعه مقربوها الى السماء الثانية . وفى لفظ فلا يمرون بها عـلى ملأ من الملائـكة الا قالوا : ماهذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان بن فلان باحسن اسمائه التى كان يسمونه بها فى الدنيا فيشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى به الى السماء السابعة الى العرش ،فاذا انتهى الى العرش قال الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه الى الارض وفى لفظ ـ الى مضجعه ـ فانى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فتعاد روحه الى جسده فيأتيه منـكر ونـكير يثيران الارض بأنيابهما ويفحصان الارض باشفارهما فيجلسانه ثم يقال له: يا هذا من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان صدقت ثم يقال له: مادينك ؟ فيقول دينى الاسـلام . فيقولان صدقت ، ثم يقال من نبيك ؟ فيقول محمد رسول الله . فيقولان صدقت ،ثم يفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : جزاك الله خيراً وفى لفظ فيقول: ابشر بالذى يسرك هـذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجئ بالخير فيقول : أنا عملك الصالح فيقول ! رب أقم الساعة حتى أرجع الى أهلى ومالى ،ثم يفتح له باب الى الجنة فينظر الى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة، وإن العبد الـكافر إذا كان فى دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائـكة معهم كفن من نار ،وفى لفظ ملائكة سود الوجود معهم المسوح قال : فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فجلس عند رأسـه فيقول :أخرجى أيتها النفس الخبيثة أخرجى الى غضب الله وسخطه فتتفرق روحه فى جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين فذكر خروجها كما تقدم ونتن ريحها ووضعها فى تلك المسوح ولعن الملائـكة لها وغلق أبواب السماء دونها ثم قرأ رسول الله ﷺ (لا يفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل

فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل : ا كتبوا كتاب عبدى فى سجين فى الارض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فيأتيه منكر ونكير يثيران الارض بانيابهما ويفحصان الارض باشفارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان : يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدرى فينادى من جانب القبر لادريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ولا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » وذكر تمام الحديث كما تقدم . ورواه أبو داود أيضا بطوله بنحو هذه الرواية ، وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه ؛ وروى النسائى وابن ماجه أوله * ورواه أبو عوانة يعقوب ابن اسحق الاسفراينى فى صحيحه ، وأما ابن منده فرواه فى كتاب الايمان بطوله . وقال : هذا اسناد متصل مشهور ، ولم أذكر سنده للاختلاف فيه . قال أبو عوانة : قال زادان الكندى . سمعت البراء وقال غيره لم يسمعه من البراء والله أعلم * وفى صحيح البخارى ومسلم عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » ورواه الامام أحمد أيضاً فى مسنده *

﴿ فصل ﴾

وليعلم أن النار والخضرة التى ورد ذكرها فى القبر كما تقدم ليست من نار الدنيا، ولا الخضرة زرع الدنيا ، وإنما هى من نار الآخرة ، ومن خضرها وهما أبلغ وأشد من نار الدنيا وخضرها ، فان من قضى الله بعذابه فانه يحمى عليه ذلك التراب وتلك الحجارة التى فوقه وتحته ، أو اللبن حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو

مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك ، ولم يروا الا ترابا وحجارة ولبنا ، بل قد يدفن شخصان أحدهما الى جنب صاحبه ، هذا فى حفرة من حفر النار ، وهذا فى روضة من رياض الجنة ، لاحر هذا يصل الى هذا ، ولا نعيم هذا يصل الى هذا ، وقدرة الرب عز وجل أوسع وأبلغ وأعجب من ذلك ، وكل ذلك حتى يحصل للمؤمنين اجتهاد وخوف من الله تعالى ، ومراقبته فى السر والعلانية ، فينتج من ذلك مضاعفة الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، لان ماذكرناه هو من الايمان بالغيب ، ويعلم المؤمن أن أمامه أهوال وعقبات نسأل الله السلامة ، وماذكرته وإن كان من المغيبات قد يطلع الله بعض خلقه على مايشاء من عجائب قدرته ، كما فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع » وفى الصحيح أيضاً أن النبى ﷺ مر بقبرين وقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير » الحديث المشهور . قال العلامة ابن القيم رحمه الله : فى كتاب الروح له ، حدثنى صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الوزير الحرانى انه خرج من داره بعد العصر بآمد الى بستان قال : فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور ، فاذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كور الزجاج ، والميت فى وسطه ، فجعلت أمسح عينى وأقول : أنا نائم أم يقظان ؟ ثم التفت فاذا سور المدينة . قلت : والله ما أنا نائم ، ثم ذهبت الى أهلى وأنا مدهوش ، فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ، ثم دخلت البلد ، فسألت عن صاحب ذلك القبر . فقالوا : رجل مكاس توفى ، فاذا به توفى ذلك اليوم . انتهى ماذكره . وقد ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور وكتاب المنامات من هذا النوع شيئاً كثيراً عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين ، فى الخير والشر ، فمن رام المطالعة فليطلب ذلك من موضعه . ومما ذكر مرفوعا أن رجلا قال للنبى ﷺ : مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمع حتى يغيب فى الأرض ، ثم يخرج فيفعل به ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « ذاك

أبو جهل بن هشام يعذب الى يوم القيامة »

﴿ فصل ﴾

(فى البرزخ)

قال الله تعالى : (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) فالبرزخ اسم لما بين الدنيا والآخرة ، وهذه الآية دالة عليه ، وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وعذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه ، فجعل الله سبحانه وتعالى الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الانسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الابدان والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل الله تعالى الأحكام الشرعية على مايظهر من حركات الانسان والجوارح ، وإن كان فى النفس خلاف ماظهر منها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والابدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا فى نعيمها وعذابها ، تبعت الابدان الأرواح فى نعيمها وعذابها ، فالأرواح فى البرزخ هى المباشرة للنعيم والعذاب ، ثم يسرى الى أبدانها ؛ كما تجرى أحكام الدنيا على الابدان فتسرى الى أرواحها ، فالأبدان فى الدنيا ظاهرة ، والارواح خفية ، والأرواح فى البرزخ ظاهرة ، والابدان خفية ، واذا أردت أن تعلم ذلك فخذ فى نوم الشخص فى الدنيا فانه ينعم فى حال نومه أو يعذب ، فهو يجرى على روحه أصلا والبدن تبع لها ، وقد يقوى التأثير فى البدن النوم حتى يشاهد ، وهذا والله أعلم غالب الناس يشاهد هذا فى منامه ؛ ولقد أخبرنى الشيخ نصير المقدسى — وكان من صلحاء أهل مدرسة شيخ الاسلام أبى عمر — قال لى : ثلاث ليال أرى فى النوم كأن أناساً يستعملوننى بالفاعل ، وأخاف منهم خوفا شديداً ، فاعمل ثم أصبح فى هذه الأيام وأنا تعبان فى غاية التعب . ثم قال لى : انظر الى يدى ، فنظرت واذا بكفيه شلافيط كبار ، فكان ينزل الفجر يقرئ الناس ، فامتنع من النزول فى

تلك الايام ، ثم إنى أرشدته الى ذكر يقوله عند النوم لعله أن يصرف عنه مايجد ، وربما قص على منامات لبعض الناس يرى أنه يأكل أو يشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيـه ، وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم فى حال نومه ، ويبطش ويضرب فى الهواء ، أو يدافع عن نفسه ، وربما صرخ بأعلا صوته كأنه يقظان وهو لا شعور له بشئ من ذلك ،لان الروح استعانت بالبدن، ولو دخلت فيـه لاستيقظ ، وإنما مثلت لك ذلك حتى تعلم صحة ما ذكرته لك فى أول هذا الفصل والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وينبغى للعبد اذا تفكر بعين بصيرته ، وعلم مآله الى هذه الحفرة وما أعد له فيها ، أن يجتهد فى العبادة ، ويكثر من الأعمال الصالحة ، ويعـلم أن عمله يعرض على أقاربه من الأموات ، كما ورد فى الخبر من حـديث أنس بن مالك رضى الله عنـه . قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أعمالـكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فان كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » رواه الامام أحمد فى مسنده * وروى ابن أبى شيبة باسـناده عن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالـكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور » فـكان أبو الدرداء يقول : اللهم أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عنـد عبد الله بن رواحة . فنعوذ بالله من الافتضاح بين الأقارب الصلحاء ، أهل طاعـة الله تعالى ، ثم نعوذ بالله من الافتضاح غـداً بين يدى أحكم الحاكمين على رؤس الخلائق ، بل نسأل الله تعالى التوفيق لمـا يحبه ويرضاه . قال مجاهد : إنه ليبشر المؤمن بصلاح ولده من بعده لتقر بذلك عينه .

﴿ فصل ﴾

وأما تلقين الصغار ، فقد قال الامام أبو عمرو بن الصلاح : أما تلقين الطفل الرضيع فما له مستند يعتمد عليه ، ولا نراه والله أعلم * وقال النواوى رحمه الله : الصواب أنه لا يلقن الصغير سواء كان رضيعاً أو أكبر منه ، مالم يبلغ إذ يصير مكلفاً والله أعلم . وقال العلامة موفق الدين فى المغنى : التلقين بعد الدفن لم أجد فيه عن أحمد شيئاً ، ولا أعلم فيه للأئمة قولا ، سوى مارواه الأثرم . قال : قلت لأبى عبد الله ، فهذا الذى يصنعون اذا دفن الميت يقف الرجل ويقول : يافلان بن فلانة الحديث المعروف . قال : ما رأيت أحداً يفعل هذا الا أهل الشام حين مات أبو المغيرة جاء إنسان ، فقال ذلك . ثم قال بعد كلام . وقال القاضى أبو الخطاب : يستحب ذلك .ورويا فيه عن أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم عند رأس قبره ثم ليقل يافلان بن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يافلان بن فلانة الثانية فيستوى قاعداً ، ثم ليقل يافلان بن فلانة فانه يقول : أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول : انطلق فما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ؟ ويكون الله حجيجه دونهما ، فقال رجل : يارسول الله فان لم يعرف اسم أمه ؟ قال : فلينسب الى حواء » رواه ابن ماجه أيضا فى كتاب ذكر الموت *

﴿ فصل ﴾

ومن الغرائب ما ذكره أبو محمد بن حزم فى كتابه فى الملل والنحل . قال : وأما من ظن أن الميت يحيى فى قبره قبل يوم القيامة فخطأ ، لان الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك ، وكان قد ذكر قبل ذلك قوله تعالى : (قالوا ربنا أمتنا

اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقوله تعالى: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم) ثم قال : ولو كان الميت يحيي فى قبره لـكان تعالى أماتنا ثلاثاً وهذا باطل وخلاف القرآن ، إلا من أحياه الله آية لنبى من الأنبياء ، فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع الى أجسادها إلا إلى أجل مسمى ـ وهو يوم القيامة ـ وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن يكون لهم قبور ، ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا . وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك ، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك ، وأما الجسد فلا حس له . وقد قال تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) فنفى السمع عن من فى القبور وهى أجساد ، ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ فى ذلك خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد الى أجسادهم عند المسائلة ، ولو صح ذلك عنه لقلنا به ، و إنما هذه رواية شاذة عن المنهال بن عمرو وحده ، وليس بالقوى ، تركه شعبة وغيره . وقال جماعة من الحفاظ : ما جازت للمنهال شهادة فى الاسلام قط . انتهى كلامه . فهذا مضمون ماذكره ، ومن اطلع على ماقدمته من الأحاديث وآمن بها وصدقها ، فليحمد الله تعالى على التوفيق لذلك ، فانه لولم تكن هـذه الأحاديث كان إجماع الناس من أمة محمد ﷺ على إعادة الروح فى الجسد لأجل المسائلة ؟ كيف وقد صح عن النبى ﷺ . بل قد كفانا الرسول ﷺ أمر هذه المسألة ، وأغنانا عن أقوال الناس ، حيث صرح باعادة الروح اليه ، وما كان يليق بابى محمد بن حزم أن يجازف هـذه المجازفة ، وأن يقول القول بهـذا خطأ ، فجوابه مردود بالنصوص الصريحة المتقدم ذكرها ، وهو قوله ﷺ : « فتعاد روحه فى جسده » بل لوقيل أن هذا أجماع الامة على هذا ، وأنهـم تلقوه بالقبول ، وأنهـم مجمعون على من رد ذلك وأنـكره ، وأنه مخطئ . وأن تصديق ذلك من الايمان بالبعث ، ولـكن إن أراد ابن حزم أن الميت لا يحيى فى قبره الحياة المعهودة فى الدنيا ، التى يقوم فيها الروح

بالبدن وتدبره وتصرفه ، ويحتاج معها الى الطعام والشراب واللباس ، فهذا صحيح يشهد العقل بصحة ذلك ، وأن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة ، بل تعاد الروح اليه غير الاعادة المألوفة فى الدنيا لاجل المسائلة والامتحان ، كما وردت بذلك النصوص الصحيحة ، فهذا حق ونفيه خطأ بين ، بل نفيه باطل قادح فيمن نفاه ؛ بل قد ورد فى سنن أبى داود مرفوعا أن النبى ﷺ . قال : « مامن رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فسلم الارد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » فهذه إعادة الروح الى الجسد أيضا غير الاعادة المألوفة فى الدنيا لاجل رد السلام، بل لوسلم على الميت فى الليل والنهار مرارا عديدة عادت روحه لرد السلام، ولا يلزم من ذلك أن يحيى الحياة المعروفة ، وقوله الحديث لايصح لتفرد المنهال بن عمر و به فهذه مجازفة ، فان المنهال بن عمرو الأسدى يروى عن ابن حبيش . قال يحيى بن معين :هو ثقة . ونهاية ماقيل فيه ، قال أحمد : تركه شعبة . هذا مضمون ما ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى الكلام على الرجال ، ولم يذكر أن أحدا رد شهادته ، والحديث صحيح لاشك فيه ، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير المنهال ؛ منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد وغيرهم . قال العلامة ابن القيم رحمه الله : الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الاحكام (أحدها) تعلقها به فى بطن الام (الثانى) تعلقها به بعد خروجه الى وجه الارض (الثالث) تعلقها به فى حال النوم ، فلهابه تعلق من وجه ومفارقة من وجه (الرابع) تعلقها به فى البرزخ ، فانها و إن فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لايبقى لها التفات اليه ، بل تعاد اليه وقت المسائلة ، وترد اليه أيضا وقت سلام المسلم ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب إعادة البدن قبل يوم القيامة (الخامس) تعلقها به يوم بعث الاجساد وهو أكمل تعلقها به ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق البتة ، اذ هو تعلق لايقبل البدن موتا ولا نوما ولا فساداً والله أعلم . انتهى كلامه فهذا العلامة

ابن القيم رحمه الله قد كفانا مؤنة الرد بلا تكلف . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح الى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول طائفة من الناس ، وأنكره الجمهور ، وقابلهم آخرون فقالوا: السؤال للروح بلا بدن . وهذا قاله ابن مسرة وابن حزم ، وكلا غلط ، والأحاديث الصحيحة ترده والله أعلم انتهى كلامه .

﴿ الباب السادس والعشرون ﴾

(فى اجتماع الارواح وهيآتها وأين محلها والخلاف فى ذلك)

قال الله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وقال الله تعالى : (ونفخت فيه من روحى) وقوله : (فنفخنا فيه من روحنا) وقوله ﷺ « ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح » وأما قوله تعالى :(فارسلنا اليها روحنا) و(يقوم الروح والملائكة صفا) فهل هو جبريل أو ملك آخر ؟ فيه خلاف للمفسرين ، وأما كلام العلماء فى هذا الباب فقد ألف الناس فيه شيئا كثيرا ، لكن على غير هذا الترتيب ، فنذكر نبذة يسيرة جامعة لكلام غالب العلماء فى مستقر الارواح بعد الموت الى أن تقوم الساعة ، هل هى فى السماء أم فى الارض ؟ وهل هى فى الجنة أم فى النار ؟ وهل تنعم فى أجسادها وتعذب أم تودع فى أجساد غير أجسادها ؟ أم تكون مجردة أو تعدم بالكلية فلا يبقى لها وجود أصلا ؟ فقد نقل عن العلماء فى ذلك اختلافا كثيراً متباينا ، ذهب كل طائفة الى قول نصرته ورجحته على غيره ، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه ، وهذه المسألة إنما تعرف من جهة الشرع بالسمع ، فمن العلماء من ذهب الى أن أرواح المؤمنين والشهداء فى الجنة بشرط أن لا يحبسهم عنها ذنب عظيم ، كمظالم العباد ونحوها ، فاذا كانوا خالين من ذلك تلقاهم ربهم بالعفو والرحمة . قال الله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا

بل أحياء عند ربهم يرزقون) وممن ذهب الى هذا القول أبو هريرة وعبد الله بن عمر وجماعات من السلف . قال الامام احمد فى رواية ابنه عبد الله : إن أرواح المؤمنين فى الجنة ، وأرواح الكفار فى النار * وذهبت طائفة الى أن أرواح المسلمين على أبواب الجنة يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها . وقال أبو عبد الله بن منده : وقالت طائفة من العلماء من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله عز وجل ، ولم يزيدوا على ذلك . ثم قال : وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية ، وأرواح الكفار فى بئر برهوت ـ بئر بحضر موت ـ : وقال أبو عمر بن عبد البر : أرواح الشهداء فى الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم ، وحكى ابن المبارك عن ابن جريج فيما قرأ عليه عن مجاهد . قال : أرواح المؤمنين فى الجنة يأكلون من ثمارها ، ويجدون ريحها . وقال مالك : بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت . وقال صفوان بن عمر : سألت عامر بن عبد الله هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ قال : إن الارض التى يقول الله : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال : هى الارض التى تجتمع اليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث. وقال : هى الارض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا * وقال كعب الاحبار : أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الارض السابعة . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : أرواح الأبرار فى عليين ، وأرواح الفجار فى سجين ، وعن عبد الله بن عمر نحوه وذهب طائفة من العلماء الى أن أرواح المؤمنين فى بئر زمزم . ولم أطلع على دليل يدل على هذا القول . ثم قال أرباب هذا القول ! وأرواح الكفار في بئر برهوت . وقال سلمان الفارسى : أرواح المؤمنين تذهب حيث شاءت ، كما قال مالك ـ وقد تقدم ـ وأرواح الكفار فى سجين . وقال ابن قتيبة: ذهب جماعة من العلماء الى أن أرواح المؤمنين على أفنية

قبورهم . ومنهم من ذهب من أهل السنة والجماعة الى أن ارواح المؤمنين والكفار في القبور ،وأن الروح تنعم وتعذب فى القبر الى يوم القيامة ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، وأن القبر روضة من رياض الجنة ،أو حفرة من حفر النار ، ولهذا نهى عن الجلوس على القبر ، وأمر بالسلام عليهم وقال : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » وذهب جماعة من العلماء الى أن محل الأرواح ومستقرها فى سماء الدنيا ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ ليلة الاسراء أنه رأى ليلة أسرى به فى السماء الدنيا آدم عليه السلام ، وعن يمينه أرواح أهل السعادة ، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، ومن هذا الباب ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فى حديث الرؤيا، الى أن قال فيه : فاما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله : وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين » وفى رواية له : والشيخ فى أصل الشجرة ابراهيم والصبيان حوله أولاد الناس . فهذا الحديث ليس هو عام فى جميع الأرواح ، وإنما هو خاص بأرواح الصغار ، وما رأيت أحدا ذهب الى التفرقة بين أرواح الصغار والكبار لهذا الحديث ، ولا أعلم أحدا قال به . والله أعلم *

فصل

فى الاشارة الى الدليل

وقد أشرنا الى بعضه فيما تقدم ، ولو ذكرنا كل قول ، وحجج من نصره وذهب اليه ، لطال الكتاب وخرج عن موضوعه ، ولكن نذكر ما يسره الله تعالى من الأحاديث ، فمنها ما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله ابن

مسعود - كذا وقع فى نسخ متعمد عليها - ووقع فى بعض النسخ عبد الله فقط ، فمن الحفاظ من يقول عبد الله بن عمرو ، ومنهم من يقول ابن مسعود ، والله أعلم بالصواب ، أن النبى ﷺ . قال فى الشهداء : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل » وفى حديث قتادة لفظ غريب . قال : أرواح المؤمنين فى صورة طير بيض . قال القاضى عياض : فى هذا الحديث ذكر أرواح الشهداء ، وفى حديث مالك ، إنما نسمة المؤمن لم يذكر الشهداء ، والنسمة تطلق على ذات الانسان جسما وروحا ، وتطلق على الروح مفردة ، وهو المراد بها فى هذا الحديث والله أعلم . وفى الحديث دلالة على أن المراد بها الروح قطعا ، فانه قال : حتى يرجعه الله الى جسده يوم القيامة ، ولكن تارة فى هذا الحديث ذكر نسمة المؤمن ، وفى اللفظ الآخر أرواح الشهداء . وقد ورد فى حديث ابن عمر أن غير الشهداء إنما يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، كما ورد فى النظر فى قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) قال القاضى عياض أيضا فى موضع آخر : وقيل المراد جميع أرواح المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب ، فيدخلونها الآن بدليل عموم الحديث . كذا ذكره النووى فى شرح مسلم . وقد ورد بلفظ آخر فى صحيح مسلم ، أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها . ليس فيه ذكر أجواف طير . وهذا إخبار منه ﷺ عن الشهداء المؤمنين . وذكر ابن منده باسناده عن اسماعيل بن طلحة بن عبد الله عن ابنه . قال : أردت مالى بالغابة فادركنى الليل ، فآويت الى قبر عبد الله بن عمرو بن حزم ، فسمعت قراءة من القبر ماسمعت أحسن منها ، فجئت الى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : « ذاك عبدالله ، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت وعلقها وسط الجنة ، فاذا كان الليل ردت اليهم أرواحهم

فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم الى مكانهم التى كانت » واخبر سبحانه وتعالى عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشيا قبل يوم القيامة ، وليس للعقول فى هذا مجال ، فانه سبحانه وتعالى يتصرف فيها كيف شاء وغير مستحيل أن يصور هذا الجزء طائرا ، أو يجعل فى جوف طائر ، أو فى حواصل طير ، أو فى قناديل معلقة بالعرش . قال العلامة ابن القيم : وهـذه حياة أرواحهم ورزقها ، والأبدان قد تمزقت. وقد فسر رسول الله ﷺ هذه الحياة بأن أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنـة حيث شاءت ، ثم تأوى الى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا؟ قالوا : أى شئ نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ يفعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهـم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . وصح عنـه ﷺ الحديث من غير وجه ، وفى بعض الالفاظ تعلق من ثمر الجنة — وتعلق بضم اللام تأكل العلقة — وعن ابن عباس رضى الله عنهـما قال قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحـد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش فلما وجـدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولاينكلوا عن الحرب » فقال الله : أنا أبلغهم عنكم فانزل الله على رسوله (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) رواه الامام أحمد ولا أعلم أحداً ذهب الى أن هذا النعيم المذكور مختص بالذين قتلوا فى أحد والله أعـلم *

﴿ فصل ﴾

وذهب ابن حزم وجماعات الى أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق

أجسادها ، قال ابن حزم : وهـذا الذى أخبر الله تعالى به ونبيه ﷺ لا يتعداه وهو البرهان الواضح ، قال الله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم عـلى أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هـذا غافلين) وقال تعالى : (ولقـد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم) فصح أن الأرواح خلقها الله تعالى جمـلة ، وكذلك أخبر ﷺ : « أن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخـذ الله وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائـكة بالسجود لآدم ، وقبل أن يدخلها فى الاجساد ، والاجساد يومئذ تراب وماء ، ثم أخرها حيث شاء وهو البرزخ ، ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى ، الى أن قال ابن حزم : فصح أن الأرواح أجساد كاملة لاعراضها من التعارف والتناكر ، وأنها عارفة مميزة ، فاذا توفاها تعالى رجعت الى البرزخ الذى رآها فيه رسول الله ﷺ ليلة أسرى به عند سماء الدنيا ، أرواح أهل السعادة عن يمين آدم ، وأرواح أهل الشقاوة عن يساره ، وذلك عند منقطع العناصر ، وتعجل أرواح الانبياء والشهداء الى الجنـة . ثم قال : وقد ذكر محمد بن نصر المروزى عن اسحاق بن راهويه هذا الذى ذكرنا بعينه . ثم قال : وعلى هـذا أجمع أهل العلم . انتهى كلامه . وذكر الأدلة على ذلك ولم يذكر خلافا وقد تقدم ذكر الخلاف على ذلك ، وما ذكره أبو محمد بن حزم فهو ينبني على أصل ، وهو أن الأرواح هل خلقت قبل الأجساد ، أو الاجساد خلقت قبل الأرواح ؟ فهذه المسألة للناس فيها قولان ، حكاهما شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره (أحدهما) ماحكاه واختاره ابن حزم ومحمد بن نصر المروزى وقد تقدم ، وذكرنا ما استدل به (والقول الثانى) وعليه عامـة السلف والخلف أن الاجساد خلقها متقدم على الأرواح ، والأدلة متظاهرة من وجوه عديدة ليس هذا محل ذكرها ، نخلق أبى

البشر الذى هو أصل الناس هكذا ، فانه سبحانه وتعالى أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ، ثم خمرها حتى صارت طينا ، ثم صوره ، ثم نفخ فيه الروح بعد تصويره ، وهذه قصة مشهورة قد وردت من عدة طرق ، تدل على أن الله سبحانه نفخ فيه من روحه بعد أن خلق جسده . وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح » الحديث المشهور . فنفخ الملك فيه الروح هو سبب حدوث الروح فيه ، ولو كان للروح وجود قبل البدن وهى حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة فى هذا العالم ، شاعرة به ولو بوجه ما ، ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها وهى بين ملاء من الارواح تنتقل الى هذا البدن ولا تشعر بحالها الاول ، وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهى فى البدن على التفصيل ، وتعلم ماكانت عليه هاهنا مع أنها اكتسبت بالبدن أمورا عاقها عن كثير من حالها ، فلأن تشعر بحالها الاول وهى غير معوقة هناك بطريق الاولى . والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

فى قوله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فمن العلماء كابن حزم وابن نصر المروزى وغيرهما يقول : الأرواح مجموعة أو مجتمعة ، وأنواع مختلفة ، فهى خلقت مجتمعة ثم فرقت فى أجسادها ، فمن وافقه نسيمه ألفه ، ومن باعده نافره وخالفه ، وقال الخطابى وغيره : هو ما خلقها الله عليه من السعادة والشقاوة فى المبتدأ ، فالارواح قسمين متقابلين ، فاذا تلاقت الأجساد فى الدنيا ائتلفت واختلفت بحسب ماخلقت عليه ، فيميل الأخيار الى الأخيار ، والأشرار الى الأشرار . انتهى كلامه . ومن هذا الباب ما احتج آدم وموسى ، قال الحسن : معناه التقت أرواحهما فى السماء فوقع الحجاج بينهما . قال القاضى

عياض : ويحتمل أنه على ظاهره ،وأنهما اجتمعا باشخاصهما . وقد ثبت فى حديث الاسراء أن النبى ﷺ اجتمع بالانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى السموات ، و فى بيت المقدس ، وصلى بهم . قال : فلا يبعد أن الله أحياهم . قال : ويحتمل أن قصة موسى جرت فى حياة موسى ،وأنه سأل أن يريه آدم فحاجه والله أعلم *

﴿ فصل ﴾

وهل الأرواح مخلوقة محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، أم قديمة ؟ وهى من أمر الله ولا يكون أمر الله مخلوقا ولا محدثا ، وقد أخبر أنه نفخ فى آدم من روحه ، فهذه الاضافة اليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وما حقيقة هذه الاضافة؟ قال العلامة ابن القيم : وهذه المسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بنى آدم ، وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين . فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة ، هذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام أن العالم حادث ، وأن معاد الابدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ماسواه مخلوق له ــ حتى نبعت نابعة ــ فمن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة ،واحتج بانها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبانها أضافها اليه كما أضاف اليه علمه وحياته وقدرته ، وتوقف فى ذلك آخرون فقالوا : لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة ، انتهى كلامه . وقال الحافظ ابن منده : لما سئل عن الارواح ، هل هى مخلوقة أم لا ؟ فقال : إن الناس اختلفوا فى معرفة الارواح ومحلها من النفس ، فقال بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر ، واحتجت بقوله ﷺ « الأرواح جنود مجندة ما تعارف ائتلف » الحديث . والجنود المجندة لا تكون الا مخلوقة ،وقال بعضهم : الارواح من أمر الله ، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق ،واحتجت بقوله (قل الروح من أمر ربى) وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله تعالى ،وحياة من حياته .واحتجت بقوله ﷺ : « إن الله

خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره » انتهى كلامه . وقال محمد بن نصر المروزى : تأول صنف من الزنادقة ومن الروافض فى روح آدم ، ماتأولته النصارى فى روح عيسى ، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصارفى المؤمن فقال صنف من الزنادقة ، وصنف من الروافض . إن روح آدم غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) وقوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) ثم قال بعد كلام طويل : ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه ، وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها، مخلوقة لله ، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها. انتهى كلامه وقال شيخ الاسلام ابن تيمية: روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الامة وأئمتها وسائر أهل السنة . وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة ، غيرواحد من أئمة المسلمين ، مثل محمد بن نصر المروزى ، وأبو محمد بن قتيبة، وغيرهما ، وذكر كلاما طويلا وبحثا كثيرا يطول ذكره والله أعلم *

﴿ فصل ﴾
(مهم نافع)

من استدل باضافة الروح الى الله تعالى بقوله : (ونفخت فيه من روحى) فينبغى أن يعلم أن المضاف الى الله سبحانه وتعالى نوعان (أحدهما) صفات لاتقوم بأنفسها ، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة الى موصوفها، صفات له غير مخلوقه ، وكذلك وجهه ويده سبحانه وتعالى (الثانى) إضافة أعيان منفصلة عنه ، كبيت الله ، وناقة الله ، وعبد الله ، ورسول الله ، وروح الله ، فهذه إضافة مخلوق الى خالقه ، ومصنوع الى صانعه ، لكنها إضافة تقتضى تخصيصاً وتشريفا يتميز به المضاف اليه عن غيره ، كبيت الله ، وإن كانت البيوت كلها ملكا لله ، وكذلك ناقة الله ، والنوق كلها ملكه وخلقه ، ولكن هذه إضافة الى إلاهيته تقتضى محبته لها وتشريفه ، بخلاف الاضافة العامة الى ربوبيته حيث

تقتضى خلقه وإيجاده ، هذا خلق الله ، فالعامة تقتضى الخلق والأيجاد ، والخاصة تقتضى الاختيار ، والله يخلق مايشاء ويختار ، وإضافة الروح اليه من هذه الاضافة الخاصة لا من العامة ، ولا من باب إضافة الصفات ، فتأمل هذا الموضع فانه ينفعك من التخلص من البدع ، فقد ضل فيه خلق كثير نسأل الله العصمة *

(فصل)

وهل الأرواح تموت أم الموت للأبدان خاصة : فقد اضطربت مقالات الناس فى هذا الباب ، فقالت طائفة : تموت وتذوق الموت ، لانها نفس وكل نفس ذائقة الموت ، قالوا : وقد دل القرآن عليه بقوله: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقوله تعالى : (كل شئ هالك الا وجهه) (وكل نفس ذائقة الموت) قالوا : وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت . وقال تعالى فى حق أهل النار : (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فالموتة الأولى هذه المشهودة فهى للبدن ، والأخرى للروح ، وقال أخرون : لاتموت الأرواح فانها خلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان . قالوا : وقد دل على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الارواح وعذابها بعد المفارقة الى أن يرجعها الله فى أجسادها ، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب ، وقال تعالى :(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين) الآية . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وذاقت الموت ، قال العلامة ابن القيم : والصواب أن يقال : موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها . وخروجها منها ، فان أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضاً فهى لا تموت ، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو عذاب كما صرح به فى النصوص حتى يردها الله فى أجسادها ، ثم ساق بعد ذلك النصوص الواردة فى هذا المحل . انتهى كلامه

(فصل)

وهل عذاب القبر على الروح والبدن ، أو على الروح دون البدن ، أو على البدن دون الروح ؟ وهل يشارك البدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا ؟ قال شيخ الاسلام ابن تيمية : - بعد أن سئل عن هذه المسألة فأجاب - بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن ، والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما فى هذه الحال مجتمعين ، كما تكون الروح منفردة عن البدن ، منعمة أومعذبة ، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لاهل الحديث والسنة وأهل الكلام ، وفى المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث ، قول (١) من يقول أن النعيم والعذاب لا يكون الا على الروح ، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب ، وهذا يقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان ، وهؤلاء كفار باجماع المسلمين ، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الابدان ، لكن يقولون: لا يكون ذلك فى البرزخ ، وإنما يكون عند القيام من القبور ، لكن هؤلاء ينكرون عذاب الأبدان فى البرزخ فقط ، ويقولون أن الارواح هى المنعمة أو المعذبة فى البرزخ ، فاذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معا ، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام وأهل الحديث وغيرهم ، وهو اختيار ابن حزم ، وابن مسرة ، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة ، بل هو مضاف الى قول من يقر بعذاب القبر ، ويقر بالقيامة ، ويثبت معاد الأبدان والأرواح . لكن هؤلاء لهم فى عذاب القبر ثلاثة أقوال (أحدها) أنه على الروح فقط (الثانى) أنه عليها وعلى

---

(١) كذا فى الاصل ، ولعله يريد مثل قول من يقول الخ .

البدن بواسطتها (الثالث) أنه عـلى البدن فقط . وقد يضم الى ذلك (١) وهو قول من يثبت عـذاب القبر ، ويجعل الروح هى الحياة ويجعل الفساد (٢) قول منـكر عذاب الأبدان مطلقا ، وقول من ينـكر عـذاب البرزخ مطلقا، والفلاسفة الالهيون يقرون بذلك ، لـكن ينكرون معاد الأبدان . فهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان ، لكن ينـكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان ، وكلا القولين خطأ وضلال . لـكن قول الفلاسـفة أبعد من أقوال أهل الأسلام ، وإن كان قد يوافقهم عليـه من هو متمسك بدين الاسلام ، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف

والقول الثالث الشاذ : قول من يقول أن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عـذاب ، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الـكبرى ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينـكر عذاب القبر ونعيمه ، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال فى أمر البرزخ لـكنهم خير من الفلاسفة فانهم مقرون بالقيامة الـكبرى ، وأما الأحاديث الدالة عـلى نعيم القبر وعذابه فهى كثيرة جدا ، بل لو قيل أنها بلغت التواتر فى المبالغة لم يبعد ذلك ، فمنها ما تقدم من أحاديث مسائلة منكر ونـكير ، وفيها كفاية . ومنها مالم أحط به ولم أطلع عليه ، ومنها ما أطلعت عليه واختصرته للتطويل ، ومنها ما أذكره للتنبيه ، فقد ثبت فى الصحيحين من حـديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فـكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمـة ، ثم دعا بجريدة رطبـة فشقها نصفين ، فقال : لعله أن يخفف عنهما مالم ييبسا » ورواه أبوداود الطيالسى . لـكن قال فيه : « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » وباقيه كما

---

(١) كذا بالاصل ولعله سقط (قول آخر) أو (قول رابع) .

(٢) كذا بالاصل . وفى العبارة نقص كما يظهر .

ذكرنه . وثبت فى صحيح مسلم فى حديث طويل قال « إن هذه الامة تبتلى فى قبورها ، فلولا أن لا تدافنو الدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » ثم قال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر » قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قل: « تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن » الحديث . وفى مسلم أيضا وجميع السنن عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قل : « إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » وفى الصحيحين عن أبى أيوب قال : خرج النبى ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتا فقال : « يهود تعذب فى قبورها » وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة قالت : دخلت على عجوز من يهود المدينة فقالت : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها ، فخرجت ودخل على رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله إن عجوزاً من عجاز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم ؟ فقال: « صدقت إنهم يعذبون عذابا يسمعه البهائم كلها » قالت : فما رأيته بعد فى صلاته الا يتعوذ من عذاب القبر . قال بعض أهل العلم : ولهذا السبب يذهب الناس بالخيل إذا مغلت الى قبور اليهود والنصارى ، فاذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل . والأحاديث كثيرة جدا فى هذا الباب ، وقد تقدم فى أحاديث المسائلة ماهو أبلغ من ذلك فى قوله : « فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » وهذا صريح فى أن البدن يعذب فى القبر . وروى النسائى من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهد له سبعون الفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » قال النسائى : ـ يعنى سعد بن معاذ ـ وفى حديث عائشة

قالت : قال رسول الله ﷺ : « للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » قال نافع : بلغنى أنه شهد جنازته سبعون الف ملك لم ينزلوا الى الارض قط ، وفى لفظ منديل من مناديل سعد خير من الدنيا وما فيها *

﴿ فصل ﴾

قال المروزى : قال الامام احمد : عذاب القبر حق لا ينكره الا ضال مضل . وقال حنبل : قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر ؟ فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ، ونقر بها ، كلما جاء عن النبى ﷺ إسناد جيد أقررنا به ، إذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه ، رددنا على الله أمره ، قال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) قلت له : وعذاب القبر حق ؟ قال : حق ، يعذبون فى القبور ، قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر و بمنكر ونكير ، وأن العبد يسأل فى قبره (فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فى القبر . وقال أحمد بن القاسم : قلت يا أبا عبدالله : نقر بمنكر ونكير ، وبما يروى من عذاب القبر ؟ فقال : سبحان الله نعم نقر بذلك ونقول به * قال العلامة ابن القيم : ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيبه منه ، قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف فى الهواء ، أو صلب ، أو غرق فى البحر ، وصل الى روحه وبدنه من العذاب مايصل الى القبور . انتهى كلامه .

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغى أن يعلم أن البلى يختص هذا البدن المشاهد المركب ، فان هذا البدن ليس بشىء ، إنما هو آلة ، والنظر الى ما يؤذى الروح وينفعها . وقد روى أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله باسناده قال : دخل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما المسجد وقد قتل عبدالله بن الزبير ، فمال الى أسماء أم ابن الزبير فقال لها : أصبرى

فان هذه الجثث ليست بشئ ، وإنما الأرواح عند الله تعالى، ثم قال: وروينا عن ابن الزبير أنه قال لامه أسماء قبل قتله : يا أماه ، إن قتلت فانما لحم لا يضر ما صنع بى * وروى خالد بن معد ان قال: لما قتل هشام بن العاص يوم أجنادين ، وقع على ثلمة فسدها ، ولم يكن ثم طريق غيره ، فلما انتهى المسلمون اليه هابوه أن يوطئوه الخيل ، فقال عمرو بن العاص : أيها الناس إن الله قد استشهده ورفع روحه ، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل ، ثم أوطأه هو وتبعه الناس حتى قطعوه . وإذا ثبت هذا ، فان الله تعالى إذا أتلف هذا البدن الترابى وأبلاه المعرض للآفات ، فانه سيعيده بدنا لا يبلى ، فى حياة لا تنفد أبداً ، وتبدل صعوبات التكليف بحسن الجزاء ، ويعطيهم أجوراً باقية عن أعمال منقطعة ، كما لا يبقى لمرارات الشعث والتكليف فى أيام الاحرام ، طعم عند أيام التشريق . والله تعالى الموفق *

﴿ الباب السابع والعشرون ﴾

(فى عد الشهداء وفضلهم وأنهم أرفع درجات من الصالحين)

قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) قال قتادة : قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : كيف يكون الحال فى الجنة وأنت فى الدرجات العلى ، ونحن أسفل منك فكيف نراك ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية (ومن يطع الله) فى إداء الفرائض (والرسول) فى السنن (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين) أى لا تفوتهم رؤية الانبياء ومجالستهم . فاعلا درجات بنى آدم الانبياء ، ثم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم الصالحون ، وهذا ترتيب لا شك فيه ، لأن الله تعالى رتبهم فى الذكر ، قدم الانبياء ، ثم الامثل فالأمثل فى المراتب والمنازل . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « ما من نفس تموت لها عند الله خير أنها ترجع الى

الدنيا ولا أن لها الدنيا وما فيها الا الشهيد » الحديث هذا من صرائح الأدلة فى عظم فضل الشهادة . وعن سهل ابن حنيف رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » رواه مسلم فى صحيحه . وفى مسلم أيضا من حديث أنس أن النبى ﷺ قال : « من طلب الشهادة صادقا أعطيها ولو لم تصبه » ورواه الترمذى وصححه من حديث معاذ مرفوعاً ، ولفظه : « من سأل القتل فى سبيله صادقا من قلبه أعطاه الله أجر الشهيد » ورواه الامام أحمد بهذا اللفظ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماتعدون الشهيد فيكم ؟ » قالوا : يارسول الله من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ، قال : « إن شهداء أمتى إذا لقليل » قالوا : فمن هم يارسول الله ؟ قال : « من قتل فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون فهو شهيد ، ومن مات فى البطن فهو شهيد ، والغريق شهيد ، — وفى رواية — وصاحب الهدم شهيد » وعن جابر بن عتيك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الشهداء سبع سوى القتل فى سبيل الله عز وجل ، المطعون شهيد ، والغريق شهيد ، والمبطون شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، والذى يموت تحت الهدم شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والمرأة تموت بجمع شهيد » رواه الامام أحمد وأبو داود والنسائى . وروى ابن ماجه بعضه . — قوله بجمع بضم الجيم وإسكان الميم وهى التى تموت حاملا أو نفساء — كذا ذكره غير واحد من أهل العلم . والله أعلم * وروى الامام أحمد والنسائى من حديث صفوان بن أمية عن النبى ﷺ قال : « الطاعون شهادة ، والغرق شهادة ، والبطن شهادة » وروى النسائى أيضا من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خمس من قبض على شىء منهن فهو شهيد ، المقتول فى سبيل الله شهيد ، والغريق فى سبيل الله شهيد ، والمطعون فى سبيل الله شهيد ، والنفساء فى سبيل الله شهيد » وروى

مالك فى الموطأ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما فى قصة أن النبى ﷺ قال: « ماتعدون الشهادة فيكم ؟» قالوا : القتل فى سبيل الله . فقال رسول الله ﷺ: « الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله » ثم ذكر نحو ما تقدم فى السنن من حديث جابر بن عتيك * وروى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الشهداء خمس ، المطعون والمبطون ، والغريق وصاحب الهدم ، والشهيد فى سبيل الله » قال العلامة اسماعيل التيمى الاصبهانى : ـ مفسراً لهذا الحديث ـ قال المطعون الذى أصابه الطاعون ، والمبطون الذى أصابه علة البطن . انتهى *

وقال غيره من العلماء :للناس فى تفسير علة البطن ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الذى يموت بالاستسقاء (والثانى) الذى يموت بالمغص الشديد ـ وهو الذى يسمونه القولنج ـ وهو مرض معروف (والثالث) الذى يموت بالاسهال ، انتهى كلامه * قلت : والقول الثالث هو الراجح عند أكثر أهل العلم ، و بعضهم لم يحك غيره ويحتمل والله أعلم أن الشهادة تعم الثلاثة أصناف المذكورة ، وهو أبلغ فى الكرم وسعة الفضل ، والله أعلم . ومما يؤيد هذا الاحتمال ماروى ابن حبان فى صحيحه من حديث سليمان بن مراد ، وخالد بن عرفطة ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قتله بطنه لم يعذب فى قبره » وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « من قتل دون ماله فهو شهيد » رواه البخارى. وروى أبو داود والترمذى والنسائى واللفظ له من حديث سعيد بن زيد رضى الله عنه . قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » وروى النسائى مفرداً من حديث سويد بن مقرن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« من قتل دون مظلمته فهو شهيد » وروى الامام أحمد من حديث ابن لهيعة عن خالد بن أبى زيد عن سعيد بن أبى هلال عن

ابراهيم بن عبد الله بن رفاعة ، أن أبا محمد أخبره وكان من أصحاب ابن مسعود حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر عنده الشهداء قال: «إن أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته» * وروينا فى خبر ابن عرفة مرفوعا «الموت كفارة لكل مسلم»

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغى أن يعلم أن العبد إذا نظر أو سمع ما تقدم فى هذا الباب من تنوع الشهادة ، وذكر تعدادها ، حصل له تسلية بموت محبوبه ، فانه فى الغالب لابد أن يكون ناله نصيب منها ، مع أنى لم أحط بكل ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تسمية الشهداء ، وقد روى مرفوعاً : « موت الغريب شهادة » وقد استقصينا فى عد الشهداء فى كتاب (أحكام الطاعون) ويكفى فى البشارة ما تقدم قريبا من رواية الامام أحمد مرفوعاً « أن أكثر شهداء أمتى أصحاب الفرش » وتقدم ما أعد الله للشهداء من حين الموت ، وما لهم عند الله ، وأن أرواحهم فى حواصل طير خضر تأكل وتشرب فى الجنة ، وتسرح حيث شاءت ، وكل هذا فى دار البرزخ ، فاذا دخلوا الجنة يوم القيامة بأجسادهم انتقلوا الى نعيم أعلا من ذلك وأكثر منه . قال أبو بكر القطيعى : ثنا بشر بن موسى ثنا ابن خليفة ثنا عوف عن خنساء قالت حدثتنى عمتى قالت قلت يارسول الله ، من فى الجنة ؟ قال: « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والموؤدة فى الجنة » وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف فذكر مثله . فانتقال العبد الى الله وما عند الله هو خير لعباده من هذه الدنيا التى خلقهم فيها ، فينظر كيف يعملون ، ويبتليهم بالمحن والمصائب ، والشهادات حتى يعلم الصابر منهم والجازع ، ليجازى كل شخص بحسبه ، فمنهم من يجازيه بالجنان ، ومنهم من يجازيه بالنيران وكل ذلك عدل منه سبحانه وتعالى لايظلم مثقال ذرة ، بل إن أدخل العبد الجنة فبرحمته وفضله ، وإن أدخله النار فبعدله وسلطانه

(لايسأل عما يفعل وهم يسألون) فلله الحمد دائما على كل حال *

﴿ فصل ﴾

والشهادة المطلوبة شهادة المعركة على ما تقدم ، وكذلك شهادة الطاعون ، فانه قد ورد فيها أحاديث وآثار فى تمنى الطاعون ، كما وقع فى قصة المغيرة بن شعبة أنه قال : اللهم ارفع عنا الرجز – يعنى الطاعون – فقال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه : أما أنا فلا أقول هذا ، ولكن أقول كما قال العبد الصالح أبو بكر الصديق رضى الله عنه : اللهم طعناً وطاعوناً فى مرضاتك . وقام أبوعبيدة خطيباً فقال : يا أيها الناس إن هذا الوجع رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وأن أبا عبيدة يسأل الله العظيم أن يقسم له من حظه . قال : فطعن فمات . وثبت فى مسند الامام أحمد أن النبى ﷺ قال : « اللهم اجعل فناء أمتى بالطعن والطاعون » وغير ذلك من الأحاديث والآثار التى لاتحضرنى وقد قررت ذلك فى كتابنا المعروف باحكام الطاعون ، ولكنه لم يكن عندى حين ألفت هذا الكتاب ، فان قيل : الشهادة المطلوبة شهادة المعركة ، وكذلك شهادة الطاعون كما تقدم ، وقد ورد فى بعض الأحاديث أن النبى ﷺ استعاذ من بعض ما عده شهادة ، ففى مسند الامام أحمد مرفوعاً ، إستعاذ من سبع موتات ، من موت الفجاة ، ومن لدغ الحية ، ومن السبع ، ومن الغرق ، ومن الحرق ، ومن أن يخر على شىء ، أو يخر عليه شىء ، ومن الفرار من الزحف ، وفى المسند أيضا مرفوعاً « اللهم إنى أعوذ بك أن أموت هماً أو غماً أو أن أموت غرقا وأن يتخبطنى الشيطان عند الموت » ورواه النسائى ولفظه « اللهم إنى أعوذ بك من الهدم والتردى والهم (١) والغم والغرق والحرق وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغا » وغير ذلك من الأحاديث . يقال : لم يقل أحد من

---

(١) فى الاصل « والهرم » وهو خطأ

العلماء أن كل شهادة مطلوبة ، بل من وقع له أو لمحبوبه أو لغيره شيء مما عده النبي ﷺ شهادة ، فهو شهيد ، والشهيد ثلاثة أقسام (أحدها) شهيد فى الدنيا والآخرة وهو المقتول فى المعركة مخلصاً (والثانى) شهيد فى الدنيا فقط وهو المقتول فى المعركة مرائيا (والثالث) الشهيد فى الآخرة فقط وهو من أثبت له الشارع الشهادة ولم يجر عليه أحكامها فى الدنيا . كالغريق والحريق ومن به ذات الجنب ونحوه كما تقدم .

فان قيل : لم سمى الشهيد شهيداً ؟ قيل : قد اختلف العلماء فى ذلك على أقوال (أحدها) لأنه حى كما قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (الثانى) لأن الله تعالى وملائكته شهدوا له بالجنة (الثالث) لأن الملائكة تشهده (الرابع) لقيامه بشهادة الحق حتى قتل (الخامس) لانه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل (السادس) لانه شهد لله بالوجود والالهية بالفعل لما شهد غيره بالقول (السابع) لسقوطه بالارض وهى الشاهد له (الثامن) لانه شهد له بوجوب الجنة (التاسع) من أجل شاهده وهو دمه (العاشر) لانه شهد له بالايمان وحسن الخاتمة . فهذه عشرة أقوال من أماكن متفرقة جمعت اليك رخيصة الاثمان . فهذه الأقوال فى المخلص الذى قصد بجهاده وجه الله تعالى ، والدار الآخرة ، فانه سبحانه وتعالى إذا علم قصد العبد وإخلاصه أعانه وأغاثه . قال تعالى : (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزى فى جزء الثبات عند الممات فى هذا المعنى ، عن على بن الموفق قال : سمعت حاتم الاصم يقول : لقينا الترك وكان بيننا جولة ، فرمانى تركى بسهم فقلبنى عن فرسى ، فنزل عن دابته ، فقعد على صدرى ، وأخذ بلحيتى ، وأخرج من خفه سكينا ليذبحنى ، فوحق سيدى ما كان قلبى عنده ولا عند سكينه إنما كان قلبى عند سيدى أنظر ماذا ينزل به القضاء منه ، فقلت : سيدى قضيت على أن يذبحنى هذا فعلى الرأس والعين ، إنما أنا لك وملكك ، فبينما أنا كذلك

وهو قاعد على صدري إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني، فقمت اليه وأخذت السكين من يده فذبحته بها، فما هو الا أن تكون قلوبكم عند مليككم حتى تروا من عجائب لطفه مالا تروا من الآباء والامهات *

﴿ الباب الثامن والعشرون ﴾

(في ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه)

أما الصراط فهو جسر منصوب على متن جهنم، وهو أحد من السيف وأدق من الشعرة، ثبتنا الله وإياكم على المرور عليه. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك، إذهبوا الى ابني ابراهيم خليل الله قال: فيأتون ابراهيم فيقول ابراهيم عليه السلام: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء، إعمدوا الى موسى كلمه الله تكليما، فيأتون موسى فيقول: لست بصاحب ذلك، اذهبوا الى عيسى كلمة الله وروحه فيقول عيسى: لست بصاحب ذلك، اذهبوا الى محمد قال: فيأتون محمدا ﷺ ويؤذن له ويرسل الأمانة والرحم فيقومان جنبي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق يمر ويرجع في طرفة عين، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرحال (١) تجري بهم أعمالهم ونبيكم ﷺ قائم على الصراط يقول: رب سلم رب سلم حتى تعجز أعمال العباد وحتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير الا زحفا، قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به فمخدوش ناج ومكدوش في النار» والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفا * وعن أبي سعيد الخدري

---

(١) في الاصل « الرجال » وهو خطأ

رضى الله عنه عن النبى ﷺ وذكر الصراط ومرور الناس عليه قال : « فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكاجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش فى النار (١) جهنم » رواه مسلم * وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ وذكر حديث الشفاعة : « ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان — هل رأيتم شوك السعدان؟ — ثم قال : وإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم » الحديث *

﴿ فصل ﴾

قد سمعت رحمك الله فانظر الى هذه الطريق الحرج ، والمسلك الشاق ، والقنطرة المضطربة ، والعقبة الكؤود التى لا تثبت عليها الأقدام ، ولا تجوزها الأوهام ، ولا يثبت عليه الا من ثبته الله بالقول الثابت ، وثبت قدماه يوم تزل الأقدام ، ولعل من عنده تساهل وعدم توفيق يسمع بالصراط فيظن أن طريقه يشبه طرق الدنيا التى هى صعبة المسلك ، وعرة ذات صعود ونزول ، هيهات وما علم ، والله إنه أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، وعلى يمينه وشماله كلاليب وخطاطيف ، فاذا كانت المرور عليه وهو بهذه المثابة ، وأعظم من ذلك أن جهنم تحتك ، وقد أرعب قلبك من هول منظرها ، وملأت أذنيك زفيرها ، فهل تستطيع المرور او النهوض أو الزحف ، فانه إذا أضطرب بك الصراط ، والتهب السعير من تحتك التهابا ، ولم تجد الى النجاة سبيلا ، ولا الى الخلاص مقيلا ، فلا ينفعك فى تلك الحال الا سعى صالح مشكور ، أو توبة نصوحا من ذنب مغفور ، فتخير الآن أى الاعمال أنجى لك ؟ وأى الطرق معينة لك على سعيك لما ينفعك ؟ وقد

---

(١) كذا فى الاصل ، ولعله فى نار جهنم .

روى ابن أبى الدنيا باسناده عن وهب بن منبه قال : وجدت فى زبور داود عليه السلام : ياداود هل تدرى من أسرع الناس ممرا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى والسنتهم رطبة من ذكرى *

﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾

(فى ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد)

قال الله تعالى : (ورحمتى وسعت كل شئ) وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « يجئ يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وقد تقدم فى حديث أبى هريرة « لكل أحد منزل فى الجنة ومنزل فى النار فالمؤمن اذا دخل الجنة خلفه الكافر فى النار لاستحقاقه ذلك بكفره » كما ورد فى الصحيح « هذا فكاكك من النار » وهذه بشارة عظيمة للمسلمين أجمعين . حتى قال الشافعى وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما : هذا الحديث أرجا حديث للمسلمين لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم . وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد مرفوعا . الى أن قال فيه : « فيقال أخرجوا من عرفتم » - يعنى من النار - فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، وقد أخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه . فيقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به ؟ فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً . الى أن قل : ثم يقال : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، وكان أبو سعيد الخدرى يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث ، فاقرؤا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) الآية . فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها

قوماً لم يعملوا خيراً قط ، قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له : نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل . قال : فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم ، يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله ؟ الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة ، فما رأيتموه فهو لكم . فيقولون : ربنا أعطيتنا مالم تعط لأحد من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا . فيقولون : ربنا وأى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » وفى حديث أنس بن مالك ، ذكر فيه الشفاعة ، مرة بعد مرة ، وأنه ﷺ . قال : « فى الآخرة فأقول رب ، أى رب إئذن لى ، فيمن قال لا إله إلا الله . فيقول الله : وعزتى وجلالى ، وعظمتى وكبريائى ، لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله » وفى رواية مسلم « ليس ذاك لك أو إليك » الحديث

﴿ فصل ﴾

وقد أخبر تعالى : أن رحمته وسعت كل شىء ، وأنه كتب على نفسه الرحمة وقال : سبقت رحمتى غضبى ، وغلبت رحمتى غضبى ، فالجنة دار رحمته ، والنار دار غضبه ، فثبت أن الجنة ينشىء لها خلقاً فى الآخرة ، ويدخلها أيضاً من دخل النار أولا ، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء ، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيراً قط ، وثبت أن النار لا يعذب أحد فيها بغير ذنب ، فرحمته واسعة .حتى أن جماعة من المفسرين ذكروا قصة فرعون . قال جبريل : يامحمد لو رأيتنى وأنا أدس الطين فى فى فرعون مخافة أن يقول فرعون كلمة يرحمه الله بها . فهذا جبريل من أعظم رسل الملائكة قد علم سعة رحمة الله ففعل ذلك مخافة إدراك الرحمة له ، مع أنه قال : (أنا ربكم الأعلا)

﴿ فصل ﴾

ومما ينبغى أن يعلم ، أن مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ، أن من

مات موحدا أدخل الجنة قطعاً على كل حال، فان كان سالما من المعاصى كالصغير، والمجنون الذى اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة نصوحا صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصى اذا لم يحدث معصية بعد توبته، ومن نشأ فى عبادة الله ولم يقارف معصية أصلا، كل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف فى الورود. والصحيح إن شاء الله تعالى على ماذكره جماعة من العلماء، أن المراد بالورود المرور على الصراط وهو منصوب على ظهر جهنم؛ أجارنا الله من حرها وبردها

وأما من مات من أهل المعاصى، أوله معصية كبيرة ولم يتب منها، فهو داخل تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه بمقدار ذنبه أو اقدر الذى يريده ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه مطلقاً، فلا يخلد أحد فى النار مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصى ما عمل، وهذا من أحسن ما يتسلى به من مات له قريب أو صاحب من أهل المعاصى، ومات وما يعلم هل تاب من المعاصى أم لا؟ قال أبو زكريا النواوى رحمه الله: وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به على هذه القاعدة، وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم للقطعى[1] بذلك انتهى كلامه *

ويؤيد ذلك بما ثبت فى الصحيح من حديث عثمان رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ». قال القاضى عياض: اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين، فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الايمان. وقالت الخوارج: تضره ويكفربها. وقالت المعتزلة: يخلد فى النار اذا كانت كبيرة. ولا يوصف بانه مؤمن ولا كافر لكنه فاسق. وقالت جماعة من العلماء: بل هو مؤمن وان لم يغفر له، وإن عذب فلا بد من إخراجه من النار، وادخاله الجنة. قال: وهذا الحديث حجة على الخوارج

---

(١) كذا بالاصل، ولعله يحصل بها العلم القطعى.

والمعتزلة ، وأما المرجئة فان احتجت بظاهره قلنا : نحمله على أنه غفر له وأخرج من النار بالشفاعة ، ثم أدخل الجنة ، ويكون معنى قوله عليه السلام : « دخل الجنة » أى دخلها بعد مجازاته بالعذاب . وهذا لا بد من تأويله لما جاء فى ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة . انتهى كلامه

ومن هذا الباب ماثبت فى الصحيح أن أبا الاسود الديلى حدثه أبا ذر قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على قميص أبيض ، ثم أتيته فاذا هو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ ، فجلست اليه . فقال : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة » قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال « وإن زنا وإن سرق » قلت : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : « وإن زنا وإن سرق » ثلاث مرات . ثم قال فى الرابعة : « على رغم أنف أبى ذر » قال : فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر ، وفيه رد على الخوارج ، وعلى المعتزلة بتخليد أهل الكبائر فى النار * وفى رواية للبخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى جبريل فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قلت : وإن زنا وإن سرق » وهو من حديث أبى ذر . وفى الصحيح من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار » وفى لفظ « من لقى الله لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وفى رواية « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وفى لفظ « من شهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله دخل الجنة » وفى حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وعنه أيضاً مرفوعا « من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة » وفى رواية « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا حرمه الله على النار » وزاد فى صحيح البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت « على ما كان من عمل » وفى صحيح البخارى

ومسلم من حديث أنس أن نبى الله ﷺ ومعاذ بن جبل رديفة على الرحل، قال: يامعاذ، قال: لبيك وسعديك يارسول الله، قال: يامعاذ، قال: لبيك وسعديك يارسول الله، قال: يا معاذ قال: لبيك وسعديك يارسول الله، قال: « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار » قال: أولا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: « إذا يتكلوا » فاخبر بها عند موته تأثما » - يعنى مخافة الأثم - وفى لفظ مسلم من حديث عبادة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار » وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ فذكره قال: « أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه » رواه البخارى * وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وإنى أختبأت دعوتى شفاعة لامتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا » رواه مسلم. وفى لفظ له « حرم الله على النار من قال لا إله إلا الله » وقد ورد فى ذلك عدة أحاديث، وغالب هذه الأحاديث سردها مسلم فى صحيحه فى باب واحد، فى باب الدليل على صحة اسلام من حضره الموت. لكن قال سعيد بن المسيب عند سماعه هذه الأحاديث: إن هذا قبل نزول الفرائض والأمر والنهى. وهذا القول عن سعد بن المسيب رحمه الله ليس بشئ. وقال بعض العلماء: هو خطأ، لأن راوى أحد هذه الالفاظ أبو هريرة وهو متأخر الاسلام، أسلم عام خيبر سنة سبع بالاتفاق، وكانت أحكام الشريعة مستقرة، كالصلاة والزكاة والصيام ونحوها، فعلم ضعف هذا القول والله تعالى أعلم. وقال بعض العلماء: هى مجملة تحتاج الى شرح؛ ومعناه: من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها. وهذا قول الحسن البصرى. وقيل: أن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك، وهذا قول البخارى.

وقد تقدم فى أول الباب حملها على ظاهرها ، وأن مذهب السلف والخلف من الفقهاء وأهل الحديث على أن من مات موحداً دخل الجنة ، وإن كان من أهل المعاصى ، وأنه داخل تحت المشيئة . والله تعالى أعلم *

وعن أبى جعفر قال : لما حضر أبو زرعة الموت ، وعنده أبو حاتم ، ومحمد بن مسلم والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء ، هابوا أن يلقنوه الشهادة ، فقال بعضهم لبعض : تعالوا نذكر الحديث ، فقال محمد بن مسلم : حدثنا الضحاك عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح ، ولم يجاوز ، وقال أبو حاتم : حدثنا بندار عن أبى عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح ، ولم يجاوز ، والباقون سكوت ، فقال أبو زرعة : ثنا بندار عن أبى عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن أبى غريب عن كثير بن قرة الحضرمى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » ثم توفى من ساعته رحمة الله عليه *

وعن عبيد بن عياش قال : لما ماتت النوار امرأة الفرزدق ، شهدها الحسن البصرى ، فلما سوى عليها التراب : وثب الفرزدق لينصرف ، فقال للحسن : ياأبا سعيد ، أما تسمع مايقول الناس ؟ قال : وما يقول الناس ؟ قال : يقولون : اجتمع فى هذه الجنازة خير الناس وشر الناس ، يعنونك ويعنوننى ، فقال الحسن : ما أنا بخيرهم ، وما أنت بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال ياأبا سعيد ، شهادة أن لا إله إلا الله ، فبكى الحسن ، ثم التزم الفرزدق فقال : لقد كنت من أبغض الناس الى ، وإنك اليوم من أحب الناس الى *

﴿ الباب الثلاثون ﴾

(فى فضل الزهـد فى الدنيا والتسلية عنها والرغبة فى الآخرة)

قال الله تعالى : (قل متاع الدنيا قليـل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) فالاستمتاع بالدنيا قليل ، ومتعتك بها قليل من قليل ، وثواب الآخرة خير وأفضل لمن اتقى المعاصى وأقبل على الطاعات ، ومما ينبغى أن يعلم : أن هذا الباب من أنفع الأبواب لمن تدبره ، فان الدنيا دار قلعة وزوال ، ومنزل نقلة وارتحال ، ومحل نائبـة وامتحان ، ومتاع غرور وافتتان ، فلا يأس عـلى مافات منها ، ولا يفرح عـلى ما وجد منها ، ولا يجزع على ولد أو نفس تموت ، ولا يحزن على أمر يفوت ؛ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : آخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سـبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك رواه البخارى . قال جماعـة من العلماء فى تفسير هذا الحديث : لاتركن الى الدنيا ، ولاتتخذها وطنا ، ولاتحـدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تغتربها ، فانها غرارة خداعـة ، ولا تتعلق منها بما لايتعلق به الغريب فى غيروطنه ، ولاتشتغل فيها بما لايشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب الى أهله ، وبالله فاستعن * وعن سهل بن سعد الساعدى قال : جاء رجـل الى النبى ﷺ فقال : يارسول الله دلنى عـلى عمل إذا عملتـه أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال : « إزهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » رواه ابن ماجه وغيره باسناد جيد . ولوائح الصحة ظاهرة عليه . وعنه أيضا رفعه الى النبى ﷺ قال : « لو ان الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء » رواه الترمذى وقال: حديث صحيح . وعن أبى هريرة قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول: « الا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » رواه الترمذى . وقال: حديث حسن * وروى الترمذى أيضا عن كعب بن عياض قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال » قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وروى الترمذى وحسنه وصححه عن عثمان ، أن رسول الله ﷺ قال: « ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال ، بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف الخبز والماء - قال ابن فارس فى مجمله: وعاء الشئ جلفه - قال الترمذى: سمعت أبا داود يقول: سمعت النضر بن شميل يقول : الجلفة الخبز ليس معه أدام . وقال غيره : هو غليظ الخبز : وقال الهروى : والمراد به هنا وعاء الخبز ، كالجوالق والخرج ونحوه ، والله أعلم . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن الشخير قال : أتيت رسول ﷺ وهو يقرأ ، الهاكم التكاثر ، قال : « يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فافنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فامضيت ؟ » وفى صحيح البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد قال : جلس رسول الله على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : « إن مما أخاف عليكم بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » وفى صحيح مسلم عنه أيضا أن رسول ﷺ قال: « إن الدنيا حلوة خضرة و إن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقو الدنيا واتقوا النساء » وفى مسلم أيضا عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى باشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فى الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله مامر بى بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » * وفى مسلم أيضا من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه

فمر بجدى أسك (١) ميت ، فتناوله فأخذ باذنه ، فقال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : مانحب أنه لنا بشئ ، وما نصنع به ؟ قال : « تحبون أنه لكم » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » * قوله كنفتيه أى من جانبيه * والأسك الصغير الأذن * وعن شهر بن حوشب عن عبادة بن الصامت قال : أراه رفعه الى النبى ﷺ قال : « يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال : ميزوا ما كان منها لله عز وجل والقوا سائرها فى النار » رواه ابن أبى الدنيا . وروى أيضا عن عبادة بن العوام عن هشام أو عوف عن الحسن مرسلا أن النبى ﷺ قال : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » واعلم أنه من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا مايبقى على ما يفنى * وعن الحسن مرسلا أن النبى ﷺ قالوا له : يارسول الله من خيرنا ؟ قال : « أزهدكم فى الدنيا وأرغبكم فى الآخرة » وقال رسول الله ﷺ : « من زهد فى الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه وأطلق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا داؤها ودواؤها وأخرجه منها سالما مسلماً الى دار السلام » رواه ابن أبى الدنيا *

﴿ فصل ﴾

ومن العجب كل العجب أن العبد يصدق بدار الخلود وهى يسعى لدار الغرور فمن أحبه الله حماه عن الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه عن الماء . وقد ورد فى الحديث مرفوعا : « إن الله لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وأنه منذ خلقها لم ينظر اليها » وروى ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا قال مالك بن دينار : قالوا لعلى رضى الله عنه : ياأبا الحسن صف لنا الدنيا ؟ قال : أطيل أم أقصر ؟ قالوا بل أقصر ، قال : حلالها

---

(١) السكك صغر الأذن ، وأذن سكاء ، ويقال : استكت مسامعه مثل صمت . اه من هامش الأصل .

حساب ، وحرامها النار . وعنه أيضا قالوا : ياأمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ؟ قال : وما أصف لكم من دار من صح فيها أمن ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، فى حلالها الحساب ، وفى حرامها النار (١) * وروى عن يونس بن عبيد قال : ماشبهت الدنيا الا كرجل نائم ، فرأى فى منامه ما يكره وما يحب ، فبينما هو كذلك إذ انتبه . وقال الحسن بن على : الدنيا ظل زائل . وقال أبو سليمان الدارانى : إذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزحمها ، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تزحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة . وقال الاوزاعى : سمعت بلال بن سعيد يقول : والله لكفى به ذنباً ، إن الله عز وجل يزهد فى الدنيا ونحن نرغب فيها ، فزاهدكم راغب ، ومجتهدكم مقصر ، وعالمكم جاهل *

فصل

واعلم أن شرور الدنيا كأحلام نوم ، أو كظل زائل ، إن اضحكت قليلا أبكت كثيرا ، وإن سرت يوماً أو أياما ساءت أشهراً أو أعواما ، وإن متعت قليلا منعت طويلا ، وما حصل للعبد فيها سرورا الا خبأت له أضعاف ذلك شرورا . قال ابن مسعود : لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحاً الاملئ ترحاً . قال ابن سيرين : ما من ضحك إلا يكون بعده بكاء . وقالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكا ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أذل الناس ، وأنه حق على الله عز وجل أن لا يملأ دارا حبرة (٢) ، الا ملأها عبرة . وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها فقالت : أصبحنا ذا صباح وما فى العرب أحد الا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا . وبكت أختها حرقة بنت النعمان يوما وهى

---

(١) والذى فى نهج البلاغة : ماأصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب . الخ باختلاف فى الروايتين (٢) الحبرة : السرور

فى عزها فقيل لها : ما يبكيك ؟ فذكر أنها قالت : رأيت كثرة أهلى وسرورهم ، وقلما امتلأت دار سروراً الا امتلأت حزنا . قال اسحاق بن طلحة : دخلت عليها يوماً فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس ، إنا نجد فى الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون فى حبرة الا سيعقبون بعدها عبرة ، وأن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه الا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلب(١) تارات بنا أو تصرف

و فى الحديث مرفوعا : « ما مثلى ومثل الدنيا الا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها » رواه ابن أبى الدنيا . وروى أيضاً قال عيسى عليه السلام : ويل لصاحب الدنيا كيف يموت و يتركها ؟ يأمنها وتغره ، ويثق بها وتخذله ، و يل للمغترين كيف أزفهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون ، ويل لمن الدنيا همته ، والخطايا عمله ؛ كيف يفتضح غدا بذنبه *

وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن وهب بن منبه قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض الى طيب الطعام ولا يلتذ من شدة الوجع ، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن ، تصعبت وتغير خلقها ، كذلك القلوب إذا لم ترق بذكر الموت ودأب العبادة ، تقسوا وتغلظ *

---

(١) تقلب ، بفتح التاء المثناة من فوق ، أصله تتقلب . اه من هامش الأصل

فصل

« وثبت في الصحيح مرفوعا : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا »

قال أهل اللغة : القوت مايسد الرمق ، وفيه دلالة على فضيلة التقليل من الدنيا ، والاقتصار على القوت منها ، والدعاء بذلك ، والله أعلم . فان الدخول فى الدنيا ، والميل اليها ، على خطر عظيم ، كما تقدم فى الصحيح مرفوعا « إن مما أخاف عليكم بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا » قال العلماء : فيه التحذير من الاغترار بالدنيا ، والنظر اليها ، والمفاخرة بها . فالدنيا وإن أقبلت على الشخص من وجه حل ، يخاف عليه الفتنة ، والاشتغال بها عن كمال الأقبال على الآخرة ، فان وفق لأعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل وصرفه فى وجوه البر كان من الفائزين ، والا كان من الهالكين . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن المستورد بن شداد النهرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة الا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بما ترجع اليه » وقال معاوية : سمعت على هذا المنبر رسول الله ﷺ يقول : « إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة ، وإنما مثل عمل أحدكم فمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله »

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من زهد فى الدنيا هانت عليه المصائب ، ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات * وقال الحسن البصرى : والذى نفسى بيده ، لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه .

ثم علامة الشقاء قسوة القلب ، وجمود العين ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا . وقال الفضيل بن عياض : علامة السعادة اليقين فى القلب ، والورع فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والحياء والعلم . وقال الفضيل أيضا : لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب بها فى الآخرة ، لكنت أتجنبها كما

يتجنب أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقال أبو هاشم الزاهد : خلق الله الداء والدواء ، فالداء الدنيا ، والدواء تركها *

﴿ فصل منه ﴾

حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة وبه مرض لايحتمل معه تطويل الخطبة ، فصعد الخطيب المنبر. فقال : الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف الأنبياء والمرسلين ، أما بعد : فان الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر، فخذوا لمقركم من ممركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم * فما أبلغ هذا الخطبة وأفصحها ، وأوجزها ، فعمر الدنيا والله قصير ، وأغنى غنى فيها فقير ، وكأنى بك فى عرصة (١) الموت وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل ، ورأيت أثر اليتم فى الولد قبل الفراق ، فيتقظ إذن من رقدة الغفلة ، وانتبه من السكرة ، وأقلع حب الدنيا من قلبك ، فان العبد إذا غمض عينه وتولى ، تمنى الاقاله فقيل كلا . قال أبو عمران الجونى : مر سليمان بن داود عليهما السلام فى موكبه ، والطير تظله ، والجن والانس عن يمينه وشماله ، قال فمر عابد من عباد بنى اسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد أتاك الله ملكا عظيما !! قال : فسمع سليمان كلمته فقال : تسبيحة فى صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود، ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى *

﴿ فصل ﴾

من بذل وسعه فى التفكر التام ، علم أن هذه الدار رحلة ، فجمع للسفر رحله ، ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء الى بطون الأمهات ، ثم الى الدنيا ، ثم الى القبر، ثم الى الحشر، ثم الى دار الاقامة الابدية ، فدار الاقامة هى دار السلام من

---

(١) عرصة الدار ، وسطها . اه من هامش الاصل

جميع الآفات ، وهى دار الخلود ، والعدو سبانا الى دار الدنيا ، فنجتهد فى فكاك أسرنا ، ثم فى حث السير الى الوصول الى دارنا الأولى ، وفى مثل هذا قيل :

فحى على جنات عدن فانها　　　منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى　　　نعود الى أوطاننا ونسلم

وليعلم أن مقدار السير فى الدنيا يسير يقطع بالأنفاس ، ويسير بالانسان سير السفينة لايحس بسيرها وهو جالس فيها ، كما قيل :

إنما هذه الحياة متاع　　　فالغوى الشقى من يصطفيها

مامضى فات والمؤمل غيب　　　ولك الساعة التى أنت فيها

ولا بد له فى سفره من زاد ، ولا زاد الى الآخرة الا التقوى ، فلا بد من تعب الشخص والتصبر على مرارة التقوى ، لئلا يقول وقت السير : أرجعون ، فيقال : كلا . فليتنبه الغافل من كسل مسيره فان الله تعالى يربه فى قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويفا لعباده ، لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم ، ونهجهم القويم ، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة ، فرأى مايخاف منه ، فليرغب الى الله بالرجوع اليه عما ارتكبه من الكسل(١) فيتوب من معصيته ، ويبكى من قسوته ، فاذا انتبه من رقدة كسله ، علم أن الدنيا دار غرور طبعت على كدر .

كما روى ابن أبى الدنيا قال : أنشدنى الحسن بن السكن :

حياتك بالهم مقرونة　　　فما تقطع العيش الا بهم

لذاذات دنياك مسمومة　　　فما تأكل الشهد الا بسم

إذا تم أمر بدا نقصه　　　توقع زوالا إذا قيل تم

(وكما قيل فى المعنى)

حكم المنية فى البرية جار　　　ماهذه الدنيا بدار قرار

---

(١) فى الاصل « السبل » وهو خطأ ظاهر

بينما يرى الانسان فيها مخبراً   حتى يرى خبراً من الأخبار
طبعت على كدر وأنت تريدها   صفوا من الأقذاء والأكدار

قال بعض السلف : أحذروا دار الدنيا ، فانها أسحر من هاروت وماروت ، فانهما يفرقان بين المرء وزوجه ، والدنيا تفرق بين العبد وربه

وذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر مرفوعا ، قال جعفر بن سليمان : سمعت مالكا يقول : إتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء . ـ يعنى الدنيا ـ وذكر ابن أبي الدنيا باسناده الى الحسن البصرى أنه كتب الى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فان الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم اليها عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فان الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها ، لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، هى كالسم يأكله من لايعرفه وهو حتفه ، فكن فيها كالمداوى جراحته ، يحتمى قليلا ، مخافة مايكره طويلا ، ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة ، الحيالة الخداعة ، التى زينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وختلت بآمالها ، وتشرفت لخطابها ، فاصبحت كالعروس المجلية (١) فالعيون اليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا الآخر على الأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبر عنها مدكر ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه ، فعظمت ندامته ، وكثرت حسرته ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، وكن أسر ما يكون فيها أحذر ماتكون لها ، فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور ، أشخصه الى مكروه ، قد وصل الرخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها الى فناء ، فسرورها مشوب بالحزن ، لايرجع منها ماولى فادبر ، ولايدر ماهو آت

(١) كذا بالاصل : والصواب « المجلوة » أى المتزينة

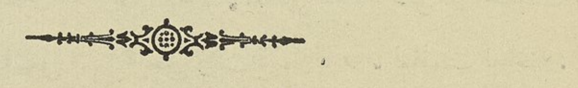
فينتظر ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نـكد ، وابن آدم فيها على خطر ، ولقد عرضت على نبيك محمـد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقـه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختبارا ، وبسطها لأعـدائه اغتراراً . جاءت الرواية أنه تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام : (إذا رأيت الغنا مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين)

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سـيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً *

وفى آخر الأصل الذى طبعنا عليه مايأتى بخط المؤلف : —

علقها مؤلفها محمد بن محمد بن محمد المنبجى الحنبلى كان الله له وسامحه بمنه وكرمه من نسخة أصله فى رجب الفرد سنة سبع وسبعين وسبعمائة أحسن الله عاقبتها .

(تم)



﴿ فهرس ﴾

تسلية أهل المصائب

(لأبى عبد الله محمد بن محمد المنبجى الحنبلى)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

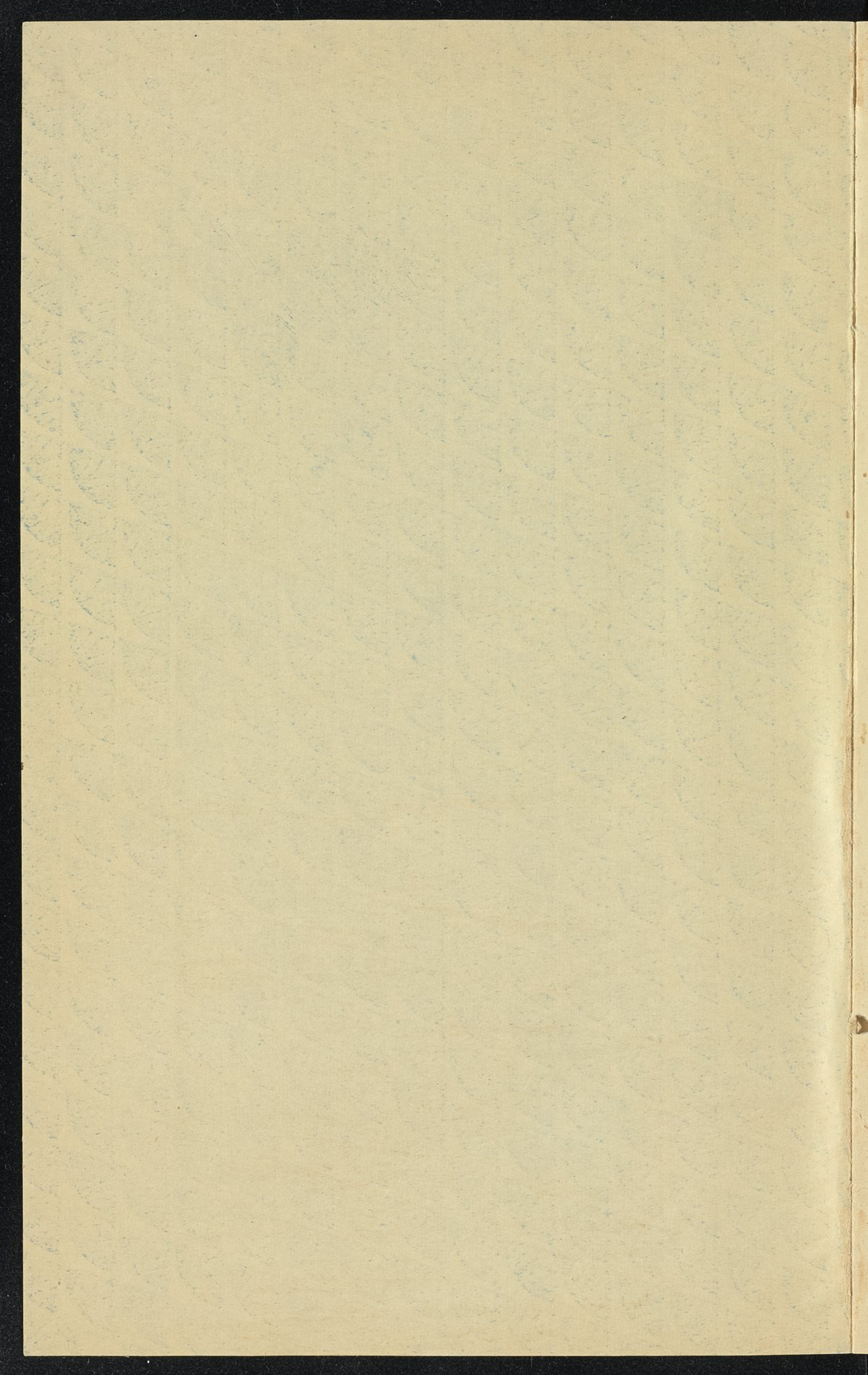
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

تم بحمد الله طبع هذا الكتاب الجليل فى أوائل شهر ربيع الثانى سنة ١٣٤٨ هجريه بعناية السيد محمد أمين الخانجى الكتبي يسر الله له الامور.








COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59576022
ME06588
Tasliyat ahl al-masa